

حب الله، محمود
الحياة الوجدانية والعقيدة الدينية
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01002378

[REDACTED]

حب الله و محمود ،

الحياة الوجدانية والعقيدة الدينية

171
H 87A

~~APR 6 1987~~

~~J. L.~~

~~7 FEB 1987~~

~~4 MAY 1987~~

قسم الذ

علم النفس الاجتماعي والديني

171
H87hA
C.1

الحياة الوجدانية والعقيدة الدينية

تأليف

الدكتور محمود حبّ الله

دكتور في الفلسفة من جامعة لندن
أستاذ الفلسفة وعلم النفس بكلية أصول الدين

٥١٣٦٧ — ١٩٤٨ م

دار احياء الكتب العربية
عيسى الببائي الخليلي وشبركة



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على من جاء بكمال الهداية الربانية ،
متمما للأديان الالهية ، وخاتما لسلسلة الرسالة والنبوة ، سيدنا محمد ، وعلى الرسل
والأنبياء من قبله ، وعلى آله وصحبه ، ومن اهتدى بهديه . وبعد :

فلما كان الإنسان الكائن الوحيد الذي تتمثل فيه كل نواحي الوجود ، وكان
الحل الوسط في سلسلة الموجودات ، كان جديرا بأن يكون المركز الذي يبدأ
منه التفلسف ، ويتركز حوله النظر ؛ لينتقل العقل منه بسهولة ويسر ، في
حركته التصاعدية ، إلى من هو أرق منه في الوجود ، وفي حركته التنازلية ،
إلى ما هو دونه فيه . ولما كان الوجدان القوة الحيوية التي تساعد هذا
الإنسان على البقاء ، وكان العامل الأول في تكوين شخصيته ، وتحديد سلوكه ،
وتوجيه إرادته ، كان أقرب قواه إليه ، وأكثرها أهمية في حياته ؛ ولذا كان
قديماً بأن يأخذ مكان الصدارة في المباحث المتعلقة به .

ولقد عالج كتابي هذا ، بجانب الوجدان ، عدة موضوعات أخرى
ترتبط معه برابط متين . وذلك لأن الوجدان هو تلك القوة التي تغذي
العواطف ، وتربها ، وتكونها ؛ والعواطف ، بما تتطلب من ثبات واستقرار
حول موضوعاتها ، تربي الشخصية وتقويها ؛ وما الجماعة الإنسانية إلا الشخصيات
المتعددة ، حين يشعر بعضها ببعض ، وبما بينها من غايات مشتركة ؛ وأما العقيدة
الدينية ، فعلى الرغم من شدة ارتباطها بالعقل ، كما سيتبين بعد ، فانها لا تستغنى
عن الوجدان بحال ، ولا تعتمد ، عند جمهور الناس ، إلا عليه ؛ وما الترغيب
والترهيب ، وما الانذار والتخويف ، التي تستعملها الأديان والقوانين الوضعية على
السواء ، إلا وسائل تهدف نحو إثارة الوجدان ، ليدفع إلى العمل ، لأنه القوة

الدافعة إليه ، كما أنه قوة الحياة . والعقيدة الدينية ، بدورها ، تثير الوجدان ، وتوجهه ، وتجعل المرء قادرا على تحمل احن الحياة ومحنها ، وتباعد بينه وبين حياة التشاؤم وكل أسباب الشنوذ النفسية ، فيكون متزن الشخصية ، معتدل السلوك ؛ ويؤثر هذا بدوره في قوة الجماعات ونهضتها ؛ وهي تساعد الجماعة ، فوق هذا ، على الاستقرار والنهوض ، بما تدعو إليه من ألفة ووثام ، وتنظيمها للنزعات الفردية . وتلك هي موضوعات الكتاب ، وهي ، كما ترى ، موضوعات مترابطة ، متلازمة ، ويوصل كل واحد منها ، حين يؤخذ بنفسه ، إلى البقية .

وهي ترمى كلها ، بعد هذا ، إلى هدف واحد ، وهو هدف الكتاب . وذلك هو أن أساس الحياة الخارجية ، والمظاهر المادية ، التي يفعلها المرء إرضاء لبعض الموجودات المغايرة له ، مسطور كله في نفسه التي بين جنبيه ، وليس فيها ما هو غريب عنه ، أو مالا يجد له مكانا في نفسه . فأساس الخضوع لله وعبادته والايمان به موجود في نفسه ، وكذا أساس العزة والغلبة والتسلط ؛ وأساس الخضوع للبيئة الاجتماعية وإيثارها على ذاته موجود في نفسه أيضا ، وكذا أساس الأنانية والفردية المتطرفة . وكما أنه في حاجة إلى إشباع ميوله الفردية فهو في حاجة إلى إشباع ميوله الاجتماعية والدينية ؛ وكلا الإشباعين ضروري لتحقيق الطمأنينة النفسية والهدوء القلبي ؛ وكلاهما ضروري في إيجاد الشخصية المتزنة والجماعة الناهضة . وكما أن الحياة في جماعة طبيعة انسانية وضرورة ، فكذا الحياة الدينية ؛ ولا يقدر المرء على التخلص من الحياة الأخيرة إلا بمقدار تخلصه من الحياة الأولى . وأما هؤلاء الذين يزعمون أنهم قد خلصوا أنفسهم من ربة حياة الاعتقاد فهم مخدوعون ؛ وذلك لأنهم لم يخلصوها إلا من الايمان بأحد الأديان فحسب ، ولكنهم في الواقع ونفس الأمر معتقدون كما يعتقد غيرهم من الناس .

تلك هي غاية الكتاب ؛ ومن الله أستمد العون والتوفيق ليوصلني إلى تلك الغاية .

محمد حب الله

القاهرة : ١٣ جمادى الآخرة ١٣٦٧
٢٢ ابريل ١٩٤٨

الحياة الزوجية

و

أ

ف

ر

ا

ر

و

م

ر

ف

ل

ا

ر

ع

ا

الحياة الوجدانية

ليس الإنسان في حياته الدنيا عالماً مستقلاً بنفسه عن كل العوالم الأخرى ، وليس للفرد من النوع الإنساني استقلال كذلك عن نوعه . وعلى الرغم من أن كل فرد من الأفراد يبدو متمتعاً بحياة خاصة لا يشاركه فيها غيره ، ولا يتأثر فيها بغيره ، وأن له شخصية متميزة عن سائر الشخصيات الأخرى يتصرف بها في المناسبات المختلفة ، فإن تلك الشخصية المتميزة وتلك الحياة الخاصة أثران ، لحد كبير ، لتفاعله الضروري مع البيئة التي يعيش فيها .

يحتاج الإنسان ، في تكوينه وبقائه ، إلى بيئة يستمد منها قوته ، ويحفظ بها كيانه ، وتساعد على أن يؤدي وظائفه في الحياة . فهو يحتاج الماء ، ويحتاج الغذاء ، ويحتاج الهواء ، ويحتاج أرضاً صلبة يمشى عليها ، ويحتاج مالا يكاد يخصص من مواد أخرى . وهو ، فوق ذلك كله ، يحتاج بيئة اجتماعية من جنسه ليندلل بها الحياة الجائعة ويتغلب على صعوباتها ، ولتهيء له فرصة البقاء في عالم لا يعيش القوى فيه إلا على حساب الضعيف . فقد وجد الإنسان وليس له من القوى الطبيعية ما لغيره من كثير من الحيوانات ، وولد على وضع لا يمكن أن يعيش معه إلا إذا تكفل به متكفل ، فإن لم تكن له تلك البيئة الاجتماعية كان مصيره إلى الفناء . فهو بحكم تركيبه وطبيعته يحتاج إلى مجتمع ؛ ولذا عرف بأنه « حيوان اجتماعي » ؛ وحب الاجتماع غريزة إنسانية لها أثرها الفعال في بناء المجتمع وتكوينه ، ومن ثم في تحقيق رغبات الفرد وحاجاته .

ومع أنه يحتاج غيره من عالم النبات والحيوان والجماد ، فليس هو عالة على كل هؤلاء من غير أن يقدم معروفاً بمعروف ، إذ هو كذلك محتاج إليه ، لأنه بيئة غيره . فالإنسان بحكم طبيعته وبنائه يستمد من غيره ويستمد منه غيره ، وهكذا شأن الله في خلقه وجلت حكمته عن أن تحيط بها العقول ، أوجدتهم بحيث يحتاج الواحد منهم الآخر ، ويتأثر بعضهم ببعض ، فهم أفرادا وكتلا وجماعات ، كدائرة من القوى المختلفة يؤثر السابق منها في اللاحق ، وكل منها سابق ولاحق ، وهكذا كل منها فاعل ومنفعل ، ومؤثر ومتأثر .

فالإنسان إذن بطبيعته عرضة لمؤثرات خارجية وعوامل نفسية من شأنها أن تساعد على تأدية وظيفته في الحياة أو أن تعوقه عنها ، فتزيد من قوته في الأولى وتضعف منها في الثانية . وتلك المؤثرات أعراض ومظاهر تبدو على الجسم وتحس بها النفس . وهي تختلف قوة وضعفاً حسب اختلاف الدواعي والمثيرات في القوة والضعف ، وحسب ما قدمته للجسم من مساعدة أو من عوق . وتلك الآثار النفسية التي توجد بها المثيرات الخارجية قد تكون مركبة ومتركزة في النفس بحيث تصبح كطبيعة من الطبائع لا يعترىها التغير بسهولة ، بل تكون قوة محرّكة نفسية ذات استقرار وثبات . ومن هذا نشأ ثلاثة أنواع من الآثار النفسية أو الوجدانات :

(أ) وجدان مطلق .

(ب) انفعالات .

(ج) عواطف .

الوجدان

وليعيش الإنسان في مجتمعه المتغير وبيئته المتقلبة فإنه لا بد له من أن يكون مطاوعا لها ، يعيل مع الرياح حين تميل . فلا بد له من أن يكون بحيث يتغير وأن يحاول أن يوفق بين نفسه وبين ما يعيش فيه من بيئات وإلا كان نصيبه الفناء . فمن عاند البيئة الطبيعية نبذته أو أفنته ، ومن عاند البيئة الاجتماعية لفظته أو هذبتة ، ثم كان عليه أخيرا أن يفر منها وإليها . وكل محاولة من هذا القبيل ، وكل مجهود يبذل في سبيل التوفيق بين المرء وبيئته ، فهو إما مصحوب بنوع من السرور أو بنوع من الألم نتيجة للنجاح أو الإخفاق فيه . وهذا السرور أو ذلك الألم يختلف في درجته من القوة والضعف بحسب الدرجة من النجاح أو الإخفاق التي اكتسبها المرء من محاولاته هذه ، وبحسب ما بذل من جهود في هذا السبيل . وهكذا ، فكل مجهود بذل من الشخص وصاحبه نجاح ولم يصادف كثيراً من العقبات ، أو صادف منها ما أمكن تذليله ، فإنه يكون مصحوبا بشعور بالسرور واللذة ، ولكن إذا ما كان نصيبه الإخفاق فإنه يكون مصحوبا بشعور من الألم والحزن يتفاوت في درجات عمقه وشدته من مجرد ألم إلى يأس قاتل .

ذلك الشعور النفسي بالسرور أو بالألم الناشئ عن نجاح العضو أو إخفاقه في محاولته عملا من الأعمال أو حركة من الحركات هو ما نسميه « الوجدان » أو الإحساس الوجداني أو الشعور الوجداني . فالوجدان ، إذن ، هو شعور بسرور أو بألم ناشئ عن محاولة الإنسان التوفيق بينه وبين بيئته . وهو لذلك

موجود مع الإنسان من مهده إلى لحده ، ومصاحب لكل مرحلة من مراحل الحياة العقلية ، فلا يخلو منه شخص مادام يقظا . وبما أن كل إدراك عقلي أو عمل جسمي لابد أن يكون مصحوبا بشعور وجداني فإنه يمكن القول ، وكثيراً ما قيل ، بأن كل إحساس أو تفكير أو تخيل أو تذكر لابد أن يكون سارا أو مؤلماً . وذلك باعتبار مصاحبه من شعور وجداني . لأن كلا منها مصحوب بالضرورة بشعور وجداني من سرور أو ألم .

هاتان الحالتان من الشعور الوجداني - حالتا السرور والألم - حالتان متقابلتان ومتضادتان لا يمكن أن يجتمعا في نفس المرء وفي نفس الوقت . فلن يكن المرء حزينا ومسرورا في وقت واحد ؛ ولقد كان ذلك الشاعر الذي يقول :

« غلب السرور على حتى أنه من فرط ما قد سرني أبكاني »

حذراً ولبقاً فلم يجعل زمنيها واحداً بل جعل البكاء مرتباً على السرور ؛ على أن البكاء وتساقط الدموع شيء غير الحزن . ولا يمكن إرجاع أحد الشعورين للآخر كذلك . وذلك أمر لا يكاد يختلف فيه اثنان من علماء النفس ، ولكنهم يختلفون بعد ذلك في شرح ماهية الوجدان وطبيعته وفي تحديد علاقته بحالات العقل الأخرى .

فيذهب بعض العلماء إلى أن الوجدانات لا تختلف في شيء مهم عن الإحساسات ، بمعنى أنها بطبيعتها وفي جوهرها إحساسات . ويرى آخرون أنها صفة من صفات الإحساسات فهما متلازمان ولكن ليسا متحدين .

ويرى فريق ثالث أن الوجدان ظاهرة نفسية تختلف كل الاختلاف عن

الظواهر العقلية الأخرى . فليست إحساساً ولا صفة من صفاته ، وإن كانت ملازمة له وناشئة عنه . وهذا — على ما يظهر — هو الرأى المنصور للأسباب الآتية : —

(١) إنه من الممكن وجود أنواع متميزة من الإحساسات ، فتحس بحرارة وبرودة أو بما هو بارد وبما هو أشد منه برودة في نفس الوقت . وتضع يدك اليمنى في إناء فيه ماء دافئ ، واليسرى في إناء فيه ماء بارد فتحس الأولى بالدفع والأخرى بالبرد في نفس الوقت . أما الوجدان فليس كذلك . إذ أنه شعور وجدانى واحد لا يتعدد ؛ ولو وجدت مشيرات لأنواع مختلفة من الشعور لأزال أحدها الآخر بحيث لا يبقى إلا شعور واحد لا تعدد فيه .

(٢) إن الإحساس مكاناً معيناً في الجسم ، فالجوع في المعدة ، والصداع في الرأس ، والعطش في الحلقوم ، والتعب العضوى في العضو الذى جهد وقتاً طويلاً ، وهكذا ؛ أما اللذة والألم ، وأما الخوف والغضب ، وأما حب الجمال والكمال ، وأما اللذة والألم ، وأما الوجدانات كلها فليس لها مكان خاص في الجسم ؛ إن مكانها الإنسان وليس جسمه فقط ، وإن فيها نوعاً من الإدراك بجانب ما فيها من وجدان ، فليست مجرد ميول عمياء .

(٣) إنه من الممكن توجيه الذهن إلى الإحساسات وحصر الانتباه فيها ، ويمكن تحليلها وملاحظتها ملاحظة نفسية دقيقة . وأما الوجدانات فإنه من الصعوبة بمكان أن يوجه الإنسان انتباهه إليها محاولاً فهم كنهها وإدراك حقيقتها ، فإنه حين يبدأ يفعل ذلك تزول عنه تلك الحالة الوجدانية التى حاول فهمها . ومن هذا كانت تبحر بنا الوجدانية غامضة بالنسبة إلى تجاربنا حول الإحساسات .

ويقولون إن خير علاج لمن كان تحت انفعالات نفسية أن يوجه تفكيره نحو هذه الانفعالات نفسها ويحاول شرحها وشرح أسبابها وقيمتها ، فإنه إن نجح في هذا التوجيه لا يلبث أن تهدأ نفسه ويطمئن قلبه ويذهب ما به من انفعال ، لأن تفكيره فيها يشغله عنها .

(٤) كثيراً ما تظهر الوجدانات كأنها أمر ذاتي وليس موضوعيا : فهي تختلف باختلاف الأشخاص وباختلاف المثيرات وباختلاف حالات التأثر ، وكأنها أمر نسبي لا يتبع قاعدة مطردة . وأما الإحساسات فإنها في غالب الأحيان تتبع قوانين لا تتغير ، وتسير على غرار واحد يستوى فيه كل الأشخاص .

قد رأينا أن الوجدان حالة شعورية بسرور أو بألم من شيء معين . فالتعريف يشير إلى ناحيتين : ناحية « الحالة الشعورية » - الحالة النفسية ، وناحية توجهها نحو « شيء معين » . فهناك ، إذن ، الحالة النفسية المتميزة عن الموضوع الذي أثارها والتي لا بد أن تتميز عنه . ولكننا نلاحظ في تجاربنا اليومية أن النسبة بين تلك الموضوعات وبين الحالة النفسية ليست نسبة طردية ، بحيث أنه يتكرر نفس الشعور كلما تكرر نفس الموضوع . فليس من الضروري أن يكون الموضوع المثير للذة أو ألم في الماضي مثيراً للذة أو ألم في الحاضر أو في جميع الأوقات . فأكل العسل ، مثلاً ، يثير فينا الشهية للأكل ويسبب نوعاً من اللذة ، ولكن كثيراً ما تعرض النفس عنه عند امتلاء المعدة . وإن كثرة الأكل من أحب الأشياء إلينا قد يجعلها معافة وقابضة للنفس . وأما الإحساس فإنه يتبع قوانين مطردة لا تتغير . فالنار دائماً وبحكم العادة تحرق ، وتسبب الحرارة ؛ والماء يطفئ الظأ ويسبب البرودة . وأنه من السهل بعد كل

هذا أن أحس بما تحس به من موضوعات ، وأن أعلم ما أعلم ، وأن أريد كل ما تنزع إليه نفسك ؛ ولكنه ليس من السهل أن تكون حياتي الوجدانية مثل حياتك ، فأتأثر بكل ما تتأثر به ، وأن تكون انفعالاتي وعواطفى مثل ما عندك من انفعالات وعواطف .

ومن ثم كان لنا أن نقول إن الوجدانات « ذاتية » والإحساسات « موضوعية » ، وأن نقول إن الوجدانات ظواهر نفسية تختلف كل الاختلاف عن الإحساسات وعن العمليات العقلية الصرفة ، لأن هذه الأخيرة عمليات تحليل وتركيب ، وعمليات فهم وإدراك ؛ فهي عمليات تستتبع شعورا وجدانيا وليست نفسها شعورا وجدانيا .

أنواع :

قد رأينا أن الشعور الوجداني هو تشكيل النفس بكيفية السرور أو الألم ، وعلمنا أن هذين الشعورين ضدان لا يجتمعان في نفس الوقت عند المرء الواحد . وبقي علينا الآن أن نعلم كذلك هل هما نقيضان لا يرتفعان بحيث لا يخلو الشخص عن واحد منهما ؟

نحن نعلم أن العقل ، أثناء يقظته ، لا بد له من القيام ببعض الأعمال ، وتلك طبيعة له لا تتغير ، وتلك حياته . فإذا ما تبع كل عمل عقلي شعور وجداني بلذة أو بألم نتيجة لبوغ العقل الهدف الذي يرمى إليه أو عدم بلوغه إياه كان لزاما أن نقول إن كل إنسان في يقظته فهو إما مسرور أو متألم .

ولكن قد يقال إن تجاربنا اليومية تناقض تلك النتيجة الحتمية ،

فكثيراً ما نشعر بأننا في حالة عادية لانجد فيها سرورا ولا ألما ؛ ويظهر أن حياة الشخص العادي منا تجرى على هذا المنوال ، وخصوصا أيام الاستقرار والطمأنينة حين يخيّل للمرء أن الحياة تمر مرّاً ميكانيكياً صرفاً ، وليس فيها شيء من الأحداث والمفاجئات ولا يعترىها كثير من التغيرات ؛ وقد يقال أيضاً إن إفلاطون يرى مثل هذا الرأي في جمهوريته حين يقول ان الناس يخطئون في فهم معنى السعادة حين يظنون أنها نقيض الشقاوة ، في حين أنها ليست في الواقع نقيضاً لها بل ضدّاً . وذلك لأن هناك حالة ثالثة بينهما قد يتصف بها المرء ، وهى ليست بحالة شقاوة ولا بحالة سعادة ؛ كما أن هناك حالة ثالثة بين حالتى الصحة والمرض ليست إحداها . فالشخص الذى لم توجد عنده أسباب السعادة والسرور ليس بسعيد ولا بمسرور ، كما أن الشخص الذى لم توجد عنده أسباب الألم ليس بمتألم كذلك . والشخص الذى نقه من علته ولم يسترد بعد قوته ليس بمريض ولا بصحيح ولكنه شيء بينهما . إذن يمكن القول بأن هناك حالة ثالثة لا يشعر الانسان فيها بسرور ولا بألم ، إذا لم يكن هناك ما يستدعى واحداً منهما أو الآخر ، وبأن السرور والألم ليسا حاصرين لأنواع الشعور أو لكل أنواع الحياة الوجدانية .

ولكننا إذا ما أمعنا النظر قليلا وبجئنا نواحي الموضوع كلها وجدنا أن الأمر بعكس ذلك وأن المرء لا يتخلو في يقظته عن حالة شعورية بشيء من السرور أو الألم نتيجة لتفاعله الحتمى مع بيئته الطبيعية والاجتماعية . لأننا مادمننا نسلم أن العقل لا بد أن يكون عاملاً مادام يقظاً - وتلك قضية لا نزاع فيها - وجب القول بأنه لا بد أن يتأثر بشعور وجدانى نتيجة لتلك الحركة العقلية .

فكل محاولة للعضو وكل عمل يقوم به العقل فهو لتحقيق غرض من أغراض العضو أو العقل : قد يكون المحافظة على العضو ، أو على سائر الجسم ، أو المحافظة على النوع أو تحقيق نفع مادي أو أدبي للجسم أو للعقل أو للبيئة والمجتمع .

ولكن ليس من الضروري أن يكون ذلك الغرض الباعث على العمل أو على الحركة دائماً واضحاً في النفس ومتميزاً فيها بنفسه . فقد يكون في مستوى هو أدنى درجات الشعور ، وقد لا تتوجه إليه النفس بخصوصه ، ولكنه على أي الحالات موجود . فكل ما يعوق العقل أو يمنع العضو عن تأدية وظيفته أو يحول بينه وبين تحقيق غرضه ، أو يسبب له ألماً أو تعباً فإنه من الطبيعي أن يحدث ألماً نفسانياً ، وهذا هو مانسميه شعوراً وجدانياً بالألم ؛ وكل ما يساعد العقل أو العضو ويعينه على تأدية تلك الوظيفة فإنه يثير شعوراً وجدانياً ، وهو مانسميه الشعور بالسرور . وكل ما في العالم من جزئيات أو أجزاء فهو متصل بعضه ببعض ، بحيث إنها كلها متفاعلة ، يؤثر الواحد منها في الآخر ، فيغير من وضعها وحالتها لحد ما ؛ فهذا يساعد العضو على تأدية مهمته وذلك يعوقه ؛ وهذا يوافق المزاج وذلك لا يتفق معه ؛ وهذا تعافه النفس وذلك تقبله ؛ والطقس اليوم جميل تناسب حرارته حرارة الجسم ، وترتفع حرارته غداً عن حرارة الجسم أو تنخفض عنه فتسبب شعوراً وجدانياً ساراً أو مؤلماً ؛ وتلك سنة الله في الدهر القلب . نعم قد لا يكون تأثير أحد الشئيين على الآخر تأثيراً مباشراً بحيث لا ينتبه إليه ، ولكن الشعور الوجداني أدق من الانتباه فينفعل بما تنتبه إليه وبما لا تنتبه إليه .

ولا مرء في أن هناك تفاعلاً مستمراً بين كل الكائنات . وكلما ازدادت معرفتنا بالعلوم الطبيعية ، وكلما ازدادت دراستنا للكون ، ازداد إيماننا بذلك التفاعل المستمر بين جزئيات مافي الكون ، وعلمنا بأنه ليس هناك من ذرة في الأرض إلا ولها أثرها في موجودات أخرى تحتاج إليها ؛ ومن ثم يزداد علمنا ويقوى يقيننا بأنها لم توجد عبثاً . وما المد والجزر وتأثيرها في الأجواء والقمر ، وما القمر والجو وتأثيرها في الزراعة ، وما النباتات والماء وحاجة كل الحيوانات إليها ، إلا مثل لهذا التفاعل ، وما الهواء وعمليات التنفس ، وما الغذاء وتحوله إلى مواد صالحة لبناء الجسم إلا أمثلة أخرى لهذا التفاعل .

ولو فرضنا أن العقل لم يتنبه لبعض المؤثرات الخارجية فلم تتدخل في حياته الإدراكية لا بسلب ولا بإيجاب ، ولم تكن عوناً له ولا عائقاً ، فإنه من الطبيعي والحالة هذه أن يستمر العقل في عمله ، وفي استمرار العقل في عمله بدون عائق شعور وجداني سار . ويظل العقل هكذا متمتعاً بشعوره الوجداني السار حتى يأتي العائق أو حتى يتعب ويميل فينشأ عن ذلك شعور بالألم .

على أنه ينبغي أن يلاحظ أن اللذة والألم كثيراً ما يوجدان من غير أن تتوجه النفس إليهما أو إلى أحدهما بوجه خاص . فنحن لانشعر غالباً بشعور السرور إلا إذا ارتفعت نسبته على الألم إلى حد غير قليل ، وكذا الحال مع الألم . ولكن هناك حالات من الألم أو اللذة التي قد لاتتوجه إليها النفس بوجه خاص لأنها ليست من القوة بمكان ، فهي غير واضحة للذهن ؛ ولهذا قد تعتبر حالة نفسية أخرى ليست هذا ولا ذاك مع أنها في الواقع حالة سرور أو حالة ألم . ونظير هذا أننا لانشعر بحرارة أو برودة أو بالأحرى لايتوجه الذهن إلى واحدة منهما

بعينها إلا إذا ارتفعت درجتها بأكثر مما نعرف عادة . ولا يلزم من عدم توجه
الدهن إلى إحداهما بخصوصها عدم وجودها في الخارج ، فقد لا يتوجه الدهن إلى
ما هو واقع وموجود . والآلات التي تقاس بها درجات الحرارة والبرودة تسجل
مقاييس جوية لا يشعر بها الشخص العادي منا . ومثال ذلك أيضا شعورنا أحيانا
بسكون قد نظنه تاما مع أنه ليس في الواقع إلا غيلبا نسبياً للأصوات ، ويظهر
ذلك جلياً عندما تنتقل من هذه الحالة إلى حالة أخرى أكثر سكوناً من الأولى ،
فإن الحالة السابقة تظهر بالمقارنة كحالة ضوضاء وجلبة . ومثل هذا يقال في
الشعور باللذة والألم - أحدهما دائماً حاضر ، وإن كانت النفس لا تنتبه إليه دائماً .

أقسام :

قد رأينا أن الوجدان ينقسم باعتبار ذاته وطبيعته قسمين : شعور باللذة
وشعور بالألم ، وعلمنا ما يشير كلا منهما ، ولكنه يمكن الآن تقسيمه باعتبار
أسبابه المثيرة له . وهو بهذا الاعتبار ينقسم إلى عقلي ومادى .

فالوجدان العقلي هو كل وجدان نشأ عن إدراك معنى من المعاني السارة أو
المؤلمة ، كالحب والبغض والفرح والحزن ، وكذا كل الصفات النفسية التي لم تنشأ
عن تأثر أعصاب الحس بموضوع الوجدان ، ولكن نشأت عن معنى مدرك فيه .
فحبنا لأنفسنا ، وحبنا لزملائنا وللشخصيات البارزة يكون من هذا القبيل .
فنحن نحسهم لمعاني مدركة هم يمثلونها ، فهم ليسوا في الواقع إلا مظهراً لمعنى
نقدسُه ونحترمه . ومن هذا النوع من الوجدان أيضا حبنا للجلال والجمال
والعدل والكمال ، ومقتنا للظلم والعدوان ولكل معنى لا يستسيغه العرف أو
العقل أو الدين .

وأما الوجدان المادى فهو كل وجدان نشأ عن تأثر أعصاب الحس بمؤثرات سارة (أو مؤلمة ، كالجوع والعطش ، ومشاهدة الأشياء الجميلة أو القبيحة وسماع الأصوات الحسنة أو المنكرة إلخ . . . ويختلف هذا النوع من الوجدانات عن سابقه فى أنه لا يكاد يختلف فى الكائنات الحية مهما تباينت أنواعها وتباعدت ديارها واختلفت فصائلها . فالأعراض التى تظهر على كلب يلهث عطشاً أو يحس بحرارة الجوع لا تختلف فى شيء مهم عن الأعراض التى تظهر على إنسان يشعر بالظما أو يحس بالجوع . وإنه من الممكن كذلك وصف الوجدانات الجسمية وتحديد مواضعها إجمالاً ، بخلاف الوجدانات العقلية ، فإن الناس تتباين فيها تبايناً عظيماً بقدر استعدادهم ومبلغ ثقافتهم وتهذيبهم .

أثره :

للوجدان بقسميه أثر كبير فى تطور كل من الحياة العقلية والجسمية للإنسان ونموه . فنحن نفهم من حدوثه أن شيئاً معيناً (وهو موضوع الوجدان أو المثير له) كان فى الماضى معيناً لذلك العضو الذى قام به الوجدان على تأدية وظيفته أو مساعداً لنوعه على البقاء ، أو عائقاً له عن أن يؤدى مهمته . فسرور الطفل عند احساسه بشيء يبين لنا أن ذلك الشيء كان فى الماضى عاملاً من عوامل نموه هو أو من عوامل نمو نوعه الإنسانى ، أو على أقل تقدير ، كان له صلة مباشرة أو غير مباشرة بالمحافظة على النوع ، وبكاؤه عند احساسه بشيء آخر يدلنا على أن أثر ذلك الشيء كان عكسياً ، وأنه كان هو أو نظيره من الأشياء عائقاً له أو لنوعه الإنسانى عن تأدية مهمته فى الحياة .

فليس الوجدان إذن إلا نذيراً بأن ظاهرة معينة سوف تحدث من شأنها

أن تساعد على نمو الإنسان وتعين على بقائه أو تعوق منه . ولكنه ليس مبرهنا على أنه لابد من حدوث تلك الظاهرة ، وأنها لابد أن تساعد العضو أو تقف في سبيل نموه . إذ ليس هناك من تلازم بين القضية التي تقول : « إن موضوعا معيننا قد ساعد العضو أو عاقه في الماضي » والقضية التي تقول : « إن هذا الموضوع بعينه يساعد أو يعوق الآن » ، فالوجدان مشير إلى حالات ماضية ومحدث عن نتائج قد وجدت بالفعل ، وحدثت مرتبطة بموضوعات معينة قد جربت تحت مناسبات خاصة . ومهمة العقل حينئذ أن يختبر كل الظروف والأحوال الملازمة لتلك الوجدانات ومثيراتها، ليرى إذا كان الوجدان مصيبا في تقديره أم مخطئا . لذلك كان لزاما على من يشعر بشعور وجداني ألا يتسرع في الحركة والعمل بمقتضى وجدانه ، بل يترى ويتدبر في الأمر ولا يعمل حتى يستيقن أن الحالات الماضية الملازمة لهذه الوجدانات لم تتغير عن وضعها الأول .

وإن شعور الإنسان أسرع من تفكيره في إيجائه بالحركة . ولذا تجد الحيوانات والأشخاص الذين تضعف عندهم قوة التفكير أسرع في تنفيذ رغباتهم من الفلاسفة والحكماء . ويمكن الانتفاع بتلك الظاهرة عند توزيع أعمالنا الاجتماعية ، فنضع الشخص اليقظ المتوثب السريع في حركاته في الأعمال التنفيذية التي تحتاج السرعة ، ونضع من تغلبت عليه الفرضيات وتحكمت فيه البحوث العقلية فيما يتناسب وبطئه من الأعمال .

وبما أن الوجدان أو الشعور بالسرور والألم موجود في الإنسان قبل أن توجد فيه القوة التفكيرية ، أو على الأقل موجود فيه قبل أن توجد فيه القدرة على استعمال القوة التفكيرية ، كان أشد قربا له وأكثر تأصلا فيه من

العقل لقدمه الزماني عليه ، ولدوام استمراره معه . ولهذا كان أثره في بناء الشخصية وتكوينها أعمق وأقوى من أثر القوة المفكرة ؛ وذلك لأنه أوجد الشخصية وحققها للفرد قبل أن توجد فيه القوة المفكرة بالفعل . فهو القوة الحيوية التي رفعت الإنسان إلى مستوى من الحياة يبدأ عنده التفكير ، وهو القوة الفعالة المساعدة للتفكير . إنه قوة بها الحياة ، وأما التفكير فقوة بها كمال الحياة .

ولأهمية الوجدانات للحياة نجدها متصلة اتصالاً وثيقاً بكل الأعمال التي تصدر عن الكائن الحي ، وخاصة ما يتعلق منها بالمحافظة على بقائه أو بقاء نوعه . ولقد أعطى تلك القوة كل كائن حي ، لا فرق في ذلك بين حشرة أو بهيمة أو إنسان ، لتكون نذيراً له عند الحاجة ، ومبيناً أنه في حاجة إلى تغيير وضعه ، إما بسرعة في الحركة أو ببطء فيها ، ليتناسب مع بيئته . خالة السرور تعطينا من الحيوية والقوة ما يجعلنا ندلل ما قد يعرض لنا من مصاعب ، كما أن حالة الانقباض والألم قد تحفظنا من الوقوع في عمل قد يكون ضاراً من الناحية العقلية أو الجسمية أو الخلقية .

ولهذا نرى أن كثيراً من الفلاسفة وفي مقدمتهم سبينوزا يعتبر الوجدانات من لذة وألم « الطبيعة الأولى » التي نشأت عنها كل العواطف والانفعالات وكل تصرفات الشخص وسلوكه . فيقول سبينوزا (وهو خير من كتب في هذا الموضوع) إن اللذة والألم هما اللذان يحددان كل تصرفات المرء وأعماله ، وإنهما المصدر الوحيد الذي تنشأ عنه كل صفة نفسية وكل أعمال خلقية . وهو لذلك يوصي بتهذيب الوجدانات ، لا بكبتها أو إقامتها . لأن ذلك موت لصاحبها . فهو

يرى أن الحياة الوجدانية ضرورية لبقاء الانسان ، وليست من كماليات الحياة .
ونحن إذا لاحظنا ميول الأطفال ورغباتهم ووجهناهم في حياتهم العملية
إلى الناحية التي يظهرون نحوها ميلا خاصا ، والتي تثير فيهم شعورا بالسرور ،
وباعدنا بينهم وبين كل ما ينفرون عنه ويكون مثار آلام لهم ، فإننا ولا شك
نكون قد خطونا خطوات بعيدة المدى نحو تحسين كلى من الانتاج العقلي
والمادى . وان ارهاق الأطفال بكثير من المواد وتكليفهم بما لا يكادون يطبقون ،
وإلزامهم بدراسة مالا يستسيغون أو ما عنه يميلون ، لمسئول إلى حد كبير عن
هذا الاخفاق في التعليم الذى يئن منه الكثيرون .

الانفعالات

قد رأينا أن الوجدان هو تكيف النفس بكيفية السرور أو بكيفية الألم ،
ولكن الشعور لا يقف عند هذه المرحلة الوجدانية الصرفة ، بل قد يتطور ،
فيصاحب بتغيرات عضوية وجسمية . وذلك مثل تشنج في الأعصاب ، أو كثرة
في الافرازات العرقية ، أو سرعة في ضربات القلب ، أو بطء فيها ، أو تقلص
في بعض عضلات الجسم ، أو اضطراب عام في الجسم أو في التفكير ؛ وحينئذ
فإننا نسمى تلك الحالة الطارئة « بحالة انفعال » . فالانفعال إذن ما هو إلا حالة
نفسية وجدانية ذات أثر معين يبدو في جسم الانسان أو يظهر في تفكيره .

التعريف :

قد يكون من السهل علينا أن نعرف الانفعالات بسرد أمثلة من أمثلتها

العديدة كالفرح والحزن ، والخوف والغضب ، والرضا والقناعة ، واليأس والأمل والاخلاص والاعجاب ، والحسد والكره ، والحب والبغض ؛ ولكنه من العسير أن نحدد بها بذكر تعريف جامع مانع ؛ ولم يتفق علماء النفس بعد على تعريف واحد لها .

فيرى بعض العلماء أن الانفعال نوع من الاحساس ناشئ عن إدراك لمثير من المثيرات ، ولكننا قد رأينا من قبل أن الوجدان يخالف الاحساس فلا يمكن أن يكون نوعاً منه .

ويرى آخرون أنه إعادة وتذكر للذة أو ألم جربت في الماضي ؛ ومنشأ ذلك التذكر هو إدراكنا الآن لموضوع معين قد أثار هو أو ما مثله فينا مثل ذلك الشعور في الماضي ، ومن الجلي أن مثل هذا التعريف لا ينطبق إلا على حالة واحدة من حالات الوجدان ، ولا يفيد معنى جديداً زائداً عن ما عرفنا من معنى الوجدان ، فلا يكون انفعالا .

ويرى فريق ثالث أن الانفعالات ليست إلا تغيرات عضوية تلحق بالجسم فيبدو مخالفاً لوضعه العادي ، وتنشأ هذه التغيرات عن إدراك لبعض المؤثرات السارة أو المؤلمة ، ومن الجلي أن كل هذه التعاريف - إذا ما سميت تعاريف - موضع للمناقشة ولا يقبل منها إلا الأخير على ما فيه .

وليس من الأهمية بمكان أن نعرف الانفعالات تعريفاً جامعاً مانعاً ، إذا ما علمنا خصائصها ومظاهرها وأمكننا أن نقرأ من تلك الظواهر حالة الشخص النفسية ، فنعلم أنه منفعل انفعال السرور أو انفعال الحزن ، أو هو غير منفعل . وهذه هي بعض الصفات التي يمكن أن يقال فيها أنها موجودة في كل الانفعالات وإنها كذلك من خصائصها .

(١) لابد أن تصاحب كل الانفعالات بتغيرات عضوية متعددة ومختلفة باختلاف الانفعالات . وتلك مثل حمرة الوجه أو صفوته ، وارتعاش المفاصل أو اضطراب القلب ، وتقلص في عضلات الجسم أو تمدد فيها ، وخفة في الحركة أو بطء فيها . وترجع تلك التغيرات الجسمية إلى انقباض بعض العضلات وتقلصها ؛ وذلك يختلف طبيعاً باختلاف نوع الانفعالات وباختلاف درجتها من القوة والضعف .

(٢) تفترض كل الانفعالات وجود حالة نفسية أخرى تعتمد هي عليها ؛ وذلك لأن الانفعالات ظاهرة ثانوية لابد أن تسبقها ميول أخرى نفسية أقدم منها زمنياً وأكثر تأصلاً في الجسم ؛ وقد تكون تلك الظاهرة غريزة وقد تكون عاطفة . فالغضب الذي يثيره أخذ طعام الحيوان منه يفترض وجود حالة نفسية عنده ، وهي الرغبة في ذلك الطعام . ولو أخذ منه طعام لا يشتهيهِ أو لا تتوجه إليه نفسه فإنه لا يتحرك ولا يثور . وغضب الأم عند التعدى على صغارها يفترض وجود عاطفة نحوهم عندها ، وهي عاطفة الأمومة ، وهكذا .

(٣) إن المثير لها قد يكون من الأمور المعنوية التي يتعلق بها الإدراك ، كالغضب الذي يحدثه علمك - وأنت رجل متدين - بأن حقاً من حقوق الله قد امتن أو لم تراع قداسته ، وكالسرور الذي يثيره علمك بأن مشكلة من المشاكل الاجتماعية قد حلت أو هي آخذة في سبيل الحل . وقد يكون المثير لها تغيراً في بعض أعصاب الحس ؛ وذلك ككل الانفعالات التي تنشأ عن تعود استعمال المواد المخدرة والمنبهات . فمحب التدخين مثلاً يصبح خبيث النفس وضيعها إذا ما حرم من عادته ، وليس لذلك من سبب إلا أن بعض الأعصاب

تأثر ، فأصبح لا يهدأ له بال إلا بتعاطي ما تعود عليه من التدخين ؛ وذلك يحدث عدم التوازن في الجسم فينفع كلّه .

(٤) اتساع محيطها ودائرة وجودها . إذ أنها توجد في كل مرحلة من مراحل الحياة العقلية والجسمية : فتوجد في زمن الطفولة وفي زمن النضوج ، ويسبق وجودها وجود الكفاية العقلية ، وتعيش أحيانا بعدها ، وتدوم ما دام الإنسان . وتوجد كذلك عند كل الأشخاص ، سواء أكانوا من العلماء أم من الجهلاء ، ومن القديسين أم من الأشرار ؛ ومثيراتها كذلك متعددة ومقولة بالتشكيك قوة وضعفا ، فتتفاوت من أحقر الأسباب وأدناها إلى أعظمها وأعلاها .

(٥) لا تخضع الانفعالات خضوعا مباشرا للإرادة ، فلا يمكن أن نجعل أنفسنا ننفعل انفعال الشعور بالحرارة في يوم شديد البرد بمجرد إرادتنا الدفء ؛ وليس في مقدور إرادتنا أن توجد فينا انفعال الخوف إذا لم نرأ ولم نفكر في موضوع مخيف ؛ وليس في مقدورها كذلك أن تمنع هذا الانفعال في مواجهة المخيف من الموضوعات . ولكنها قد تخضع للإرادة عن طريق غير مباشر . فإذا عجزت الإرادة عن أن توجد فينا انفعال الدفء في اليوم البارد ، فإنها لا تعجز عن أن تدفعنا إلى التوجه إلى مكان دافئ ، ومن ثم يوجد فينا ذلك الانفعال . وإذا عجزت الإرادة وحدها عن أن توجد فينا حباً لله ، مثلاً ، فإنها لا تعجز عن توجيه عقولنا إلى نعمه وآلائه التي لا تحصى ؛ وذلك كقيل بأن يوجد فينا ذلك النوع من الانفعال .

(٦) يهدأ الشعور الوجداني بمجرد زوال مثيره ، وأما الشعور النفسي في

الانفعالات فإنه يغلب أن يستمر زمنا طويلا ويبقى مدة بعد زوال المثيرات له ،
فلا تسكن ثورة الغضب في الحال بل تظل معبرة عن نفسها في أعضاء الجسم
الخارجية فترة من الزمن بعد زوال مثيراتها .

(٧) لابد أن يكون لكل انفعال مثير خارجي ، ولابد أن يتعلق به
الإدراك . فإذا لم يكن هناك مثير أو كان ، ولكن لم يفهمه الشخص فلا
انفعال . فمن لم يسمع الكلمة المضحكة أو سمعها ولم يفهمها فإنه لا ينفع انفعال
الضحك . ولا تجدى النغمات الطيبة شيئا عند من لا يسمع ؛ ولا يعجب بالمنظر
الجميلة إلا ذو بصر . ولكن يجب أن نتذكر أننا لا نقصد بالمؤثر الخارجى المؤثر
المادى فحسب ، فقد يكون المؤثر معنى من المعانى ، كأن نتذكر أو تتخيل
ما يثير فيك الانفعال . وما أحلام اليقظة ، وخيال المتخيل الذى يبنى الشاهق
من القصور ، ويتصور لنفسه مستقبلا لا يجارى فيه ، فتثير فيه انفعال السرور
إلا أمثلة واضحة لهذا النوع . وإذا ما تذكرت ماضيا محزنا أو سارا ظهرت عليك
أعراض الحزن أو السرور .

نظرية هيجرز :

على الرغم من أن الانفعالات قد شغلت مقدارا كبيرا من تفكير علماء
النفس ومن تجاربهم فى معامل علم النفس ، فإن المعلومات التى عرفت عنها
لا تزال غير كاملة حتى اليوم . وذلك - على ما يظهر - لتشعب أطرافها وكثرة
أنواعها وكونها مركبة فى طبيعتها من ظاهرتين : إحداهما نفسية والأخرى
جسمية ، أو من شعور وجدانى ومن أعراض ظاهرية . ولذا وجدت نظريات

عدة في تحليلها وشرحها وفي تقسيمها . ولقد اختلف علماء النفس في زمن
التغيرات الضرورية لكل انفعال : هل هي سابقة للشعور الوجداني أو متأخرة
عنه أو مصاحبة له ؟ . والذي يبدو لأول وهلة أن هذه التغيرات متأخرة في
الزمن عن الشعور الوجداني ، ويكون الترتيب الطبيعي للعمليات العقلية في
جميع مظاهرها هو :

إحساس بمثير خارجي ، فإدراك لخطر فيه أو شعور وجداني بالخوف ، ثم
نزوع وإرادة للعمل . فأنت ترى كلباً عقوراً ، فتشعر بالخوف منه ، فتظهر
أعراضه عليك ، ثم تحاول أن تعمل بما يقتضيه المقام . وبذلك تقول النظرية
المشهورة للانفعالات ؛ غير أنه يجب أن يلاحظ أن تلك التغيرات الجسمية
والعقلية قد تحصل من غير أن يسبقها شعور وجداني حقيقي كما يحصل لبعض
الممثلين .

وأما نظرية جيمز ، وقد وافقه عليها لانج ، فإنها تعكس الترتيب بين
الوجدان ومظاهره ، وتقول بتقدم التغيرات على الحالة النفسية . فترى تلك
النظرية أن الحالة النفسية ناشئة عن التغيرات الجسمية . فأنت ترى كلباً عقوراً
وتسمع نباحه ، وتراه يكشف عن أنيابه فتوجد فيك تغيرات جسمية مناسبة
للموقف الذي تقفه في ذلك الحين ، وذلك لأن الحركة العقلية لا تقف عند مرحلة
الحس المجرد ، بل تتحول إلى حركة ، فترسل بمجرد الإحساس قوة إلى العضلات
والأعصاب والعروق ، فتبدأ هذه تؤدي وظيفتها وتحدث تغيرات جسمية ؛ أي
أن هذه نفسها تتغير وتصبح في وضع خاص ، وبذلك تبدو التغيرات الجسمية .
وأخيراً تدرك تلك التغيرات فتكون مشاراً لشعور وجداني . فالكلب العقور الذي

كان موضوعا للمعرفة فحسب يصبح بعد ذلك مدركا كثير ، بطريق الواسطة ،
لحالة نفسية وجدانية ، أو كثير لحالات انفعالية .

فهناك إذن نوعان من الإدراك : إدراك للموضوع في نفسه وذاته كموضوع
يدرك وتتعلق به المعرفة ، وإدراك آخر له كثير لتغيرات جسمية ، وترى هذه
النظرية أن الشعور بهذه التغيرات هو الذى يكون الجزء الرئيسى من الانفعالات ،
بل هو الانفعال نفسه . لذلك نراها تقول : أى شئ يبقى ويسمى انفعالا إذا لم
توجد تغيرات جسمية ؟ وأى شئ من الخوف يبقى إذا لم يكن هناك عدم انتظام
في دقات القلب من بطء وسرعة ، أو لم يكن هناك ارتعاش في المفاصل أو ارتخاء
وضعف عام في الجسم ؟ إذا جردنا الجسم من كل هذه التغيرات لا يبقى هناك
ما يمكن أن يسمى انفعالا .

والفرق بين هذه النظرية والنظرية السائدة واضح . ذلك أنه ليس الخلاف
فقط في أن واحدة تقول بتقدم التغيرات على الشعور النفسى والأخرى تعكس
ذلك ، بل ان نظرية جيمز تقول فوق هذا إن هناك نوعين من الإدراك في كل
انفعال ، ولكل منهما سببه ومثيره . فالإدراك الأول نشأ عن موضوع يدرك
ويعرف فالمسألة مسألة معرفة محضة ، ونشأ الإدراك الثانى عن موضوع مثير
لتغيرات جسمية . فالموضوع المدرك يسبب تغيرات في الأعصاب وهذه الأعصاب
المتهيجة تسبب الشعور النفسى . وأما النظرية السائدة فت ترى أن المسبب للشعور
النفسى هو الموضوع المدرك أولا وليس الأعصاب المتهيجة بسبب ذلك الموضوع
المدرك . وعلى هذا فليس الخلاف بينهما لفظياً حتى يقال انه يمكن التوفيق بينهما .
وإن نقطة الضعف في تحليل جيمز للانفعالات واضحة . فإنه لا يلزم من
مصاحبة التغيرات للانفعالات أنهما شئ واحد ، إذ يمكن أن يكونا متصاحبين

أو متلازمين لا متحدين ، ألا يرى أنه لا يسقط جسم صلب في ماء مثلاً من غير أن يحدث بعض الفقايع . ولا شك أن الجسم الصلب أو سقوطه يختلف كل الاختلاف عن الفقايع ، ويصاحب الدخان النار وهما متغايران . فعلى الرغم من أن الانفعالات لا يمكن أن توجد من غير أن يكون لها مظاهر خارجية يمكن أن يقال إنها غير تلك المظاهر والتغيرات .

وحقا أنه لا يمكننا أن نتصور انفعالات بدون تغيرات عضوية وجسمية ، ولكن يمكن في الوقت نفسه وجود تلك التغيرات من غير شعور حقيقى وجدانى كما في حالات الملق وكل من يتصنع الانفعالات من ممثل وغيره .

وحيث إن الشعور الوجدانى وحده لا يسمى انفعالا ، وإن التغيرات الجسمية وحدها لا تكون انفعالا ، بل لابد ، في تحقيق الانفعالات ، من وجود شعور وتغيرات ، وإن كانت التغيرات هى الدليل الظاهر على الانفعالات ، وجب أن نقول إن هناك شيئين ضروريين في تحقيق تجاربنا الانفعالية : واحد عقلى وجدانى ، والآخر مادى عضوى . وهما ضروريان في تحقيق مانسميه انفعالا . وليس من الضرورة يمكن لتحقيق غرضنا هنا أن نعرف بعد ذلك إذا كان الشعور سابقا للتغيرات الجسمية أو متأخرا عنها ، وخصوصا إذا ما علمنا أن الزمن بينهما عند من يرى الترتيب يعد بالتوائى وأجزائها .

أثرها :

بما أن الانفعالات ليست إلا وجدانات نفسية ، قد عبرت عن نفسها وأظهرت آثارها في ملامح الجسم المادى فغيرت من تصرفاته وحركاته ، فإن أثرها في حياة الإنسان يكون بعينه أثر تلك الوجدانات ، غير أنها تزيد عن الوجدانات في أثرها

الاجتماعى وأثرها فى كل من الجسم والعقل .

لكل انفعال أثره المادى الخاص به والذى يميزه عن كل انفعال آخر .
فلامح الوجه عند الفرح غيرها عند الحزن أو الغضب . ومظهر المؤمل يختلف
كل الاختلاف عن مظهر اليائس . وتقرأ من هذا الوجه أن امرأً ذا بال قد
حزبه وملك عليه كل تفكيره ، ومن ذاك الوجه أن صاحبه راضى النفس
ومطمئناً ، ومستسلم فى كل أمر لمن دبره وخلقه . ومن هنا يمكننا أن نقرأ من
صفحة الوجه ما يختفى تحتها من انفعالات . فالانفعالات إذن لغة ثانية نفهم بها
الوجدانات وتتعرف بواسطتها ما يدور بخلد البيئة الاجتماعية التى نعيش فيها . فهى
تخبرك بأن محدثك فرح مرح يرجى خيره ويؤمل معروفه ، أو بأنه حانق
غاضب ، فاحش سطوته واعد لنفسك العدة قبل أن تؤخذ على غرة ، أو بأنه
راض عن عملك فزد منه أو أنه ساخط ففكر فيه وحاول التغيير منه أو
إصلاحه .

وهكذا من ملاحظة ملامح وجه محدثك ومن دراسة انفعالاته يمكن أن
تتصرف بما يتناسب مع بيئتك فلا توقع نفسك فى خطر بسبب جهلك بما يدور
فى نفس من حولك من أشخاص . والانفعالات فى الواقع هى اللغة الطبيعية التى
نفهم بها شعور كل مالا يعبر عن نفسه من أطفال وبهائم ومجانين ؛ ولكنها قد
تطورت فى الإنسان ، أو أن الإنسان المدنى نفسه قد تطور بالنسبة إليها وأخرجها
عن طبيعتها بالتكلف والملق . وذلك بأن يتكلف الانفعال ويتصنعه من غير أن
يكون منفعلًا فى الحقيقة ؛ ويظهر هذا فى حالات التمثيل وفى حالات الملق . والممثل
الماهر هو الذى يوهم الملتفتين إليه أنه قد بلغ من الحالات الانفعالية ذروتها مع
أنه قد يكون مستريح النفس لملاحظته أنه نجح فى تمثيله . وأنت قد تظهر العجب

وتكامل المدح في مواطن عدة لا لأنك معجب حقاً أو وجدت ما يستحق المدح والثناء ، بل لغرض في نفسك ترجوه . وقد يكبت الإنسان ما عنده من انفعالات حقيقية ويظهر بمظهر الهادئ المطمئن في حين أن نفسه تغلي غليان المرجل . ويظهر هذا بنوع خاص بين رجال السياسة الذين مرنوا عليها . فقد تقرأ في وجوههم في حالي السرور والغضب ابتسامة باردة يستعصى عليك فهمها ، ولا يمكنك أن تفسر مدلولها ، ولا يعرف مغزاها إلا من عاشهم طويلاً وعرف من قرائن أخرى ما تكنه سرائرهم . ولا يكاد يوجد مثل هذا التطور في الانفعالات في الرجل الطبيعي ، ولكنه مرتبط بالمدنية فقط . وله ولا شك محاسن ومساوئ . فقد فقدت الإنسانية بسببه لغة من لغات التفاهم وأصبح الإنسان في شك لا يدري ما يدور في نفس صاحبه إلا عن طريق اللغة الكلامية ، إن تحدث ؛ وهذه خداعة في أساليبها وغير محدودة المعنى غالباً . ولكن على الرغم من كل هذا فقد أفدنا من تلك التطورات الانفعالية سياسياً واقتصادياً واجتماعياً . فلو ثار المتفاوضون السياسيون كما عرضت عليهم مشكلة سياسية ، ولم يكتبوا من انفعالاتهم ، لما وصلوا إلى أي تحالف أو تعاهد . وإن انفعالا يظهر على ملامح وجه زعيم من الزعماء في محادثاته السياسية لكفيل بأن يؤدي إلى حروب طاحنة قد تؤدي بكيان دولته . وإنك إن لم تحف ما عندك من انفعالات فقد أعطيت خصمك الفرصة ليعلم خبايا نفسك فيهاجمك ، وقد كنت من قبل قادراً على أن تأخذه على غرة .

وليس أثر الانفعال في جسم الفرد وعقله بأقل أهمية من أثره الاجتماعي . فالانفعال كما رأينا يزيد من دقات القلب ومن حركات التنفس ومن إفرازات العرق ، ويغير من نظام الدورة الدموية ومن حركات الجسم الطبيعية . وكل ذلك

ولاشك يضعف من قوة القلب ويجهد فيصبح قليل المقاومة وضعيفها ، فتتغلب عليه الآفات ويصبح عرضة لشقى الأمراض ، وتحدثنا التجارب اليومية أن الأشخاص الذين ينفعلون كثيرا عرضة للأمراض العصبية : فهم دائما ثائرون ومتوترة أعصابهم ؛ وهم من جراء ذلك يقاسون آلاما جساما تهد من كيانهم كأفراد ، وتبعد بينهم وبين كثير من ألوان الحياة الاجتماعية . ولقد كانت الانفعالات الحادة سبباً لكثير من الأمراض العصبية التي أدت إلى الجنون . ولقد ذهب « فرويد » العالم النمساوي المشهور في علم النفس إلى أن كثيرا من الأشخاص المصابين بأمراض عصبية نفسية كالصرع وغيره لم يصبهم ذلك المرض إلا من جراء انفعالات نفسية عنيفة أصابتهم في الماضي ثم كبنت ، فهبطت إلى بؤرة اللاشعور وكونت عقدا نفسية ، وهذه العقد هي التي تبعث عندهم تلك النوبات العصبية . وقد وصل إلى نظريته هذه عن طريق دراسته أحوال كثير من المرضى والمصابين من الجنود في الحرب الكبرى .

وهو ، فوق هذا كله ، من الأسباب التي تستتزم اضطراب التفكير وعدم الاستقامة في الحكم . وذلك أن الانفعال يركز الانتباه نحو موضوع واحد معين ، وهو المثير له . فالشخص المنفعل قد لا يلتقي بالآ ولا يأبه لما يمر أمامه من حوادث ، وهو عمى عنها كلها إلا عن المثير لانفعالاته ؛ وهو ، في نظره لهذا المثير ، متعصب ضيق التفكير ، إذ لا ينظر إليه غالبا إلا كثيرا لانفعال ، متجاهلا كل ما عدا ذلك من حالات وملابسات . ومن ثم كانت أحكامه على مظهرية ، لأنه إنما حكم على الموضوع من ناحية واحدة ، وليس من جميع نواحيه وفي ذاته بقطع النظر عن ميوله الشخصية واتجاهاته النفسية . ولذلك حظرت الشريعة الغراء على القاضى أن يقضى في حادثة ما وهو تحت تأثير انفعال الغضب .

ولكن ليس الانفعال شراً كله ، وجلت حكمة التقدير عن ذلك . فإن من مزايه أنه موجه للنفس ومبين لها الطريق الذي يجب أن يسير فيه تيار التفكير ، وحافز لها ومثير لقوتها على أن تقوم بجلال الأعمال التي قد تنوء عنها في الظروف العادية . نعم قد يكون الانفعال حاداً فيتوقف فينا التفكير العادي برهة من الزمن ، ولكن لا يلبث العقل طويلاً حتى يعود سيرته الأولى من التفكير ، فيفكر في ذلك المفاجيء الطارئ ؛ وهنا يتركز الانتباه ويقوى الاتجاه نحوه . وهذه هي مرحلة الجهاد الحقة ، وهي مرحلة الانتاج . فإذا ما كنت تفكر في موضوع ما ثم فاجأك خبر تشور له نفسك . فإن هذه الثورة توجه انتباهك نحو موضوع هذا الخبر ، فترسم الخطة وتضع المنهج اللازم لإنقاذه أو لإزالته . ولقد كانت الانفعالات في بعض الأحيان سبباً لإشحاذ الهمم وتقوية العزائم على القيام ببعض الأعمال الحميدة . فقد يثير انفعال من الانفعالات رغبة في دراسة بعض الموضوعات العلمية والتعمق فيها إلى حد بعيد ، ولقد وجد ذلك ناجحاً ومفيداً في كثير من الأحيان . وما الثواب والعقاب في معاهد التعليم إلا نوع من هذا القبيل . ويقال ان سعد باشا زغلول مدارس اللغة الإنكليزية على الرغم من تقدمه في السن ومن كثرة مشاغله السياسية والاجتماعية إلا تحت تأثير انفعال من الانفعالات النفسية .

لهذا كله كان لزاماً على المربي الماهر أن يتعهد تلك الانفعالات ويقف منها موقف الطبيب الحاذق والقاضي المنصف ، فلا يقتلها لئلا يجعل الحياة باردة ليس فيها شيء من النوق والجمال والأدب والمداواة ، ولا يرهف منها فيجعل حياة الشخص حياة أمراض وآلام ، بل يتخذ في ذلك طريقاً وسطاً فيسمح لها أن تعبر عن نفسها ولكن بقدر وأن تظهر ولكن بحذر .

العواطف

عرفنا فيما مضى أن الانفعالات تفترض وجود معنى نفسى فى الكائن المنفعل ، فغضب الهرة عند تعديك على صغارها يفترض وجود حالة نفسية خاصة عندها تجعلها تغار وتدافع عن أولادها ؛ وثورة الرجل الدينى عند انتهاك حرمت الله تفترض معنى نفسياً عنده . وذلك المعنى النفسى هو مصدر تلك الثورة . وهذه الحالة النفسية التى تفترضها الانفعالات هى مانسميه « العاطفة » . وتمتاز العاطفة عن كل من الانفعال والوجدان بأنها ذات ثبات واستقرار . فهى ، على الرغم من أنها مكتسبة ، أقرب إلى الطبائع منها إلى الحالات المتغيرة فى الإنسان .

فالعاطفة إذن هى حالة نفسية ثابتة (أو على الأقل أكثر ثباتاً وأطول بقاء من الانفعالات) على الرغم من أنها مكتسبة ، وموجهة نحو شىء معين ، أرى اتجاه وجدانى ذو ثبات واستقرار ، صادر عن الكائن الحى ، ومتركز حول شىء أو شخص أو جماعة أو فكرة ، ومعبر عن نفسه بمظاهر شتى . وهذه المظاهر هى مانسميه بالانفعالات . فمثلاً عاطفة الحب معنى وجدانى مستقر فى النفس وله مظاهر متعددة : فهناك فرح وابتهاج إذا ما ظفر موضوعها برغباته ، وهناك حزن أو يأس إذا ما فشل فى محاولاته ، وهناك غيرة أو غضب إذا ما هوجم أو تعدى عليه . وتحب شخصاً فيسرك حضوره ، وتحزن إليه فى غيابه ، وتطمع فى إيايه أو تياس منه ، وتدهش إذا ما تغير لغير سبب ظاهر ، وتحزن لفقده ، وتغار إذا ما شورك فيه ، وترضى إذا ما خلاص لك وجهه . وهذه المظاهر المتعددة هى مانسميه بالانفعالات ؛ وهى كلها تفترض وجود صفة نفسية لا تعدد فيها وهى « عاطفة الحب » . فالتفرقة بين الانفعالات والعواطف هى

في الواقع كالتفرقة بين طبيعة من الطبائع ثابتة و بين حالة نفسية مؤقتة . وإن شئت فقل إن العاطفة لا توجد في كليتها في أى وقت من تاريخ حياتها بل تظهر بمظاهر مختلفة في كل أدوار حياة الكائن ذى العاطفة عند الحالات والمقتضيات المتعددة . وهذه المظاهر المتعددة هي التجارب الحقيقية التي نسميها انفعالات .

ولقد كتب كثير من علماء علم النفس ومن الفلاسفة ، وأسهب في شرح موضوع العواطف وفي حقيقتها وفي صلتها بالحياة العملية والخلقية ، ولكنهم لم يتعرضوا للفرق بينها وبين الانفعالات ، وظل الأمر كذلك حتى آخر القرن التاسع عشر حتى ظهر مقال شاند (١٨٩٨) مفرقا بينهما وقائلا :

الانفعالات حالات ترتبط بمعنى نفسى آخر أطول منها بقاء وأكثر تأصلا في النفس وأقل منها تغيرا . وأما العواطف ، مثل حبنا لأصدقائنا ، وعاطفة حب الوطن ، وحب المعرفة ، وحب الفنون ، وحب الجمال ، والعاطفة الخلقية وأمثالها ، فلا تعتمد على شعور آخر ولا تصفه ، بل هي نفسها مركز له ثبات نسبي ، وترجع إليه كل الانفعالات وتعتمد عليه . إنها الشيء الثابت وراء تلك المتغيرات ، وإنها الأمر الكلى المركب من جزئيات ، وإنها تشمل كل مظاهرها وهي الانفعالات .

فالعاطفة إذن صفة وجدانية مركبة ذات مظاهر متعددة ومختلفة حسب اختلاف المثيرات ، وفيها تكون القدرة الإدراكية مرتبطة بميل أو بميول طبيعية ، بحيث انه كلما وجد الإدراك - بأن أحس الشخص بموضوع من الموضوعات أو فكر فيه - وجدت تلك الميول الخاصة ووجدت معها انفعالاتها الملائمة لها . فإذا كنت قد درجت في منزل من المنازل وشيبت بين جدرانها تربت فيك عاطفة نحوه ، ، وارتبطت تلك العاطفة ارتباطا وثيقا بالمنزل ، وكلما تعلق به إدراكك

ظهرت تلك الميول العاطفية . فأنت تشعر بنشوة الفرح وهزة السرور لرؤيته ،
وتحن إليه عند غيبتك ، ويحزنك أن تعلم أن الدولة ستهدمه لصالح المرافق
العامة ، في حين أن منزلاً آخر لم تألفه لا يشير عندك شيئاً من هذه الانفعالات .
وإذا ما خبرت أن صديقاً لك قد أصابه سوء فإنك تنفعل انفعال الغضب له ،
والحزن على ما أصابه والخوف عليه لما قد تحدثه تلك الإصابة من نتائج . على
عكس ما إذا سمعت عن شخص لا يعت إليك بصلة فإنك لاتعبأ لما يصيبه من خطر .
وكثيراً ما نمر على جثث الموتى وأشلاء المصابين بحوادث الاصطدام وغيرها قلنا لقي
لها بالا ، ولا نترك عندنا من أثر إلا بقدر اشمئزازنا من المنظر نفسه ، أو بقدر
سخطنا على نظام توجد فيه تلك الحوادث ؛ ومع هذا فلا يفكر على هذا النحو
إلا القليل . وليس لتلك التفرقة في الوجدان والانفعال من سبب إلا أن هناك
صلة متينة — هي العاطفة — قد تكونت بينك وبين صديقك أو منزلك وليس
هناك من صلة بينك وبين من لاتعرف أو بين منزل لم تسكن . فقد ارتبط
الادراك بميول خاصة يلزم من وجوده وجودها في الحالات الأولى ، وخلا عن
أمثال هذه الميول في الحالات الأخرى . غير أن بعض الأشخاص قد يعطفون
على من يعرفون ومن لا يعرفون ، وما ذلك إلا لأنهم يعطفون على الإنسانية في
نفسها ، وكل مظهر لها لا بد أن يناله لذلك شيء من العطف . ولكن مع هذا
فإن أمثال هؤلاء الأشخاص لا يمكن أن يحملوا من العطف على هؤلاء الذين
لا يعرفون مثل ما يحملون من العطف على ذوي القربى والأصدقاء .

ولست العاطفة مختلفة عن الوجدان في أنها لا بد أن تكون موجهة نحو
موضوع ومركز معين ، وهو موضوع العاطفة ؛ وليس بضروري أن يكون
ذلك المركز شخصاً ، فقد يكون شيئاً أو شخصاً أو فكرة أو جماعة .

فقد تتوجه العواطف نحو الأشياء التي كننا نستعملها : نحو المنازل التي سكنناها ، ونحو المقعد الذي جلسنا عليه طويلا ، ونحو المسجد الذي كننا نتردد عليه ، ونحو المعهد الذي تلقينا فيه ثقافتنا ، ونحو نوع خاص من الأطعمة أو نحو نوع معين من الزهور والرياحين .

وقد تتوجه العاطفة نحو شخص معين كعاطفة الأب نحو ابنه والابن نحو أبيه ، وكعاطفة الصديق نحو صديقه ، والمرء نحو زوجته ، وكعاطفة الطالب نحو أستاذه ، أو كعاطفة الغريم نحو غريمه .

وهناك من العواطف - وخصوصا ما يتعلق منها بالغرائز الاجتماعية - ما هو موجه نحو جماعات لا نحو أفراد أو أشياء : كحب صاحب الحرفة لأهل حرفته ، وكحب الطالب لطلاب معهده ، وكحب الفرد لأسرته أو لقبيلته أو لأمته .

وقد تتجه العاطفة نحو فكرة مجردة عن الدوات أو نحو مثل أعلى يعتقد أنه ذو العاطفة : كحب الحقيقة في ذاتها ، وحب الفضيلة للفضيلة ، والعلم للعلم ، وحب الخير لذاته وكعاطفة الجمال والفن . وعن هذا النوع من العواطف والرغبات ، وعن هذا النوع من الميل إلى السكالم في ذاته نشأ جلّ المخترعات العلمية التي ينعم بها الإنسان الآن ، ووجد عنها كذلك كثير من المبادئ الخلقية التي كانت نتيجة لمجهود الإنسان الفكري .

عوامل تكوينها :

ليست العاطفة أمراً غريزيا طبيعيا يولد مع الطفل ويشب معه ، ولكنها مكتسبة بالتدريج وتنمو كما ينمو الطفل ، وقد تموت كذلك كما يموت الكائن الحي . وهي لا تنشأ عفوا بلا سبب ، ولكنها تنشأ عن أسباب عدة قد تكون

في طبيعة الشخص وتركيبه وقد تكون في بيئته التي يعيش فيها . فهي عوامل طبيعية وعوامل خارجية .

(١) العوامل الطبيعية :

ونعني بها كل ما يرجع إلى طبيعة المرء وتركيبه من غريزة ومزاج ، وسنشير إلى كل على حدة باختصار .

(١) الغرائز :

تلعب الغرائز دوراً مهماً في تكوين العواطف وتربيتها . فينشأ عن غريزة المحافظة على النوع عواطف الأمومة والأبوة ، وينشأ عن غريزة حب البقاء عاطفة حب الذات وحب كل ما يتعلق بها وما يساعدها على تأدية وظائفها في الحياة . ويرى مكدوجل أن لكل غريزة من الغرائز عاطفة تتصل بها وتنشأ عنها . ولأن الارتباط بين الغرائز والعواطف وثيق نجد أن العواطف تنقسم إلى ذاتية واجتماعية كما أن الغرائز تنقسم كذلك إلى ذاتية واجتماعية .

(٢) المزاج :

نجد من الناس من هو وجداني بطبيعته ، فيتأثر بسرعة وينفعل لأقل الأسباب ، ونجد منهم من لا يثيره إلا عظيمات الأمور . فبينما ترى شخصاً يسوءه أن يسمع كلمة مضحكة ، إذا بآخر يهش لها ويعجب بها . ومرد ذلك إلى الاختلاف في الطبيعة وفي تركيب المزاج . والمزاج هو ماركب عليه البدن من الطبائع ، أو أنه الأساس الجسماني للأخلاق والسلوك .

ليس جسم الإنسان بسيطاً في مادته وطبيعته فلا يقبل التحليل والتقسيم ، بل هو مركب من كثير من الجهازات والمجاميع العصبية ، ومن كثير من عدد

الإفراز المختلفة . ولكل واحدة من هذه صفاتها الخاصة بها ووظيفتها التي تقوم بها ، والتي لا يمكن أن تؤدي إلا بها ؛ فإذا فقد المرء واحدة من هذه ، أو فقدت هي قدرتها على القيام بوظيفتها فقد الشخص قوة من القوى ، ونزل بذلك عن المستوى العادي .

والمزاج هو نتيجة تغلب واحد من تلك الأجهزة أو المجاميع على الأجهزة الأخرى . فإذا مات تغلب فعل مجموعة الأعصاب على فعل غيرها من الأجهزة ، ونشأ عن ذلك انكسار في فعل الأجهزة الأخرى وضعف فيه ، سمي المزاج عصبيا ، وتغلبت على الشخص صفات ذلك المزاج الخاصة به ، وظهرت أعراضه في ملامحه الجسمية وفي تصرفه وسلوكه ، وفي تكوين عواطفه وفي إثارة انفعالاته ؛ وإن تغلب فعل أعضاء الدورة الدموية كان المزاج دمويا وتغلبت صفاته على المرء ؛ وإن تغلب فعل الصفراء كان صفراويا ؛ وإن تغلب فعل البلغم كان بلغميا .

وإن الاختلاف المشاهد بين الناس في أخلاقهم وسلوكهم هو نتيجة إلى حد كبير للاختلاف في أمزجتهم وفي تكوين طبائعهم ، أو بالأحرى ، هو نتيجة لطبائع عواطفهم التي لعبت الأمزجة الدور الرئيسي في تكوينها .

ولكن ليس معنى هذا أن لكل واحد من الناس مزاجا واحدا ، يصاحبه مدى حياته ولا يتصف بغيره . فقاما يستولى واحد من الأمزجة بعينه على فرد من الأفراد . وإذا ما صح وجود مثل هذه الحالة ، فإنها تكون من الشواذ ، فيشذ الشخص في تصرفاته وسلوكه لشذوذه في تركيبه . ومثله يكون عرضة لبعض الأمراض الحادة نتيجة لتغلب أحد العناصر تغلبا مطلقا على العناصر الأخرى .

والغالب في الإنسان أن يكون ذا أمزجة متعددة ولا يكون لواحد منها

السلطان المطلق عليه، بل تتساوى جميعها في القوة، أو يتغلب أحدها أحيانا ثم لا يلبث أن ينكسر ويعود سيرته الأولى فيعود الشخص إلى حد الاعتدال. وذلك فضل من الله عظيم ونعمة كبرى على الشخص، إذ أنه يكون والحالة هذه معتدلا في كل تصرفاته، من حيث إن حدة الأمزجة قد تعدلت وهذب بعضها بعضا، فوصلت إلى حد الاعتدال. وبذا يخفف كل منها من شدة وطأة الآخر وحدته. ولاحظ إن شئت نفسك واختبرها مقارنا بين ما تعرف عن نفسك من صفات نفسية وجسمية وبين مميزات الأمزجة وصفاتها الخاصة بها، فإنك تجد أنك غالبا صاحب أمزجة متعددة. نعم قد ترجح فيك صفة مزاج بعينه على باقي الأمزجة، ولكنه رجحان وقتي لا يلبث أن يزول مادمت شخصا وسطا في طبيعته، ووسطا في سلوكه وأخلاقه.

ولقد جرت العادة منذ العصور اليونانية، ومن أيام (جالينوس) الطبيب اليوناني الذي عاش في القرن الثاني من التاريخ الميلادي، إلى يومنا هذا، على تقسيم الأمزجة إلى الأنواع الأربعة المشهورة: وهي العصبي أو السوداوى، والدموى، والصفراوى، والبلغمى أو المفاوى. ولكل منها صفات خاصة تلازمه وتبدو أعراضها على الجسم وتظهر في تصرف الشخص وسلوكه. وإن علم النفس الحديث لم ينكر اختلاف الأمزجة وتعددتها، وإن كان قد بدا مخالفا للرأى القديم في تعليل هذا الاختلاف المشاهد في الأمزجة. وهو ليس، على ما أعتقد، خلافا أو مخالفة لرأى الأقدمين، ولكنه تحليل أعمق غورا وأبعد أثرا، فيسلم بما ذهب إليه الأوائل، ثم يتقدم خطوة أخرى نحو الحقيقة المرجوة.

يرى الأقدمون أن الاختلاف في الأمزجة ناشئ عن تغلب عنصر من

العناصر الجسمية على سائر العناصر الأخرى ؛ ويقول المحدثون إن للوراثة والبيئة وطبيعة الإقليم الذى يعيش فيه الفرد أثرا بالغاً فى تكوين طبيعة مزاجه ، كما أن إفرازات الغدد نفس ذلك الأثر . فهناك غدد كلوية ينشأ عنها كل الصفات الانفعالية ، وأخرى ينشأ عنها نشاط الشخص وقوته ، وثالثة تتعلق بذكائه وقوة عارضته ، وهكذا . وكما كان إفراز تلك الغدد قويا اتصف الشخص بالصفات الخاصة التى تلازم إفرازات تلك الغدد ، وحينئذ يوصف بأنه ذو مزاج عصبي أو دموي إلخ . . . وهم يذهبون أبعد من هذا ويقولون : إنه من الممكن تغيير سلوك الشخص وتصرفه ببعض العمليات الجراحية التى تجرى لتنظيم غدد الإفراز . وهنا تظهر قيمة النظرية الخلقية التى تنفى العقاب بحجة أن المجرم لم يكن قادرا على أن يغير من سلوكه لمرض فيه جسماني ، فحق الجماعة أن ترعاه بعطفها وتعالجه لا أن تقسو عليه وتعاقبه .

فأنت ترى أن المحدثين قد بنوا هذا الاختلاف فى الأمزجة على عوامل خارجية وعوامل جسمية : وهى إفرازات الغدد . وهذا فى الواقع يمكن جعله تفسيراً للعلة ، أو علة للعلة التى اتخذها القدامى سببا فى اختلاف الأمزجة . إذ أنه يمكن أن يقال من جانبهم ان الاختلاف فى الأمزجة ينشأ عن تغلب أحد العناصر الجسمية على العناصر الأخرى التى يتركب منها الجسم ، ولهذا التغلب سببان : أحدهما خارجي وهو البيئة والغذاء والمناخ إلخ . . . والآخر فى داخل الجسم ، وهو إفرازات الغدد الجسمية . فكأن ما فعله المحدثون من علماء النفس ليس إلا تنبيها إلى أن ما ذكره القدامى ليس العلة النهائية للاختلاف فى الأمزجة ، بل هو سبب قد نشأ عن شيء آخر . ولينت شعري ما هو السبب الرئيسى لهذا

التفاوت في إفرازات الغدد ؟ وماهى العوامل التى تقوى من إفرازات غدتى الكليتين مثلاً حتى تجعل الشخص سريع التأثر ؟ وماهى الأسباب التى تضعف من إفرازات الغدد النكفية ، وتسبب ضعف التفكير فى الشخص ؟ كل هذه أسئلة لاتزال توجه نحو المحدثين ومشاكل تثار . فهم لم يذكروا لنا العلة الأخيرة ، ولكنهم بلا مرء قد خطوا خطوة نحوها .

وإذا صح أن العمليات الجراحية يمكن أن تنظم من إفرازات الغدد المختلفة وتوجد لنا فرداً معتدلاً فى تصرفاته وسلوكه ، وإذا صح أن الاختلال فى هذه الإفرازات ليس إلا ناشئاً عن مرض طارئ على الغدد يعالج كما تعالج سائر الأمراض ، كان هناك مجال للقول بأنه لابد أن يكون ناشئاً فى النهاية عن بعض العوامل الخارجية التى أثرت فى الجسم حين اتصاله بها . فإن الجسم ، كما يقول « سينوزا أو ديكارت » ، إذا خلى ونفسه بقى ، ولم يصبه عطب أو هلاك ؛ فإن الآفات والعلل إنما تأتى إليه من الخارج . وكل جسم ككل كائن حى يعمل على البقاء أبداً محتفظاً بسلامته وطبيعته حتى تتغلب عليه الآفات الخارجية ، فيعتل ، أو يموت بسبب ما يدخل على نفسه من آفات فى مطعمه ، مثلاً ، أو فى مشربه ، أو بسبب ما يتغلب عليه من طبائع أخرى أو أحوال خارجية ليس له من سبيل إلى دفعها . وقد نفهم مثل هذا رأى من عمل الرسول عليه الصلاة والسلام وقوله حين رد الطبيب الذى أرسل إليه وقال « نحن قوم لا نأكل حتى نجوع وإذا أكلنا لانشب » . فلا يحتاج الطبيب إلا مريض ، والمرض آفة تنشأ عن إدخال الطعام على الطعام أو عن ملء بيت الداء واتخامه ، و « ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه » ، أو بعبارة أخرى ، ما المرض إلا آفة تسببت عن عوامل خارجية

عن الجسم، فمن اتقى تلك العوامل لم تسكن به حاجة إلى الطبيب . وإذن ، وإذا صح أن الأمراض ، ومنها اختلال الأمزجة ، ناشئة عن اختلال في إفرازات الغدد، فهل ينجح العلم الحديث فيبين لنا الأسباب الداعية إلى اختلال الإفرازات الغددية فننتقيها ، والوقاية لاشك خير من العلاج ، ونكون جميعا رجلا وسطا في تصرفاتنا، وفي سلوكنا وأخلاقنا ؟ ذلك يوم تنتظره الإنسانية المعذبة بفارغ الصبر . وإنا لمرتبقون .

وهذه، باختصار ، هي بعض صفات الأمزجة ، وما ينشأ عنها من عواطف وانفعالات .

(١) المزاج السوداوى :

يمتاز أصحاب هذا المزاج بنحافة في الجسم ورقة في الجسد وكبر في الرأس وينمو في المجموع العصبي نموا ملموسا في غالب الحالات . فتكثر العروق وتبدو بوضوح للعين ، ويكون الوجه كذلك نحيفا وأقرب للطول منه إلى الاستدارة . وصاحب هذا المزاج كثير الحساسية مرهف الشعور ، شديد الحمية وثاب الهمة ، غيور ومتشائم ويعتريه كثير من الوسوس والشكوك ، ويغلب عليه الحزن والاكتئاب ، وهو لهذا قليل الأصدقاء وحيد . ولكنه نشط متوثب ومحب للسرعة في العمل ، وتعجبه الدقة فيه . وله ذهن متوقد وفكر ثاقب . وهو مزاج العلماء والمفكرين من فلاسفة ومخترعين . ويقول أرسطو « إن المبرزين من الناس في الفلسفة أو في السياسة أو في الشعر أو في الفن لابد أن يكونوا ذوي مزاج مكتئب » . ذلك أنهم وحيدون في هذا العالم، بعيدون عن المجتمع ونابون عنه . ولهم بعد ذلك من إحساسهم المرهف وشعورهم الرقيق

ما يزيدهم حزنا على حزن ، واكتئابا على اكتئاب . وقد يكون ذلك لأنهم يرون عالما مليئا بشقى النقائص ، وبكثير من العيوب ، ثم لا يجدون سبيلا إلى إصلاحه . وفي حكمة سليمان « كلما زاد علم المرء زادت همومه وأحزانه » ، وفي الأثر « لو علمتم ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا » . وبالجمله فأصحاب هذا المزاج متبرمون بالحياة فاقدوا الصبر ، وكثيرا ما يصابون بمرض السوءاء . وإن علاجه النفسى - علاوة على ما ذكر المحدثون من علاج جسمى ، إذا ماتم لهم ذلك - يكون طبعا بالمحاولة من التخفيف من شدة وطأته بالتغلب على الانفعالات النفسية المصاحبة له ، أو بتربية ملائكة تفكيرية عند الشخص وإيمان بأن كل كائن لامرد له ، فما ينفع الأسى والحزن شيئا ؛ ويعالج أيضا بالتعود على الصبر على مآسى الحياة ومكارهها حتى تنكسر قوته ، ويصبح معتدلا مع سائر الأمزجة الأخرى .

(٢) المزاج البلغمى :

وصفات أصحاب هذا المزاج تكاد تكون على النقيض من صفات أصحاب المزاج الأول ، ولذا يقال انهما ضدان يلطف أحدهما من حدة الآخر . ومن صفات أصحاب هذا المزاج أن أجسامهم تكون رخوة ومائلة إلى السمنة والبياض ، ويكون قوامهم غليظا ثقيلا ، ولحمهم مسترخيا وضعيفا ، وهم لذلك بطيئون السير ثقيلا الحركة ، ومتوانون فى كل ما يعملون ، ويدل منظرهم بشكل عام على البلادة والكسل ولا تظهر عليهم دلائل التفكير .

ومن صفاتهم الخلقية الاعتماد على النفس ، والصبر والمنافسة ، وعدم المبالاة وقلة الاهتمام بكل الحوادث وقبول كل بالرضا والتسليم . فهم بطبيعتهم كالرواقيين

في تعاليمهم ، فيقبلون الواقع بثبات جأش وقوة صبر ، لاتطغيهم نعمة ولا تحزنهم
نقمة ؛ غير أن الآخرين يتخذون هذه التعاليم مبدأ خلقيا ، يكتسب بالخبرة
والمران ، في حين أنه طبيعة من طبائع البلغمى . فهم حالماء لا يغضبون - والحلم
ولاشك فضيلة ، ولكن قد يكون الغضب فضيلة عندما تدعو إليه الحاجة ؛
فالحلم في مواطن الغضب ضعف أو خداع ورذيلة ، كما أن الغضب في غير مواطنه
تهور أو لؤم ورذيلة ؛ وهم مع هذا راضون بما قسم لهم فلا يحقدون ، ومطمئنون
إلى الحياة فلا يشورون ، وصابرون على محنها فلا يجزعون . وتلك لعمرى كلها
فضائل إجتماعية لو اتصف بها هذا العالم الثائر كالبركان لأراح واستراح من تلك
الحروب الطاحنة التي تنزل به إلى الهاوية .

ويقال ان هذا المزاج هو مزاج الأطفال وأكثر النساء وخصوصا المقيات
منهن في الأقاليم الباردة . ولكن الملاحظة لاتميز فيه قوما عن قوم أو بيئة عن
بيئة . وإنا لنشاهد منه أمثلة كثيرة في الأقاليم المختلفة والطبقات المختلفة وفي
الأنواع المتباينة . نعم إن نسبته في النساء والأطفال أعلى منها في الرجال وفي من
بلغ الحلم ، إذ أن هذا المزاج مرتبط بضعف جسمى عام ، وذلك في النساء
والأطفال أكثر منه في غيرهم .

وإذا غلب هذا المزاج على فرد أو جماعة كان عاملا على هدم كيائها كجماعة
ذات شخصية وذات وجود تعنى بالمحافظة عليه . فالحياة قوة وكفاح ، وليست
العاطفة شرا في نفسها ، ولا القوة جرما يستحى منه ، ولا قوة الخيال ضعفا في
التفكير . فكل هذه فضائل ضرورية للحياة ، والشر كل الشر في استعمالها .
فلتكن لك عاطفة غضب ، ولكن احذر أن تكون متهورا ؛ واهتم بالحياة وما
فيها ولا تكن جشعا ؛ وارض بما قدر الله لك ، ولكن لاتكن جامدا ميتا ؛

فإن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة ، والرزق لمن سعى إليه ، « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » ؛ واصبر على الشدائد والمحن ، ولكن لا تكن عبداً ذليلاً وقد خلقك الله حراً .

فخير لصاحب هذا المزاج أن يعالج من نفسه فيربى في نفسه قوة الخيال وينمى من عاطفة الغضب ويستفز من نفسه أحياناً حتى يقتل منها برودها وجمودها ، ويصبح شخصاً متزناً المزاج ومتزناً العواطف والسلوك .

(٣) المزاج الرسوى :

وهنا تكون القوة الطبيعية في الإنسان في أجلى مظاهرها وأوضح أشكالها ، فيكون المرء في جسمه وشكله الخارجى مظهراً رائعاً ومثلاً بيناً من أمثلة تمام الصحة البدنية والقوة المادية . فهو زاهر اللون ، وثابت الشكل ، ومتين التركيب ، وكثير العضلات قويمها ، وواسع المنكبين عريض الصدر ، وتبدو عليه القوة ، وكله نشاط وحيوية .

وهو بشوش متفائل ، وسريع الفهم وسريع النسيان ، ومتقلب في آرائه ، ولكنه مريح محب للعشرة وألوف . وهو طيب النية ، حسن الطبع وسليم السريرة ، لم تنتكر له الحداث فلم يتنكر لبيئته . فهو حسن المعاشرة ، وكثير العطف ومتودد للناس . وهو حاد الذهن وصافيه ، غير أنه معجب بنفسه مزهو بها ، وفيه شيء من الملل وحب الظهور .

ولا عيب في هذا المزاج إلا ما قد يصاحبه من غرور نفسى أو اعتداد بالنفس اعتداداً قد لا تطيقه البيئة ولا تسمح به . وإذا ما تغلب هذا المزاج تغلباً مطلقاً

كان داء جسميا عضالا ومرضاً اجتماعياً خطيراً . وعلاجه النفسى يكون كعلاج سابقه بالمحاولة من التخفيف من حدته .

(٤) المزاج الصفراوى :

يكون صاحب هذا المزاج نحىلا شاحبا ، يعلوه شىء من السمرة . وهو مع هذا ثابت الشكل قوى التركيب ، وتغلب عليه التؤدة التى لم تنشأ عن ضعف ، ولكنها مشوبة بالقوة وبشئ من التحدى وعدم الاكتراث . ملاحظه مكفهره ، ونظراته حادة ، كأنه يريد أن يخترق بها الحجب ويصل إلى قرارة نفس محدته ، فيجتذب منها أسرارها .

وهو شموخ ، وطموح ، ومتكبر ، وقوى العزيمة ، وثابت الإرادة ، يعجبه الثناء ، ويسعى جهده لاكتساب الشهرة . وهو كثير الأهواء والرغبات ، وحاد العواطف ، وذكى الفؤاد ، ومتعصب لآرائه ومعتقداته ، يجاهد فى سبيلها ، ولا يثنى عنها شىء . وهو لقوة عواطفه وحدتها ، عرضة لكل الرذائل أو الفضائل التى تنشأ عن عواطف حادة جامحة ، مكبوتة أو منظمة . فقد يكون قد يساً ربانياً يضجى بدمه فى سبيل عقيدته ، ويصدع بها وان تكاثفت عليه جهود الأعداء . وقد يكون سياسياً محسناً لا يلويه تشريد أو تعريب أو تعذيب عن الدفاع عن مبدئه والاستمسك به . وقد يكون مجرمًا سفاكا لا يفقه للشفقة معنى . وإذا قوى هذا المزاج ، فاحتدت العواطف واشتطت ، وتركت تلعب بها الأهواء ، كان صاحبه شخصا مغلوبا على أمره متطرفا فى أعماله وسلوكه ، وبعيدا عن جادة الاستقامة ؛ فالحكمة شىء بين الافراط والتفريط ، والفضيلة الإنسانية رغبة مهذبة أو عقل تجميل بعاطفة . فليخفف أصحاب هذا المزاج من

غلواء عواطفهم بمثل ما كسر به أصحاب الأمزجة الأخرى من حدة أمزجتهم ،
وبذلك يكونون معتدلى التصرف والسلوك .

تلكم هي الأمزجة الأربعة التي وصل إليها القدامى من علماء النفس ، واعترف
بها المحدثون منهم . ولكن يجب علينا أن نعترف بالحقيقة المرة : وهي أن
قضايا علم النفس العامة وتتأججه وكل قوانينه لاتعدو الظن في كثير من الأحيان ،
ولا تعطينا إلا وصفا عاما لما يحدث في نفس الانسان أو من الانسان ، فلا يمكن
أن نقبل هذا التحليل للأمزجة على أنه حقيقة علمية قد فرغ منها الباحثون ،
فلا تقبل النقص . وكل مانعرفه حقيقة في هذا الموضوع هو أن هناك أمزجة
متباينة بقبان الأشخاص ، وأن لكل واحد منهم صفات خاصة تميزه عن غيره
من الناس . ولا مرأ في أن لطبيعة الانسان وتكوينه الجسمي أثرا في حياته
العقلية وفي تحديد سلوكه وتصرفه . ولكن لابد لنا أن نعترف أيضا أن هناك
عوامل أخرى مشاهدة لها نفس الأثر . وكما قلنا سابقا - ومن غير دخول في
بحث فلسفي حول هذا الموضوع - ليست طبيعة الانسان هي العلة الأولى والأخيرة
التي تنشأ عنها أفعاله ، فما الإنسان وطبيعته إلا أثر لمؤثر آخر . ويظهر أن
(مكدوجل) من علماء النفس المحدثين ، كان على حق حين يقول : إننا لم نأت
بجديد في هذا الموضوع غير اعترافنا بجهلنا لحقيقته ، وغير معرفتنا بأنه موضوع
وعر المسالك متشعب الطرق ، وتتوقف دراسته على دراسة علم وظائف الأعضاء .
وذلك موضوع لم يبلغ مرحلة النضوج بعد .

وأخيراً ، فلا مرأ في أن الطبائع البشرية متعددة ومتباينة بقبان الأفراد ،
وأنهم لذلك متفاوتون في أشياء كثيرة ، على الرغم مما يبدو فيهم من تشابه ظاهري .
لذلك كان لزاما أن يتفاوتوا في عاداتهم وتقاليدهم ووجهة نظرهم نحو الحياة .

ولكن مما تأسى له النفس ويوقع في الحيرة ، أننا جميعاً نعترف بتلك الحقيقة ،
ثم لانعذر بل نذم ونعذل مخالفينا في آرائنا وعاداتنا ، وكثيراً ما نرميهم بأنهم
متوحشون ، أو خلو من العواطف الإنسانية ، أو بعيدون عن القوانين الخلقية
ولا يفقهون لها معنى . فهذا يرمى ذاك بالجمود ، وهو الآخر ينسبه إلى التطرف ؛
وكل ساخط على أخيه ، فيرى القذى في عينه ، ويتلمس المعاذير لكبرائ نفسه ؛
وينقد الغربي مافى الشرق من عادات ، ويكره الشرق التقاليد الغربية ؛ وبذلك
تكونت بين الأفراد والجماعات هوة سحيقة ، كان من نتائجها ما نرى من تنازع
وتخالف وما نقاسى من شذائد ومحن .

وبما أن الفرد سوف لا يمكنه أن يتنازل عن فرديته — طبيعته ، كما أن
الجماعة لا يمكنها أن تغير من طبيعتها التي عبرت عن نفسها في العادات والتقاليد ،
فالعادات والتقاليد صنو النفس ، وبها تتكون شخصية الجماعة ؛ وبما أن
اختلاف الطبائع ليس ذليلاً على تنافر المصالح ، فحق الفرد من كل جماعة أن
يؤمن بتلك الفوارق الطبيعية بين أفراد النوع الإنسانى ، ويؤمن بنتائجها
الحتمية ، فيتلمس المعاذير لمن لم ير وجهة نظره ولا يأخذ بالشدة والعنف ،
بل يأخذ بالحسنى مادام إلى ذلك سبيل . فإنه لو وضع نفسه مكان مخالفه وكان
تحت تأثير كل ماحاط بصاحبه من ظروف لا تحدث غالباً وجهة النظر والكانا في
الرأى سواء . وإن الاختلاف في الأمزجة والطبائع يجب ألا يكون على أى حال
سبباً للعداوة والشحناء ، بل عاملاً على التعاون والمساعدة لتحقيق منافع الأشخاص
المتبادلة ، التي تستدعى في تحصيلها تضامن الجهود وتكاتف الأفراد .

(ب) العوامل الخارجية :

وأما العوامل الخارجية فهي البيئة بجميع أنواعها ومنها التعليم . فالبيئة في الواقع هي المصدر الوحيد الذي يستمد منه الطفل الموضوعات التي تتوجه نحوها عواطفه . فتحكم البيئة الاجتماعية على هذا بأنه حسن ، وعلى ذاك بأنه قبيح ، وعلى هذا بأنه يؤكل ، وعلى ذاك بأنه معاف ومستقذر . ومن التقليد والمحاكاة وتوجيه الآباء يميل الطفل نحو هذا ويرغب عن ذاك ، فينفعل انفعالات السرور للأول وانفعالات الغضب أو الكره من الآخر ؛ وتكرر هذه الانفعالات على مر الأيام وتتجمع وتتركز نحو ذلك الموضوع المعين ؛ ومن ثم تتكون العاطفة . فيتكون عند الطفل الريف حب القرية والمزرعة ، ورؤية الأبقار في غدوها ورواحها ؛ ويتكون عند الطفل الحضري حب المدن وما يتعلق بها من ازدحام في الطرقات وجلبة الباعة المتجولة ودور السينما والمقاهي . لذلك لم يكن عجيبا أن نرى المرأة البدوية في شعرها المشهور تحن إلى الريف وما فيه وترغب عن القصور الشاهقة وما فيها من زخرف ومتاع وتقول :

لبيت تخفق الأرياح فيه أحب إلى من قصر منيف
وأكل كسيرة في كسر بيتي أحب إلى من أكل الخروف
وكلب ينبح الأضياف حولي إلخ ،

وللأحوال الجوية كذلك أثر يذكر في تكوين العواطف المختلفة . فترى أهل البلاد الحارة حادى العاطفة وسريعى الانفعال ، بخلاف أهل المناطق الباردة ، فإنهم أكثر تحملا وأقل تأثرا ، ولذلك كثيرا ما يرمون بالبرود .

ويؤثر نوع الغذاء الذي نتناوله كذلك على عواطفنا وانفعالاتنا . فأكلة اللحوم

عادة أشد انفعالا وأكثر حدة من هؤلاء الذين يعيشون على خضر الأرض وبقليها . وذلك مشاهد في الإنسان والحيوان . فأكلة اللحوم من الحيوانات هي الضارية العادية ، وهي التي تثور لأتفه الأسباب ؛ وأكلة الخضر والنبات أقلها عدوانا وأسلمها قيادا . وقد تشذ تلك القاعدة ، فقد حدثنا التاريخ أن بعض الأشخاص الذين كانوا يعيشون على ما تنبت الأرض من بقول وخضر فقط كانوا شديدي الانفعال خادى العاطفة وتأثرى الأعصاب .

ويساعد التعليم كذلك على تكوين العواطف ، وخصوصا ما تعلق منها بالأفكار المجردة والمثل العليا : مثل حب العدل والفضيلة وما ماثلهما من عواطف خلقية ، فهذه وأمثالها يمكن أن تغرس في الطفل غرسا كما تغرس فيه المعلومات المختلفة .

فبالتربية والتعليم تنمو فينا العواطف المتجهة نحو المثل العليا ؛ وبالمحاكاة والتقليد تتربى فينا عواطف آبائنا وبيئتنا وعظائنا الذين نعجب بهم وتتخذهم مثلا أعلى في الحياة ؛ وبالغريزة توجد فينا العواطف المتجهة نحو نفوسنا وذواتنا وأخيرا نحو مجتمعنا .

العواطف الرئيسية :

كل عاطفة من العواطف لابد أن تكون موجهة نحو موضوع معين تتوجه إليه الرغبة أو تنصرف عنه . فهو مرغوب فيه أو مرغوب عنه . وعلى الرغم من أن الرغبة وعدمها ليسا حبا ولا كرها ، فإنهما يستلزمان حبا وكرها ، وهما أيضا من لوازم الحب والكره ؛ فالحب متلازم مع الرغبة كما أن الكره متلازم مع النفرة أو الرغبة عن الشيء . ومن هذا يمكن أن يقال أن كل العواطف تستلزم

عاطفة الحب أو البغض . وذلك لأن في كل منها ميلا نحو الشيء أو ميلا عنه . لهذا يمكن القول بأن عاطفتي الحب والبغض هما العاطفتان الرئيسيتان الموجودتان خلف كل عاطفة ، وأما غيرهما من العواطف فهو من العواطف الثانوية المتفرعة عنهما . فعاطفة الحب هي العاطفة التي نظمت فيها ميول العطف والشفقة والرحمة وما مثلها ، وتركزت نحو موضوع معين بقصد المحافظة على النوع أو على الذات ؛ وأما عاطفة البغض فهي التي نظمت فيها ميول الخوف والغضب وما شاكلها ، وتركزت نحو موضوع معين . ولكن ليس معنى هذا أن كل عواطف الحب أو الكره لابد أن تكون عاطفة واحدة ذات شخصية واحدة وطابع واحد . فكل عاطفة خاصة هي وحدة متميزة بنفسها ، وخاصة في تركيبها وفي تكوينها ، ولها بعد ذلك وظيفتها وعملها ، ولها كذلك موضوعها الخاص وتاريخها الخاص . فإذا كان لك عدد من الأبناء ثم وجدت عندك عاطفة حب نحوهم ، فليس لك عاطفة حب واحدة ، ولكنها عواطف متعددة بعدد الأبناء الذين توجهت نحوهم العواطف . ولو صح أن يقال إن هذه العواطف المتعددة واحدة بالنسبة إلى الميول لبقى لازماً أن يقال إنها متعددة بالنسبة للموضوع ؛ فما دام هؤلاء الأبناء أشخاصاً متميزين ، فلا بد من التفكير فيهم كذلك متميزين ، ومن أن تتكون نحوهم العواطف على هذا النحو . على أن العواطف نحو بعض هؤلاء الأبناء قد تكون أقدم زمناً وأعمق أثراً منها نحو البعض الآخر ، وقد تتغير كذلك بتغير الزمن ، فيزيد حبك لواحد ، وينقص بالنسبة للآخر ، ويبقى على وضعه الأول بالنسبة لثالث .

وعن هذين النوعين من الميول ميول الشفقة من ناحية وميول الغضب والخوف من ناحية أخرى ، أو من عاطفتي الحب والبغض ، تنشأ كل العواطف المختلفة . فكثير من عواطفنا يرجع مباشرة إلى هاتين العاطفتين ، ويتفرع

عنهما . ولاشك أن هناك من العواطف ما لا يرجع مباشرة إلى هاتين العاطفتين ،
بيد أنه لا بد أن يرجع في النهاية إلى واحدة منهما لأنه لا بد أن يتضمن بعد
التحليل رغبة في الموضوع أو رغبة عنه ، وكل من الرغبة والنفور يستلزم
حبا وكرها .

فإذا ما نظرنا إلى شخص واعتبرناه مثلاً أعلى في الحياة يتبع ، وخضعنا لسلطانه
خضوعاً ناشئاً عن إدراكنا لسر عظمته ومعرفتنا لما قد قام به من مجهود في سبيل
مبدأ من المبادئ الحية ، فإننا - والحالة هذه - نكتسب بالنسبة له شعوراً خاصاً ،
قد يسمى « عاطفة الاحترام » . وتلك العاطفة هي التي تكون كل أفكارنا
وشعورنا نحوه ، وتلعب دوراً مهماً في تحديد سلوكنا وتصرفاتنا نحو ذلك
الشخص . وعاطفة الاحترام هذه وإن لم تكن حباً حقيقياً ولكنها تتضمن
كثيراً من مظاهر الحب . وقد تتطور عاطفة الاحترام إلى عاطفة الإعجاب
والتقدير . وأخيراً إلى عاطفة الحب . كذلك إذا ما وجدنا شخصاً يبدو مشاركاً
لنا في وجداناتنا وانفعالاتنا ، فإننا نجد رضا وراحة نفسية في مصاحبته ، وبذلك
تصبح مصاحبته هدفاً من الأهداف التي ترمى إليها ميولنا الاجتماعية ، فتتكون
بيننا وبينه « عاطفة الصداقة » ؛ وهذه قد تصاحب بعواطف أخرى
كالإعجاب به واحترامه وشكره وتقديره ، ثم تنمو كل هذه العواطف وتتطور
إلى عاطفة حب .

وهكذا فإن العواطف الرئيسية هي عاطفة الحب وعاطفة البغض ، واليهما
يمكن إرجاع باقي العواطف ، التي لا تكاد تحصر عدداً . وليس من الضروري أن
نسردها عدداً ، ولكن يكفي أن نقول إنها كعاطفتي الحب والبغض لا بد أن تكون
موجهة نحو ذات أو نحو شيء ، نحو موضوعات عامة ومشتركة ، ونحو موضوعات

عقلية بحتة . وهذا النوع الأخير ينتظم كل الموضوعات الدينية والأخلاقية والسياسية .

وإذا ما علمنا هذا ورأينا أن العواطف متداخلة وأنها جميعها ترجع إلى نوعين من الميول ، كان من السهل علينا نحن المربين أن نتحكم فيها جميعها بتحكمنا في هذين النوعين من الميول . فإنا إن هذبت ميول الشفقة والعطف أو عاطفة الحب ، وهذبت ميول الخوف والغضب أو عاطفة البغض ، ووجهتهما الوجهة الخلقية وسلكت بهما طريقا وسطا سويا ، فإنك تكون قد نجحت في تهذيب كل العواطف وساعدت على إيجاد أشخاص قد تهذبت نفوسهم وحسن سلوكهم وكمل خلقهم .

العواطف المكبوتة :

قد رأينا أنه من الشروط الأساسية لتحقيق العاطفة أن تكون موجهة نحو مركز معين ، هو موضوعها ، وأن العاطفة ، ككل الوجدانات ، توحى بعمل تنفيذي إرضاء لها وإشباعا لرغباتها . فهي دائما توحى بعمل نحو موضوعها . ولكن العمل يحتاج في تنفيذه إلى أكثر من إرادة من يريده ، فهو يحتاج بيئة مطاوعة تسمح أن يقع فيها ذلك العمل . فإذا لم تسمح البيئة بتنفيذ ما تتطلبه الرغبات ، أو لم تساعد الأحوال الاجتماعية على تنفيذ ما توحى به العاطفة ، ظلت تلك العاطفة معطلة وغير مشبعة ؛ وبذلك تسمى «عاطفة مكبوتة» أو «عاطفة مقهورة» ، أى مغلوبة على أمرها حيث لم تجد لها منفذا تنفس به عن نفسها . وتظل هكذا مضغوطة عليها من البيئة الاجتماعية أو من نفس الشخص ذى العاطفة لغرض من

الأغراض حتى تنهياً لها الفرصة ، وتجد منفذا فتظهر بمظهر الشائر الغاضب وبمظهر الجائع الذي لا يشبع ، أو الظمان الذي لا يرتوى . وقد يكون لها أسوأ الآثار في الحياة العقلية العامة ، وخصوصاً إذا ما طال الكبت وعز التنفيذ .

علمنا أن الوجدانات أسرع من التفكير في إحداثها بالحركة ، وعلمنا أنها القوة الفعالة الداعية إلى العمل . وما العواطف إلا وجدانات وانفعالات مركبة ومركزة نحو نقطة معينة ؛ فهي إذن قوى تدفع إلى العمل وتوجه الشخص طريقاً معيناً في عمله . فإذا ما تعارضت عاطفتان فقد اصطدمت قوتان في الشخص ، وعز عليه أن يعمل عملاً إيجابياً نحو متعلقهما إلا إذا تغلبت إحداها على الأخرى ، وحينئذ يعمل لارضاء ماله الغلبة من العواطف ، وتظل الأخرى مكبوتة لم تشف فلتها . فإذا فرضنا - مثلاً - أن شخصاً قد تربت عنده عاطفة حب المال وجمعه بحيث ملكت عليه كل قلبه ومشاعره ، وأصبح يرى جمع المال غاية في نفسه وليس وسيلة إلى غاية ، وهو يعلم مع ذلك أن الاحتكار في زمن القحط والشدة يدر عليه الربح الكثير ؛ فبه لجمع المال يدعوه إلى أن يحتكر ويحبس كل ما يملك من أقوات عن التداول في أيدي عامة الناس ؛ ولكن البيئة الاجتماعية تبغض الاحتكار ، والقانون يحرمه فلا سبيل إليه ولا سبيل إلى جمع المال الذي اتجهت نحوه عاطفته ؛ فعاطفته إذن مكبوتة . ولكن إذا ما فرضنا أن ذلك الشخص نفسه متدين ويؤمن بحرمة الاحتكار زمن الشدة ، فمثله يكون تحت رحمة عاطفتين متضاربتين ، ومتطلبتين لعملين متباينين : بين الاحتكار إرضاء لعاطفة حب جمع المال وبين تقديم ما عنده للطالبين إرضاء لعاطفته الدينية . فإذا ما تغلبت إحدى العاطفتين عمل بمقتضاها وكان إما رجلاً متديناً باذلاً ما عنده ، أو جامعاً للمال محتكراً ، وتذهب بعد ذلك العاطفة المكبوتة - سواء أكانت مكبوتة بفعل

المجتمع وتحت ضغط البيئة أم مغلوقة على أمرها بسبب تحكم عاطفة أخرى ، أو بعبارة أخرى سواء أ كانت مكبوتة عن رغبة نفسية أم عن رهبة ، إلى بؤرة اللاشعور ، وتكون (كما يقول فرويد) عقدا نفسية قد تكون سببا في المستقبل لكثير من التصرفات الغريبة التي لانكاد نجد لها سببا ظاهراً معقولاً .

ويرى (فرويد) أن الأمراض العصبية والنفسية ترجع كلها عند التحليل إلى هذه العواطف التي لم تشبع بسبب ضغط المجتمع وفعل مافيه من تقاليد وعادات . فالمرء رغبات وعواطف طبيعية ، ولكنها قد تكمن في النفس ، لأن المجتمع وتقاليده قد لايسمحان بإرضائها ، فتظل هكذا كامنة في العقل الباطن كالنار تنتهز فرصة مناسبة للظهور ، فاذا ماسنحت لها الفرصة وواتتها الظروف انفجرت كما ينفجر البركان وكان في ذلك تخفيف لكثير من الآلام النفسية ، وإلا كانت مثار خطر عظيم ومؤدية أحيانا إلى الجنون .

ولهذا يرى فرويد أن خير علاج لهذه الحالة أن يسمح لتلك العواطف المكبوتة بالظهور ولكن بشكل مخفف مادام هناك إلى ذلك سبيل . وذلك بأن يترك المريض يفرج عن نفسه مثلاً بأحاديث عن حالته يقصها على من يثق به من الناس كطبيب من أطباء علم النفس أو صديق حكيم يستأنس برأيه .

ولكن ليس معنى هذا أن كل عاطفة مكبوتة لابد أن تنتهى بمثل هذه النتائج المزعجة ، فقد يتغلب على العاطفة وهى لاتزال في مهد تكوينها وقبل أن يستفحل شأنها وتصير طبيعة من الطبائع . وان العقد الناشئة عن كبت العاطفة قد تضمحل نفسها وتقل شيئاً فشيئاً حتى تضعف أو تفتى . وذلك يكون بكثير من المحاولات الحكيمة وبتفكير رزين في متعلق العاطفة المكبوتة وفي أثره الإجتماعى والشخصى ، وبمحاولة تربية عواطف أخرى مضادة .

أثر العاطفة :

قد علمنا أن الوجدان أسرع من التفكير في إيحائه بالحركة ، وأنه أقدم منه زمناً وأسبق وجوداً وأكثر اتصالاً بالنفس ، لهذا لم يكن بدعاً أن يكون أثره في النفس أشد وأعمق . وإذا كان هذا صحيحاً في الوجدانات المطلقة فما بالك بها إذا تركزت نحو موضوع معين ، فأصبح الهدف الوحيد الذي تتوجه إليه كل ميولنا وتتركز نحوه كل جهودنا . إن أثرها في السلوك ، والحالة هذه ، لا بد أن يكون أشد وأقوى .

توحى كل عاطفة بعمل من الأعمال التي تلائمها ، وتشير ميولاً خاصة نحو بعض الأعمال الضرورية لارضائها . غير أن تلك القوة الدافعة إلى العمل مقولة بالتشكيك قوة وضعفاً في بعثها الهمم وحفزها على العمل . فهي من هذه الناحية تختلف باختلاف الأشخاص وباختلاف ظروف العاطفة نفسها . فبينما ترى واحداً من الناس لا يقرر له قرار ولا يهدأ له بال حتى يعمل بما أوحى به عواطفه ، إذا بآخر ، أو إذا به نفسه ، ولكن تحت ظروف أخرى ، لا يبذل من المجهود أكثر من بعض المحاولات المبدئية في سبيل إرضاء عواطفه ، كأنه يريد أن يغمر بها أو يخذعها باظهار أنه يحاول إرضاءها في حين أنه لا يقصد في الحقيقة أن يفعل . ذلك الاختلاف في قوة الميول وضعفها نحو العمل يرجع إلى قوة العاطفة وضعفها . فمن قويت عنده العاطفة اشتدت رغبته في إرضائها وداوم على العمل حتى يشبعها غير مبال بما يصادفه من متاعب أو يلاقى من صعوبات في سبيل ذلك الإرضاء . وأما العاطفة في إبان نشوئها والتي لم تتركز في النفس تركزاً قوياً فانها تكون ضعيفة في إيحائها بالحركة بحيث إن أدنى مجهود يبذل من الشخص يكون كافياً في إرضائها أو على الأقل في تسكينها تسكيناً وقتياً .

وهذا هو السر في أن بعض الرجال يحاربون في مبادئهم وعقائدهم ، ويعذبون ويسجنون ، ويمنون بكل متاع من متاع الدنيا ، وهم مع ذلك ثابتون على مبادئهم لا تزيدهم الحن إلا تمسكاً بما به يؤمنون ، ولا تزيدهم الشدائد إلا إصراراً على ما يعتنقون . والتاريخ في كل عصوره مليء بأمثال هذه الشخصيات من أنبياء وأخلاقيين ، ومصلحين وسياسيين واجتماعيين . بينما ترى رجالاً آخرين يتقلبون بين هذا الرأي وذاك ، ولا يستقرون على مبدأ ولا يثبتون على حال ، فتراهم اليوم رجالاً متدينين ، وغداً رجال شك ومراء ، وينادون اليوم بمبدأ وغداً بآخر ، ويتابعون اليوم هذا وغداً ذاك . فهم أتباع كل ناعق وخدمة كل من ظهر في الأفق نجمه ، ويرون الحق مع من علا صوته ، أو قبح لسانه وكثر صراخه ، ثم هم بعد ذلك لا يثبتون معه ، ولا يدينون له بطاعة إلا مقداراً من زمان أو ساعة من نهار . والسبب في هذا أنهم لم يكونوا لأنفسهم فكرة معينة نحو الموضوعات التي ينادون بها أو يرغبون عنها . ولم يؤمنوا بها حتى إيمان المقلد ، بل أخذوها أخذاً سطحياً ، فتملكت مشاعرهم ، واحتلت وجداناتهم ساعة من زمان ، ثم ماتت بمضيها . فلم توجد عندهم الفرصة الكافية لتكوين عاطفة نحوها . وهم لذلك لا يستقرون على رأى معين ولا يؤمنون بالثبات على مبدأ .

وهذا الصنف من الناس هو الداء العضال الذي إذا استفحل في جماعة من الجماعات عز دواؤه ، واستعصى علاجه ، وكان مصيرها إلى الفناء كجماعة ذات كيان وسيادة . فإذا ما تبعت الجماهير كل ناعق كثرة الناعقون وظهور المستغلون والطامعون وتركزت الجهود نحو المصالح الفردية والأهواء الشخصية ، وتبقى كتلة الجماعة بلا عضد ولا نصير ، فتعصف بها الأعاصير حتى تهوى أخيراً بجهل أبنائها في قبضة المستعمرين أو المغيرين . فالعاطفة هي القوة التي تنظم من تصرفاتنا وتنسقها ، وتجعل منها سلسلة

واحدة متشابهة الحلقات ليس فيها من شاذ أو من غريب . وهى أمر نفسى ثابت مركزى فى النفس ، وله استقرار الطباع ، وغير متناقضة فى مطالبها ؛ ومن ثم كانت تتطلب عملاً ثابتاً متشابه الأطراف . فهؤلاء الذين لم تنضج عواطفهم لا يعرفون موضوعاً معيناً يتجهون نحوه فى حياتهم ، بل يتبعون وجداناتهم الوقتية المتقلبة بتقلب المؤثرات ، فتكون أعمالهم سلسلة من المتناقضات ، ويظهرون كأنهم لا يهدفون نحو غاية معينة فى الحياة . وأما الآخرون الثابتون على مبادئهم فقد تكونت عندهم فكرة معينة نحو موضوع معين قتله بحماً وآمنوا به إيماناً ، فهم يسعون نحو أمر محدود مرسوم لا يحيدون عنه ولا يتغنون به بديلاً . ويصبح هذا الغرض المرسوم هدفاً تلتقى عنده كل جهودهم وتثار من أجله كل انفعالاتهم ، وتتجمع هذه الانفعالات حول هذا الغرض ، ويرتبط بعضها ببعض حتى تصبح كتلة واحدة ، فيتكون من كل ذلك مانسميه بالعاطفة . وهذه بدورها توجه كل مجهود الشخص وقوته نحو مركز واحد ، وهو موضوعها . وبذلك يصبح المرء صاحب مبدأ ثابت وفكرة معينة ، وإن شئت فقل يصبح ذا شخصية وفكرة ثابتة يستमित فى الدفاع عنها والمحافظة عليها .

فالعواطف فى الحقيقة هى العامل الأساسى فى تكوين الشخصية بجميع أنواعها ، إذ لا شخصية بدون الثبات على رأى معين مرسوم ، فلا شخصية بدون مبدأ ، ولا ثبات بدون عاطفة تدعو إليه . بيد أن كل العواطف التى تساعد على تكوين الشخصية تفترض وجود عاطفة فى الشخص هى «عاطفة احترام النفس» أو حب النفس ، وتلك العاطفة هى الأساس الذى تعتمد عليه العواطف المكونة للشخصية كلها .

تبدأ عاطفة احترام النفس تتكون عند الإنسان وتأخذ شكلاً معيناً

عندما يبدأ يحس بوجوده كعضو له استقلال في هذا العالم على الرغم من احتياجه إليه ، وعند ما يرى نفسه شخصا ذا كيان في المجتمع مؤثرا فيه ومتأثرا به ، وليس مجرد جزء من العالم ليس له من أهمية . وتكون تلك العاطفة - إذا كانت معتدلة - حداً وسطا بين عاطفتي حب الظهور والخضوع ، فتلطف إحدى هاتين العاطفتين من حدة الأخرى في الشخص ، فلا يكون مختلا جبارا ولا عبدا ذليلا ، بل يؤمن بنفسه كشخص ، ويؤمن كذلك بشخصيات أخرى في المجتمع لها من الحقوق والواجبات مثل ماله منها . فهو يرى أن المجتمع ليس وسيلة لتحقيق أغراضه ، وليس هو نفسه وسيلة لتحقيق أغراض المجتمع ، بل كل منهما غاية في نفسه ، ولكل منهما أغراضه الخاصة التي يجب عند تحققها ألا تطغى على أغراض الآخرين وحقوقهم .

وبعد أن يميز الإنسان نفسه عن غيره ويحس باستقلاله المادى والعقلى ، فإنه يبدأ في تكوين فكرة عنها بأن يتعرف ميول نفسه ووجداناته ، أو بأن يتعرف المثل العليا التي تصبو إليها نفسه . ثم هو بعد ذلك الشخص الذى يكون أو يعتقد من نفسه . فإذا ما توجهت الميول نحو صفة معينة أو مثل أعلى ، وتكونت نحوها عاطفة ، فإن هذه تدفع إلى العمل ، ثم تكون بعد ذلك الشخصية المقصودة . ولقد حدثنا التاريخ عن أفراد لم يكونوا من قبل شيئا يذكر ، ولكن عزائمهم ، وإن شئت فقل ، عواطفهم التي أشجذت من عزائمهم وأثارت من همهم ، توجهت نحو مثل عليا قصدوها ، وثابروا عليها ، وصبروا على متاعبها ، وتحملوا أحنها ، وجاهدوا في سبيلها ، فجعلت منهم الشخصيات التي يريدون ؛ « وما الحياة إلا رغبة » ، « وما أنت إلا ما تريد » .

وليس أثر العاطفة الاجتماعى بأقل من أثرها في تكوين الشخصية ؛ فكما

أنها تكون من شخصية الفرد ، تكون كذلك من شخصية الجماعة .
 وجد الإنسان نفسه في بيئة اجتماعية فهو لا يتصور حياة غيرها . وذلك لأن
 الجماعة البشرية ليست نتيجة للجهود الفكرى للإنسان ، ولكنها من عمل
 الغريزة . ولقد كانت الغريزة الاجتماعية من ضروريات بقاء الإنسان ، لأنه
 ليس له ، كما لبعض الحيوانات ، من الآلات الطبيعية ما يدافع به عن نفسه ، وليس
 خفيف الحركة حتى يقوى على الهرب بسرعة ، وليس لين الأعصاب أو الأعضاء
 حتى يتمكن من الاختفاء بسرعة كذلك . ولكن شاعت حكمة القدير أن
 يزوده بما هو خير من ذلك كله ، وهو « حب الاجتماع » الذى أقدره بمساعدة
 أخيه على أن يذل الصعب ويقود الجموح ويستأنس المتوحش . وإن الحب
 لأقدم فى الوجود من العقل . ولهذا كان من الطبيعى أن تتكون بعض العواطف
 بين الشخص وبيئته المباشرة أولاً ثم بيئة بيئته المباشرة ثانياً ، وهكذا حتى تتسع
 دائرتها ، وتتطور نحو الأمة أو نحو الإنسانية فى نفسها . على أن الجماعة ليست
 ضرورية لجعل الحياة ممكنة فقط ، بل هى كذلك ضرورية لجعلها صالحة طيبة ،
 كما يقول أرسطو . فإحساس كل فرد بأنه فى حاجة إلى أن يتضامن مع آخرين
 ليزال من صعوبة الحياة ومشاقها ، وشعوره بأنه لابد أن يتكاتف مع بيئته ،
 ويتودد لها لتعاونه على تحقيق أغراضه فى الحياة ، كل هذا يوجد عنده شعوراً
 خاصاً نحو تلك البيئة ، ويقوى ما بينه وبينها من روابط ، ويتطور هذا الشعور
 وينمو بمرور الأيام حتى يصير عاطفة حب وإخلاص .

فأنت ترى أن العاطفة الاجتماعية كغيرها تنشأ عن عاطفة حب النفس أولاً ،
 ثم تتطور إلى ما وراء النفس من أسرة إلى قبيلة ، وهكذا إلى الأمة . ويرى
 مكيدوجل هنا أن عاطفة حب الأسرة وما يشابهها من مجموعات صغيرة أو بيئة

مباشرة يكاد يكون ضروريا لإمكان تكوين عاطفة حب الوطن أو الأمة ، لأنه يعتقد أن فكرة الوطن والوطنية من العموم والصعوبة بحيث لا يدركها عقل الطفل . ولا أريد هنا أن أناقش هذه الفكرة ، ولكنى أحب أن ألفت النظر إلى الحقيقة الواقعة ، وهى أن العاطفة نحو الأسرة أو نحو ما مثلها من مجموعات صغيرة تكاد تكون معدومة فى كثير من الحالات فى روسيا مثلا ، وإن النظام الجديد هناك لا يشجع على نمو أمثال هذه العواطف الفردية أو تكوينها . ومع هذا فإن العاطفة نحو روسيا كشعب ، ونحو الأقطار الروسية التى أظهرها الأفراد منهم فى هذه الأيام الأخيرة قد تجلت بمظهر رائع يجعلنا نشك فى صحة نظرية مكدوجل المشار إليها سابقا أو على الأقل فى صحة تعميمها . ويستنتج من هذا أن قوة العاطفة العامة وضعفها - كالعاطفة نحو الأمة - لا يتوقف على قوة العاطفة الخاصة - وهى العاطفة نحو الأسرة وضعفها .

على أنه من الممكن - وقد وجد فعلا - أن يلحق الطفل من مبدأ حياته بالإخلاص والحب لوطنه من غير أن يذكر بأسرته أو بطوائف أخرى من الأمة . وليس من الضرورى لتحقيق هذا الغرض أن نعلمه بالتفصيل معنى الوطن أو الأمة ، كما أنه ليس من الضرورى فى تعليمه أن يحب الله أو أسرته أو معنى خلقها أن يعرف بالتفصيل من هو الله وما هى الأسرة أو أن نحدد له القوانين الخلقية بتعريف جامع مانع .

وسواء أكان هذا أم ذاك فإن تكاتف الأفراد على تحقيق غاياتهم المشتركة وتضامنهم فيما فيه بقاؤهم ، وتآزرهم على القيام بما فيه صلاحهم ، ضرورى لرفقهم وسعادتهم بل للمحافظة على كيانهم . وهذا ، ولا شك عند الشعور به ، يقوى من وجداناتهم نحو البيئة التى يعيشون فيها ، ويساعد على تنمية العواطف نحوها .

ولو كان كل فرد يعمل في حدود نفسه ولنفسه ، محاولاً بذلك إرضاء مطامعه الخاصة وأهوائه الفردية أو إشباع أنانيته ، مآخذاً المجتمع خطوة واحدة إلى الأمام . وإن عواطف الشفقة والإحسان ، والحب والإخلاص ، والصدقة والعطف ، لعواطف اجتماعية توحى بالعمل الاجتماعي الذي يرمى في نتائجه إلى ما وراء الفرد من جماعات .

العواطف والتربية :

وإذا كانت العواطف القوة الحيوية التي تدفع الفرد إلى العمل، وإذا كانت المنظم لحياة المرء الوجدانية بل لحياته كلها ، وإذا كانت العامل الرئيسي في تكوين شخصية الفرد ، وإذا كانت كذلك عاملاً مهماً في تكوين شخصية الجماعة وفي إسعادها - إذا كانت كل هذا وجب على المربي أن يتعهد لها منذ الطفولة ، وأن يراقب من سيرها وتطورها ، فلا يسمح للعواطف الخبيثة أن تتكون ، بل يسد أمامها السبل ويقطع عليها الطريق . وإذا ما تكونت تكونت ناشئاً عن إهمال أو استعصاء وجب عليه أن يكون حكيماً في علاجها ، فلا يكبتها كل السكبت ، وإلا كانت سبباً في إيجاد آلام عصبية قد تذهب بعقل الشخص وتفكيره ، ولا يطلق لها العنان ، فتتصرف كيف تشاء ، وإلا كانت شراً مستطيراً ، ويكون مثلها كمثل مجنون قد مكن من سلاح قاتل وهو لا يحسن استعماله ، فهو لا محالة هادم نفسه أو غيره . فليترك لأمثال هذه العواطف منفذاً وليسسمح لها بالظهور ، ولكن في مظاهر مخففة لا تضر . وكان لزاماً على المربي في هذه الحالة أن يحاول أن يربي عند الطفل عواطف أخرى طيبة مضادة لتلك العواطف الخبيثة، فإنها ستخفف من حدتها وتلطف من ثورتها ، فيكون المرء معتدلاً في عواطفه، ومن ثم في سلوكه وتصرفه . وقد تتغلب عليها على مرّ الأيام

فتزيلها من أصولها ، وتمحو أثرها من الشخص ، وكثيرا ما يصبح أمثال ذلك النوع بعد ذلك متعصبا وأكثر ميلا للناحية الأخرى ، فتجده زاهدا متقشفا . بعد أن كان منغمسا في النعيم مترقا .

فلو أن شخصا أغرم ، مثلاً ، بجمع المال ، فملك عليه هذا القصد عواطفه وميوله ، وتوجهت نحو هذا الغرض كل جهوده ، ونظر إلى المال كغاية ترجى ، وليس كوسيلة لتحقيق غاية من الغايات ، فإنه والحالة هذه يكون مشكلة اجتماعية ، لا يقل خطراً عن اللصوص . فإن مثله لا يبالى في العادة كيف يجمع ماله ، ولا يهتم الطريق التي يحصل بها ثروته ، ولا يفكر في أنها مشروعة أو غير مشروعة ، بل قد يذهب أبعد من هذا فيتحايل ليجعل عمله مشروعاً ، لينجو من عقاب القانون ، مادام إلى ذلك سبيل ، وهو يعلم أنه في نفسه كاذب محتال . وقد تغطي تلك العاطفة ، فتسول له نفسه أنه ليس بالمحتال الكاذب ، وإنما أخذ حقاً كان مغموطاً . وذلك أدنى مراحل الانحطاط الخلقي . ولا شك أن مثل هذا يكون شراً على المجتمع وبيلاً ، وعلى المجتمع أن يحارب من تلك الرذيلة ويهذبها . ولكن كيف ؟ دعه يجمع المال ، فليس ذلك شراً في نفسه وإن كان الشر يصاحبه أحياناً ، ولكن أوجد عنده في الوقت نفسه عاطفة الأمانة ، وعاطفة الصدق ، وعاطفة الإحسان ، وعاطفة التواضع مع عاطفة احترام النفس ، وأوجد عنده العاطفة الدينية والعاطفة الاجتماعية التي توحى بأن تحب لأخيك ماتحِب لنفسك ؟ أوجد عنده أمثال هذه العواطف ، فإنها ستهدب من عاطفته الأولى ، وتوجد شخصاً وسطاً في عواطفه ، ووسطاً في سلوكه وتصرفه . ولكن لا تحارب به في عواطفه ولا تسفه أحلامه ، ولا تحاول أن تهدم وجداناته أو تكبتها ، فإنك لو فعلت ذلك فسوف لا تهدم إلا مجهودك ، وسوف لا تزيده محاربتك له

ولعواطفه إلا إصراراً على التمسك بها وعناداً . وقد يرميك بأنك جاهل بمتع الدنيا وزخارفها ، وحاقد عليه لأنك عاجز عن أن تجاريه وترتفع إلى مكانته ، وحاسد له على أنعم الله عليه . فلا تغلب العاطفة بالعقل ، وإنما تهزم العاطفة بالعاطفة . لهذا كان لزاماً على المرشد الأخلاقى والاجتماعى أن يتعرف ميول الجماعة التى يتحدث إليها ، ويدرس من « سيكولوجيتهم » قبل أن يبدأ فى مهمته ، إذا ما أراد نجاحاً فيها . فلا يهاجمهم فى أعز شىء لديهم ، وهو الموضوعات التى تركزت نحوها عواطفهم . فإنه إن فعل فقد أوجد بينه وبينهم ثغرة سوف لا يقدر على تخطيها أو تجاوزها بعد ، وسيرمونه بالجمود وبأنه بعيد عن الحياة العملية لا يفقه لها مغزى . وكثيراً ما سمعنا خطباء لم يقدموا لنا من المواعظ والإرشاد إلا مجموعة كبيرة من القذف والسباب نحو موضوعات عواطفنا ، وهى تلك الموضوعات التى نجلها ونحترمها ؛ وكانت النتيجة كما نعلم جميعاً أن الجمهور كان فى ناحية وكان مرشده فى ناحية أخرى . ولقد كان خيراً من هذا كله وأسلم عاقبة وأجدى نفعا أن يعترف المرشد بالحقيقة الواقعة ، ويؤمن بالعاطفة كتطور طبيعى ، ويعالجها بعلاجها الطبيعى ، فيحاول أن يكون فى الأشخاص الذين يحاول إرشادهم عواطف أخرى طيبة مضادة للعواطف التى يحاربها ، فإنما يقل الحديد الحديد .

ومن العواطف والانفعالات يمكن أن ينتفع كذلك الخطباء السياسيون الذين يريدون أن يستغلوا ثورة الجماهير لغرض من الأغراض السياسية .

يعتقد الجمهور من علماء النفس أن الجماهير لا تظهر فى تصرفاتها ، حين تجمهرها ، إلا درجة ضئيلة من التفكير ؛ فقد لوحظ أن أعمالهم وتصرفاتهم كثيراً ما تكون بينة الخطأ وبعيدة عن العقل بحيث أنها لا تصدر إلا عن ضعف تفكيره وقل

ادراكه وبعدت عن الاستقامة محجته . وليس هذا من خاصية الجماهير الجاهلة فقط ، بل موجود إلى حد غير قليل بين الجماعات المفكرة كذلك . ويعزو علماء النفس تلك الظاهرة إلى أسباب عدة . منها أن الجماعات إنما تتصرف بعقلية أدناها تفكيراً ، وأحطها روية ، والمفكرون فيها هم المغلوبون والمنقادون . ومنها ، وهو في نظري أقوى الأسباب وأرجحها ، أن الجماهير ، في تجمهرها وفي ثوراتها ، تكون تحت تأثيرات انفعالية أكثر منها إدراكية . ولا شك أن الشخص المنفعل يكون ضعيف التفكير وسقيمه . والواقع أن الأسباب التي ذكرها تعليلاً لضعف عقلية الجماهير في تجمعها وتصرفها كوحدة تعمل كلها متضامنه لا تحتاج هذه الظاهرة .

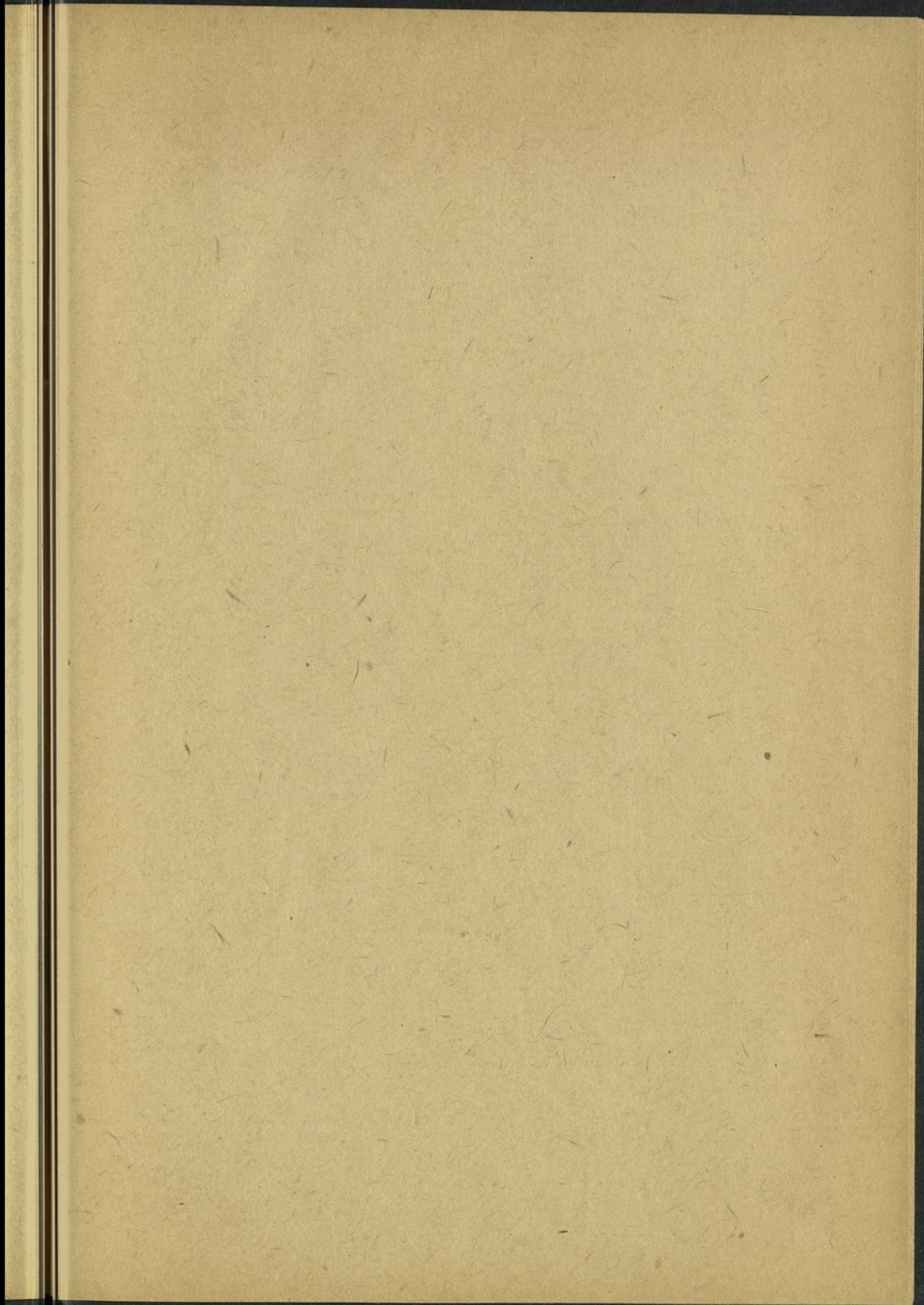
فالخطيب الماهر هو الذي ينتفع بتلك الظاهرة النفسية ، ويستغل ضعف الجمهور التفكيرى أو ثورته الوجدانية ، فيتجه نحو عواطفه ويشير انفعالاتها ، فيملك بذلك الزمام ويصبح قائد الجميع . وإذا كان مثله مصلحاً مخلصاً وذا مبدأ يؤمن به ويجاهد في سبيله ، فسوف يظل محتفظاً بتلك المكانة بعد أن تهدأ عاصفة الثورة ؛ فإن الجمهور سوف لا يظل ثائراً الدهر كله متصرفاً تحت تيارات انفعالية ، بل لابد أن يهدأ باله ويرجع إليه تفكيره يوماً ما ؛ وعندئذ يقدم أحكاماً صحيحة على من استغل ثورته لنفسه ، أو أخلص له في قضيته . وهذا يفسر لنا السر في تنكيل الجماهير أو تقديسها بعد انتهاء الثورات وهدوء العواطف لبعض الشخصيات التي برزت أيام الثورات .

وليس المصلحون الأخلاقيون أو الدينيون بأقل انتفاعاً بهذه الناحية الوجدانية من غيرهم . فلقد كان لتلك الناحية أثر بالغ في اعتناق كثير من الناس الإسلام . فعندما فتح المسلمون ما فتحوا من بلاد فارس والروم كانوا يعاملون الرعية بالحسنى والعدل وكانوا ينصفونهم من انفسهم . ولقد حبيت تلك المعاملة

الحسنى الإسلام إلى قلوب الرعايا الذين قاسوا كثيرا من العنت والشدة تحت حكم السابقين ، وقد كانوا من أبناء جلدتهم ، وكان ذلك سببا في اسلامهم . فلقد تربت عندهم عاطفة احترام واعجاب بهذا الدين الجديد الذى رفع من شأنهم واحترم انسانيته وحفظ حقوقهم وحررياتهم ، وقد كانوا من قبل عبيداً وخداما ، ثم تطورات عواطفهم من هذه المرحلة إلى عاطفة حب وتقديس ثم إلى اسلام .

ولم يكن الدافع الذى حداهم إلى اعتناق الإسلام هو غرض التخلص من دفع جانب من المال أو تجنب الضغط السياسى والاجتماعى ، كما يقول بعض المستشرقين فان المسلم كان يدفع شيئا من المال كما كان يدفع غيره ، فلم يعف الإسلام المسلم أو غير المسلم باسلامه عن بعض المسؤوليات المالية ، بل رأى لزاما على كل من يعيش في جماعة من الجماعات أن يساهم في بناء ثروتها وأن يقدم لها شيئا من المساعدات - كل بحسب مقدرته وثروته ، ليرفيه بها عن المحتاج والمساكين ، وليصلح بها من المرافق العامة الضرورية للجماعات ، نظير ما يتمتع به من حرية في الغدو والرواح ، وأمن في الأموال والأرواح ، ضمنته الدولة له . وأما الضغط السياسى والاجتماعى فليس إلا أسطورة من الأساطير . وذلك لأن العدد الأكبر منهم كان قد بقى على دينه يتمتع بكل الحقوق التى يمكن أن يتمتع بها أمثاله تحت نظام منصف عادل . ولقد قبلت حكومة الإسلام جماعات أخرى منهم مع بقائهم على دينهم ، ولم يكن للإسلام عليهم من قبل أية سلطة سياسية . إنما هو الحب للدين الإسلامى الناشئ عن حسن المعاملة ، الذى حداهم إلى اعتناق الإسلام ، أو إلى التحاكم اليه والنزول عند رأيه وقبوله منظما لأحوالهم السياسية والاجتماعية . فالعواطف إذن عامل مهم من عوامل التربية الفردية والاجتماعية ، ولذلك تجب مراعاتها عند كل إصلاح اجتماعى أو أخلاقى أو سياسى أو دينى .

الشخصية



الشخصية

علمنا أن الطبائع البشرية متفاوتة ، وأن الناس - وإن ظهروا متشابهين في كثير من الحالات ومشاركين في معنى واحد عام يفتظّمهم جميعا ، وهو البشرية والإنسانية - مختلفون في الحقيقة في كثير من الحالات والصفات . فهم يختلفون في تصرفاتهم وسلوكهم ، وفي شكلهم وهندامهم ، وفي الطريقة التي يتأثرون فيها بالبيئة ، وفي كيفية تأثيرهم في البيئة ، وفي كثير من الأعمال والحركات العقلية والعضوية . فلكل واحد منهم مزاجه الخاص وطبيعته الخاصة ، وله لذلك صفاته المميزة له عن غيره ، وقيّمته التي لا يشاركه فيها أحد . وقد يتشابه فردان في كثير من الصفات العقلية والجسمية ، ولكن شاءت إرادة التقدير أن تكون مشابهة لاوحدة ، وأن يكون لكل واحد منهما ما يميزه عن الآخر حتى إذا كانا شقيقين وحتى إذا كانا توأمين خلقا من بويضة واحدة . فلا ترى بين هذه الملايين من النوع الإنساني الذي عاش على هذه المعمورة أو الذي يعيش عليها اثنين قد اتحدت أوصافهما فتشابهها كل التشابه وكونا شخصية واحدة . ومرجع جل ذلك الاختلاف إلى الصفات النفسية أكثر منه إلى الصفات العضوية والجسمية ، لأن الإنسان بنفسه لا بجسمه ، ولا يحدد قيمته الأدبية إلا ما يتحلى به من معاني نفسية : « وأنت بالنفس لا بالجسم إنسان » ، ولذا نجد هذا الافتراق في فصيلة الحيوانات والحشرات أقل منه في النوع الإنساني .

من هذه المميزات تتكون فردية المرء ، وعنّها تنشأ شخصيته التي تظهر للمجتمع وحيدة في نوعها ومميزة لمن قامت به من الدوات عن كل ذات أخرى . ولكن

الشخصية لا تقتصر في علم النفس على هذا المعنى الضيق المحدود ، بل تطلق ويراد منها ما هو أعم من المميزات الفردية ، فيراد بها كل الصفات العقلية والجسمية التي يتصف بها الفرد سواء أ كانت مميزة له عن غيره أم كانت معنى يشاركه فيه غيره . وهى بهذا المعنى ترادف مانسميه « صفات السلوك » عندما تؤخذ هذه الأخيرة على عمومها . فان صفات السلوك قد تستعمل استعمالا خاصا ويراد بها كل صفة ، أو كل سلوك ، هو محل للأحكام الخلقية . وصفات السلوك بهذا المعنى أخص من الشخصية . إذ أن الشخصية تشمل كل صفة جسمية وعقلية سواء أ كانت محلا للأحكام الخلقية أم لا .

صفات السلوك أو الشخصية معنى من المعانى الذى يفترض وجود ذات يقوم هو بها . وتلك الذات هى مانسميه الفرد أو الشخص . فالفرد هو الموصوف الذى قام به ذلك المعنى ؛ هو ذو الشخصية ، وهو الذات المقومة للصفات . فما هى تلك الذات وما مقوماتها ؟ أهى شئ وراء الصفات أم هى هى ؟ أو هى شئ مستقر ثابت على الرغم من تغير الصفات ؟ أو هى مجموعة من الإدراكات والتصورات أم شئ آخر غيرها ؟ كل هذه مشاكل تواجه ، ولكنها ترجع فى الحقيقة إلى البحوث الميتافيزيقية ، وإن كان قد طرقها بعض علماء النفس . لذلك ندعها جانبا ، وننتقل إلى مقام بتلك الذات من صفات ، إلى صفات السلوك أو إلى الشخصية . ليست الشخصية صفة يوصف بها الفرد فحسب ، بل هى معنى يتصف به كل من الجماعة والأفراد ، ويوصف بها كذلك بعض المشروعات العامة . وإنها بعد شخصية طبيعية وقانونية .

فلنزيد من الناس شخصية تتمثل فى أفعاله وأقواله وفى كل تصرفاته ، يعنى أنه شخص متميز بنفسه فى كل ما يفعل ويقول . فهو شخص ذو مبدا وفكرة ،

وذو إرادة توجهه نحو ما يرتضى من الطرق وتحدد أفعاله وتصرفاته . فأفعاله في مجموعها مظهر لمشيئته واختياره ونتيجة لتفكيره ، وليست مجرد نتيجة لفعل البيئة فيه . وهو شخص لأنه يرى نفسه فردا له قيمته الخاصة وغرضه الخاص الذى يستعمل في سبيل تحقيقه كثيرا من الوسائل المختلفة . وهو شخص لأن فيه من المعانى ما جعل بيئته تعترف به وتعتبره فردا له استقلال ذاتي ، وليس مجرد جزء لا يتجزأ من جماعة ، وما جعلها تعترف به كغرض من الأغراض في نفسه ، وليس مجرد وسيلة لتحقيق بعض أغراض المجتمع .

ولكن يجب أن نلاحظ من أول الأمر أن الشخصية لا تتنافى مع «الاجتماعية» ، بل تساوقها وتتكون في ضمنها . فشخصية المرء وكونه اجتماعيا يسيران جنبا إلى جنب ، بل تغذى إحداهما الأخرى وتقوى منها . فالشخص الاجتماعى هو الذى يعتقد أن رغباته وحاجاته إنما تقضى عن طريق المجتمع ، وأن المجتمع من ضروريات وجوده وبقائه . وهو الذى يرى أن كمال شخصيته بل إمكان تقرر ذاته لا يكونان إلا عند كمال ما بينه وبين بيئته الاجتماعية من روابط .

ان تربية شخصية الفرد هى الغرض الذى ترمى إليه كل من الحياة الاجتماعية والميول الفردية ، فليس بينهما من تعاند فيما يرميان إليه من أغراض ، بل توافق وانسجام . فليست الجماعة إلا الأفراد في علاقتهم بعضهم ببعض . وكما أن الفرد هو الذى يجعل الجماعة ، فان الجماعة هى التى تجعل شخصية الفرد . فالشخصيات القوية فى الجماعة تقوى منها وتجعل منها جماعة ذات شأن وخطر ، كما أن الشخصيات الضعيفة تقتل من حيوية الجماعة؛ وهى داء عضال ينخر فى عظامها . وكذلك شأن الجماعات فى إيجادها الشخصيات ، فهى تخرج شخصيات تتناسب معها فى القدرة والعظمة أو فى الضعة والهوان . فالجماعة الحية المتوثبة اليقظة تخرج من

الشخصيات ما يناسبها في القوة ؛ وأما التربة الميته فلا تخرج إلا ماشاءها ، وان شذت فأحسننت في نتائجها ، فسوف لا يضارع ذلك النتائج ما خرج من بيئة صالحة . « والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خبث لا يخرج إلا نكدا » . والأمة التي استقرت فيها النظم السياسية طويلا ، وذلت لها الحالة الاقتصادية ، أوجرت على غرار واحد أمدا بعيدا ، ترى أفرادها مستقرين ثابتين على مبادئهم وآرائهم ؛ وأما غيرها من الأمم فأفرادها أتباع كل من ظهر في الأفق نجمه أو واتاه الحظ . وهذا هو السر في أن بعض الزعماء في كثير من الجماعات تنفض من حولهم الأتباع ، لا لتغير في مبادئهم ولا لسقوط أدبي في نفوسهم ، ولكن لأنه قد ظن أن نجمهم في الحكم قد أفل ، فتطلعت الأنظار إلى غيرهم ، ولو استقرت الجماعة لثبت الفرد واستقر . فصلاحيه الشخص في صلاحية الجماعة ، وليست شخصيته إلا مظهرها لقوة الجماعة ، فتنعكس أشعتها على الفرد فيظهرها . فهو مرآة أمته ، وهو مثل من أمثلتها ، ومعبر عن رغباتها ، ورمز حياتها ، وأخيرا ، هو بها وهي به .

فالشخصية إذن غرس الجماعة وعمل من أعمالها ونتيجة لتعاليمها وآدابها . فهي مكتسبة ، تنمو بالتدريج في كل أدوار الحياة ، وتبلغ ما قدر لها من كمال ، ثم تموت بموت صاحبها ، وتبقى بعد ذلك ذكرا حسنا أو مثلا سيئا في الآخرين . وهي ، وإن كانت هكذا مكتسبة ، إلا أن المواهب الطبيعية وما حلى به الفرد من صفات وراثية تلعب فيها دورا مهما . ولكن الوراثة على أي حال عامل ضمن العوامل ، وليست العامل الوحيد في تكوين الشخصية ، كما سيتبين بعد .

وكما أن للفرد شخصية ، فالجماعة أيضا شخصية أو صفات خاصة تتحلى بها .

إذ أن الأمة، في علاقتها بالأمم الأخرى، كالفرد في علاقته بالأفراد الآخرين. فلكل منها مميزات وخصائصاته التي تتجلى فيما يتصف به من عادات وتقاليد وما يعتز به من مثل عليا وتراث قديم. فهذه تتغلب فيها الروح الحربية، فتظهر فيها الطاعة العمياء لمن تثق به من قواد وزعماء؛ وهذه تتغلب فيها الدعة والهدوء؛ وهذه تعتز «بديمقراطيتها»، لأنها تمثل ما بذلت الأمة من جهود في الماضي؛ وتلك تسلس القياد لرعيمها مادام شخصا قوى العزيمة ذا فكرة إصلاحية وعقيدة ثابتة، ففقوله فصل وحكمه عدل ورأيه قاطع.

وهناك الشخصيات الاعتبارية أو القانونية. وذلك ككل الشخصيات التي تعطى لبعض المشروعات العامة أو الشركات التجارية. فيفكر في مشروع من المشروعات، وتحدد صفاته، وتعلم قوانينه وما يجب أن يكونه، أو بعبارة أخرى يوضع دستوره وقواعده المميزة له عن غيره، وبذلك يصبح ذا شخصية. ثم يظهر هذا المشروع في عالم الوجود فيعامل كما تعامل الأشخاص، فهو شخص اعتباري ذو حقوق وواجبات وعليه حقوق وواجبات.

فليست الشخصية إذن إلا مجموعة الصفات النفسية والجسمية التي يتصف بها الفرد الحقيقي أو الاعتباري، والتي تميزه عن غيره من الأفراد أو من الطبقات. وإن شئت فقل (متجاهلا الفروق الجسمية لعدم أهميتها في ذاتها في تكوين الشخصية) شخصية الفرد هي كل القوانين النفسية العامة التي تنشأ عنها أفعاله الاختيارية.

عوامل تكوينها :

هي بعينها عوامل تكوين أى صفة من صفات الإنسان النفسية أو الجسمية

وهى لذلك لاتعدو أن تكون أمراً نفسانياً فى طبيعة الشخص وتركيبه أو أمراً خارجاً عنه ، ولكنه محيط به ومؤثر فيه . ومرد الأول إلى الوراثة ، وأما الثانى فقد يكون أمراً مكتسباً ، وذلك مثل العادات التى يكونها الإنسان أو الأفعال التى يقوم بها ، وقد يكون خارجاً عن مقدور الإنسان كالبئنة . فالأمور المكونة للشخصية هى إذن الوراثة ، والبيئة وبعض النواحي المكتسبة .

(١) الوراثة :

هى عامل مهم من عوامل تكوين الشخصية ؛ ويضعها بعض علماء النفس فى الصف الأول ، ويرى أنها أكثر أهمية وأعمق أثراً فى تكوين الشخصية من كل البيئة ومن المكتسبات ؛ وذلك لأن الوراثة تعمل فى أصل نمو الكائن الحى ، وتتعلق بالذات نفسها فى حين أن البيئة إنما تعمل فى تهذيب الكائن الحى وفى تغيير سلوكه وتصرفه . فعملها يفترض عمل الوراثة ، فهى ثانوية بالنسبة إليها . ولاشك فى أن المعانى الموروثة ألصق بالنفس ، وأقرب إليها ، وأقدم فيها زمناً من المعانى المكتسبة ومن الصفات الناشئة عن فعل البيئة ، فلا بد أن يكون أثرها فى النفس أشد وأقوى . وإنه لمن المشاهد أن الابن يشبه أبويه فى صفاتهما الجسمية ، ويكون عرضة لكثير من أمراضهما الجسمية والعقلية ، وهو لحد كبير مرآة لصفاتهما النفسية . وما علم القيافة الذى اشتهرت به العرب ، وأعجب به الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقبله ، إلا مثل من أمثلة القول بالوراثة الجسمية . ولقد اعترفت السنة الصريحة بمثل هذا . فقد ثبت فى الصحيحين من حديث عائشة رضى الله عنها أنها قالت : « دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم مسروراً تبرق أسارير وجهه فقال : ألم تر أن مجززا المدلجى نظر

آثفا إلى زيد بن حارثة وأسامة بن زيد وعليهما قطيفة قد غطت رؤسهما
وبدت أقدامهما فقال إن هذه الأقدام بعضها من بعض » . ولقد قال عليه
الصلاة والسلام أيضا في ولد الملاعنة « إن جاءت به كذا وكذا فهو لهلال
ابن أمية وإن جاءت به كذا وكذا فهو لشريك بن سحاء » فلما جاءت به
على الشبه الذي رميت به قال « لولا الايمان لكان لي ولها شأن » . وهذا اعتبار
للشبه بلا مرء وقول بتوارث الصفات الجسمية ، وهو بعينه قول القافة . ولقد
فعل الصحابة رضوان الله عليهم به ، وحكموا بالنسب للتشابه ، وهو اعتراف منهم
بقانون الوراثة الجسمية . ويؤيد العلم الحديث والملاحظة هذه النظرية .

غير أنه قد يكون من التسرع في الحكم أن نعتقد أن الوراثة هي العامل
الوحيد في بناء الشخصية وأن ماعداها ليس إلا من العوامل الثانوية . فلا شك
في أن المزاج والطبيعة عاملان مهمان في تحديد أفعال الشخص وتصرفاته ، ومن
ثم في بناء شخصيته ، ولكنهما عاملان من عوامل أخرى ، وليس العاملان الوحيدين .
فالمزاج كما رأينا أهمية كبرى في بناء الشخصية ؛ ولكن قد رأينا أيضاً أن
المحدثين من علماء النفس يعتقدون أنه يمكن تغييره والتعديل منه بإجراء بعض
العمليات الجراحية على ذى المزاج ؛ فليست الأمزجة إذن طبيعة ثابتة لا يعثرها
تغير كطول الشخص وقصره . وأما « الطبيعة » وهي وظيفة ميولنا النفسية
خصوصا الغرائز وما ينشأ عنها من رغبات وبواعث ، أو هي تلك الميول نفسها ،
فإن مصدرها غير واضح ولا ندرى بالتحديد كيف تتربى هذه الرغبات والميول ؛
أهي وراثية ، أو اكتسابية أو من عمل المجتمع ؟ وانه لمن العسير علينا معرفة
من هو المسئول عن هذه الطبائع . وقد يكون تسرعاً في الحكم إذا ما عزيت
جميعها للوراثة .

ولو كان الإنسان وراثه فحسب ، ولو كان ماضياً فقط ونتيجة لتفاعل قد تم في الماضي ولا دخل للمستقبل فيه ، ولو كان عمل الغرائز فحسب ولا دخل لمجهوده الشخصي ولا لتعاليم المصلحين في تكوينه وتهذيبه ، لكان آله من الآلات الميكانيكية ، ولكان من العبث إثابته أو عقابه واعتباره مسئولاً خلقياً ، أو اجتماعياً ، أو دينياً . ولكن لا مرء في أنه مسئول وأنه شخص ، لأن له قوة بها يتغلب على قوة الوراثة . فهو شخص لأن أعماله تعبر عن استقلال ذاتي وعن اختيار وحرية في الإرادة ، وليست مظهراً أو مجرد تكرير أو تقليد ومحاكاة لما فعل الآباء والأجداد . فهو نتيجة للماضي وعمل للحاضر والمستقبل ، وهو وراثه من الآباء ، ولكن مع ذلك هو ما يريد من نفسه بما فيه من قوة وإرادة وعزيمة يكتسبها بمجهوده على مر الأيام .

(٢) البيئة :

ونعني بها كل ما يحيط بالشخص من نبات وجماد وحيوان ، أو بيئته الطبيعية والاجتماعية ، أو كل ماعدا الشخص وجاوره ، أو اتصل به من كائنات وأشياء . فبيئة كل شخص هي كل ماعداه في الوجود مما اتصل به سواء أكان ذلك الغير من فصيلته ونوعه أم من فصائل أخرى . فالبيئة على هذا طبيعية واجتماعية . فالأولى - وتشمل الإقليم والمناخ والتربة - ذات أثر فعال في تكوين شخصيات الأفراد والجماعات . فنحن نشاهد أن سكان الأقاليم المعتدلة ألطف خلقاً ، وأعدل مزاجاً ، وأوفر حصافة من سكان الأقاليم الحارة والباردة . وسكان البوادي أقوى خيالا ، وأدق ملاحظة ، وأقدر على تحمل المتاعب والصعاب من سكان المدن . وسكان الأقاليم الباردة أكثر نشاطاً وحباً للحركة من سكان الأقاليم

الحارة . وهكذا تكيف البيئة الطبيعية ذويها ، وتحليلهم بما يتناسب معها من صفات . وأما الثانية - وتشمل ما يعيش المرء فيه من عادات وقوانين ومثل عليا وما يحوطه من أفراد وجماعات ، وما يقرأ من كتب ويدرس من معلومات - فأثرها في تكوين الشخصية أقوى وأعمق من تأثير البيئة الطبيعية بحيث انها قد تطغى عليها ، فتزيل من قوة تأثيرها في الشخص . لذلك لم يكن عجباً أن نرى بعض من يقطنون الأقاليم الباردة مثلاً قد تطور في تصرفاته وسلوكه بفعل المran و بقوة التعليم حتى أصبح كمن يعيش في المناطق المعتدلة .

وبما أن بيئة كل شخص من الأشخاص تختلف عن بيئة كل من عداه ، لأن كل واحد منهم يدخل ضمن بيئة الآخرين ، فلا يمكن أن توجد بيئة واحدة للجميع ، ولذا تعددت الشخصيات . ويظهر أثر البيئة واضحاً في الطريقة التي يظهر الإنسان فيها شخصيته إلى العالم الذي يعيش فيه . فهو يفعل بكل ما يتناوله من طعام وغذاء ، وبكل ماحوله من مناخ ، وإقليم ، وجنسية ، وحالات اقتصادية واجتماعية ، وسياسية ، ودينية . وتكيف آراؤه بالبيئة العالمية وبالمثل العليا التي يوحى بها المجتمع . فالبيئة هي المركز الذي يولد فيه الطفل وينمو ، وفيه تشبع رغباته ، وعنه تتكون مثله العليا وأفكاره . ومن هذه المثل العليا ، ومن هذه الفكر ، تنشأ فينا كل الصفات النفسية التي بها تتميز عن غيرنا والتي بها تتكون شخصياتنا .

فيولد الطفل مزوداً ببعض الميول والدوافع النفسية الناشئة عن غرائزه وطبيعته . فنجد فيه « الغيرة » أو « حب المنافسة » ، وهذه ، حين عملها ، تستلزم أن الغيور أو المنافس قد رضى عن عمل من الأعمال ، واعتبره غرضاً يرجى ، أو عن شخص من الأشخاص وظنه الملجأ الوحيد الذي يمكن أن

يساعده على استخلاص مطالبه من الحياة ، أو المشبع لرغباته والمرضى لأهوائه ، فهو يغار إذا ما شورك فيه ويعمل جهده ليستحوذ عليه من دون الناس . وهناك بين الميول النفسية « التقليد » لمن رضىنا عنه من الأشخاص واعتبرناه مثلاً يحتذى وإماماً يقتدى به . ولكن المنافسة أو التقليد تفترض معنى نفسياً آخر سابقاً عليها ؛ فهي تفترض أننا قد بدأنا نميز بين الغث والسمين ، والطيب والخبيث ، وبدأنا نتعرف قيم الأشياء والأشخاص ، ونتخير منها ما نراه أكثر وفاقاً لحاجياتنا ، أو بعبارة أخرى تفترض فينا اختياراً ومشئئة . فمظاهر ميول الفرد تستلزم إذن تعرفه لقيم الأشياء ، وهذه بدورها تستلزم اختياراً . ومن هنا كانت هذه الأمور أيضاً من المعانى المكونة للشخصية التى يجب أن نلم بها ولو بنظرة عابر ، ولكنها تدخل تحت المكتسبات .

وهناك بعد ذلك كله قانون « التعويض » . فكل ما تصبو إليه نفوسنا وتتوجه نحوه ميولنا ، ثم نجده غير ممكن التحصيل من ناحية ، فاننا نبحث عنه من نواح أخرى ، ونضم إلى أنفسنا قوى أخرى لنتمكن بذلك من تحصيله . وهكذا من بين ميولنا النفسية وبيئتنا الخارجية تتكوّن صفاتنا النفسية وتنشأ كل مثلنا العليا .

٣ — المكتسبات :

ويدخل علماء النفس تحت هذا العنوان ثلاثة أنواع وهى : الفعل ، وتعرف القيم أو إدراك البواعث على الفعل ، والعادة .

(١) الفعل :

قد يبدو لأول وهلة أن الفعل هو كل ما صدر عن الكائن الحى ، أو عن

الإنسان - إذ نحن بصدد التحدث عنه - من حركات ومن إشارة ومن عبارة ، ومن كل ما يبدو منه في تفاعله مع بيئته ، سواء أكانت اختيارية أم اضطرارية . فالفعل على هذا هو كل ما بين الشخص وبيئته من علاقات ناشئة عن تفاعل بينه وبينها . فهناك من الفرد تصميم وعزم وقرار أو إرادة ؛ وهناك منه ظن وتفكير أو إدراك ؛ وهناك منه تنفيذ ناشئ عن قرار وإدراك ، وآخر ناشئ عن شهوة عمياء أو عن عمل الغريزة ؛ وهناك من البيئة حركة دائمة معارضة للفاعل أو موافقة له ، فهي مجاوبة أو معاندة . فالفعل هو العلاقة بين المرء وبين ما يعيش فيه من عالم خارجي ، وهو الذي يجعل للفرد مركزاً في الوجود ، وبه تدرك البيئة أنه موجود .

غير أن الفعل يستدعي في الواقع اختياراً ومشية . فإنا نفرق عادة بين حركة صخرة في سقوطها من شاهق وبين حركة رجل يلتقي بنفسه في اليم ، فالأولى مجرد حركة ، والثانية فعل من الأفعال . ونفرق بين من ذهب به إلى دار القضاء مصفداً بالأغلال ويقوده رجال الأمن ، وبين من ذهب إليها مشياً على الأقدام ، وطوع إرادته من غير أن تسوقه قوة أخرى خارجة عنه . فالأول ليس بفاعل ، ولو سأله القاضي « لم جئت ؟ » لكان عابثاً ، فهو لم يجيء بل جيء به ؛ وأما الثاني فهو فاعل مختار ، وكان يمكنه أن يفعل غير ما فعل ، وكان في مقدوره أن يروح وأن يجيء . فالفعل على هذا هو الحركة المرادة ، لأنه هو الذي يظهر مافي قرارة النفس من فكر ومثل عليا ، وهو الذي يبين نوع الشخص الفاعل وحقيقته ، وهو مظهره الحقيقي . وأما المضطر فليست حركته مظهراً لنفسيته وشخصيته ، ولا كنهها مظهر العوامل التي أوجدت حالة الاضطرار . وما مثل المضطر في تصرفه إلا كمثل الصخرة تسقط من عل ، فما كان منه فهو

حركة ولكنه ليس فعلا . ومن ثم فرقت القوانين كلها بين المضطر والمختار ، وبين العمد والخطأ .

فعندما نقول إن الفعل من الأمور المكتسبة المكونة للشخصية فإننا نعني به الفعل المختار أو حرية الإرادة : يعنى أن الشخص الفاعل هو المكيف لكل ما يصدر عنه من حركات ، وهو الشخص الذى تكون حركاته نتيجة لتفكير وبحث ثم قرار وتصميم ، وليست نتيجة لدوافع نفسية ووقتيية أثارها عوامل خارجية لا تلبث أن تزول بزوالها . فحرية الإرادة أو التصرف عن مشيئة ، أو القوة التى يزن المرء بها الأمور ويصل إلى قرار حاسم ناشئ عن اعتباراته وتقديره ، أمر كسبي وليس طبيعيا موهوبا . فبالخبرة والمران وبقوة التعليم توجد فينا هذه القوة وتنمو ، ويصبح الشخص قادراً على التحكم فى أفعاله وتصرفاته وليس عبداً قلباً خاضعاً لأهوائه وشهواته . وتختلف هذه القوة قوة وضعفاً فى أفراد الناس بسبب اختلاف ميولهم وطبائعهم واختلاف بيئاتهم ، واختلاف نوع مايتلقون من المعارف والعلوم ، وبحسب مقدار انتفاع كل واحد منهم بما يمر به من تجارب وحوادث . فقوى الإرادة صلبها ذو شخصية جبارة ، وهو أهل الرياسة والزعامة إلا أن يكون عنيدا . وأما ضعيف الإرادة لينها فهو قلب وسهل الانقياد وسلس القياد غير أنه قليل الثبات . وهو أهل الخضوع والخناعة . وبين هذا وذاك مراتب شتى تنتظم أوساط الناس والجمهرة منها . فلكل منهم قوة إرادته ، وله لذلك شخصيته .

(ب) تعرف القيم ، أو البواعث :

غير أن الفعل الاختيارى نفسه ، وغير أن الإرادة الإنسانية نفسها تستدعى

وجود أمور يختار منها المرء ما يراه مناسباً لمطلوبه . فلو لم يكن أمامه إلا نوع واحد من الأفعال ، أو لم يكن له إلى الفعل إلا سبيل واحد لم يكن مختاراً في الالتجاء إليه . فهو مختار ، لأنه رأى سبلاً متعددة وتخير من بينها ماظنه أكثر وفاقاً لحاجاته من غيره . ومن ثم كانت الإرادة مسبوقة بحالة نفسية أخرى ، وهى تعرف القيم .

ولتعرف القيم شأن كبير فى تكوين الشخصية وفى فهمها كذلك . فإن القيمة هى منشأ الفعل الاختيارى ومنشأ الحكم الخلقى ، لأنها الباعث على العمل ، فأنت تفعل هذا دون ذاك ، لأنك تجد فيه قيمة تحتاجها أنت أو يحتاجها من يهملك أمره . والتصرف عن باعث هو التصرف الخلقى ، وهو الفعل المراد ، بل هو الفعل نفسه . فليس الفعل هو الحركة الضرورية المتجهة نحو إيجاد غاية من الغايات كما يظن بعض الطبيعيين ، ولكنه الحركة المقصودة التى بعث عليها التفكير فى إيجاد غاية من الغايات . وليس للتصرف عن باعث من معنى إلا أن المرء قد وزن الأمور بموازينها ، وقدرها حق تقديرها ، وكون فكرة عن قيمها موجودة فى الخارج وغير موجودة فيه ، ثم رجح أحد الطرفين ، ووصل بذلك إلى قرار حاسم فيها . والعمليات الاختيارية - العمليات الناشئة عن بواعث ، هى العمليات المظهرة لحقيقة شخصية المرء ونفسيته ، لأنها تظهر نوع الدوافع إلى العمل : أهى الأنانية المحضة والمصلحة الشخصية من جلب سرور فردى أو دفع أذى عن نفسه ، أو الواجب فى نفسه ، والفضيلة للفضيلة ، أو المصلحة الاجتماعية ، أو النزعة الدينية . لذلك يوجه العلماء اهتماماً خاصاً نحو البواعث على العمل ليتعرفوا قيمة ما أوجد المرء من أعمال بل قيمة المرء نفسه ، لأن قيمته لا تعرف إلا بتصرفه وعمله ، ولا تعرف قيمة عمله إلا بقيمة الباعث

عليه . ولقد قرر الإسلام ذلك ، فيقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه » .

وكما أن الأفراد يتفاوتون تفاوتاً عظيماً في قوة الإرادة وضعفها ، فهم يتفاوتون كذلك في نوع البواعث على العمل وفي قوة تأثيرهم بتلك البواعث . ومن هنا أيضاً تعددت الشخصيات بتعدد نوع الدوافع إلى الحركة .

(ج) العادة

ولكن الحكيم جلت قدرته خلق الإنسان وجعله قادراً على أن ينتفع بماضيه وعلى أن يكون من تجاربه العقلية والجسمية قوة نفسية أو طبيعة ثانية تمكنه من التجاوب مع بيئته من غير تكلف أو تحمل صعب . وتلك هي العادة التي تجعله يتجاوب مع بيئته تجاوباً سهلاً طبيعياً منظماً وجارياً على غرار واحد . والعادة هي مجموعة من الصفات العقلية والجسمية الدائمة والتي تكونت بالتدريج ونشأت عن استعمال قوى الإنسان النفسية والجسمية . وإذا كانت العادة مجموعة من الصفات المكتسبة كانت ذات شأن يذكر في تكوين الشخصية .

كثير من أعمالنا اليومية والضرورية في الحياة ليس إلا نتيجة لفعل العادة . فالأعمال العكسية ، وتعديل عمل الغرائز وتهذيبها ، وتطور عمليات الذاكرة وتقويتها ، وإمكان النمو أو التطور العقلي للإنسان ، وبعض العمليات الحسية ، والتحكم في التصرفات العاطفية - هذه وأمثالها توجد في الفرد وتنمو بالمران حتى تصبح عادة أو طبيعة ثانية . فإذا ما تكونت كانت نتيجة كل الصفات التي يتحلى بها المرء وتميزه عن غيره أو تكون شخصيته .

وإن الأعمال العادية ، أو إن ما يكونه كل واحد منا من العادات لا يكاد يحصر عدا . وفي ذلك يقول وليام جيمز : تسع وتسعون في المائة أو تسعمائة وتسع وتسعون في الألف من أعمالنا أعمال ميكانيكية وعادية .

ليس هنالك في الوجود من شخصين متحدين تمام الاتحاد في البيئة ، وفي الوراثة وفي التجارب ، وفي التعليم ، وفي كل ما في الحياة من فرص ، لذلك لم يكن بدعا أن نرى العادات - وهي المتكونة من هذه الجزئيات - مختلفة باختلاف الأفراد، بل باختلاف الأزمنة والأمكنة عند الشخص الواحد كذلك .

ولما كانت العادة طبيعة ثانية ، ولما كانت الطريقة التي يتصرف بها المرء نحو بيئته ، كانت من العوامل المهمة في تكوين الشخصية . ويقول جيمز في هذا المقام أيضا : « لو علم الأطفال أنهم سيكونون حالا مجموعة من العادات التي تتحكم فيهم وفي تصرفاتهم لأظهروا كثيرا من الاهتمام نحو أعمالهم ، وهم لا يزالون في مقتبل العمر وفي مرحلة تكوين العادات . فنحن في تلك المرحلة من الشباب نغزل حبال قضائنا بأنفسنا حسنا كان أو سيئا ، ومن العزيز علينا أن ننقضها بعد » .

من هذه العوامل كلها تنشأ الشخصية . فالشخصية إذن هي صفاتنا النفسية العامة ، أو القانون النفسى العام المتحكم في كل أفعالنا وسلوكنا ، والناشئ بالتدريج وبالاكتساب عن بعض الحقائق النفسية وعن بعض الأمور الخارجية .

وإذا ما أردنا المقارنة بين هذه العوامل في القوة والضعف، من حيث تأثيرها في تكوين الشخصية، فإنا نضع « حرية الإرادة » المتمثلة في الفعل وفي تعرف القيم والتي تنشأ عنها العادات الاختيارية في الصف الأول ، ونرفع من شأنها

على كل العوامل الأخرى . فان الاختيار يدل على أن للمرء استقلالاً عن بيئته وعن أصوله ، وأن له ذاتية واعتباراً ؛ وأنه لذلك شخص ، وليس مجرد حلقة من الحلقات في سلسلة من الأعمال الميكانيكية التي كونتها طبيعة عمياء .

تكوينها :

تتضمن هذه العوامل السابقة كلها وتعمل في تكوين الشخصية ، فتولد وتنمو وتبلغ حداً معيناً من الكمال ، ثم تنفنى بفناء من قامت به من الدوات ، وتبقى بعده ذكراً في الآخرين .

وهناك مراحل متضمنة في تكوينها يجب أن لانفهمها على أنها مراحل متعاقبة في الوجود يتلو بعضها بعضاً ، فهي مراحل لتحليلها أكثر منها لوجودها ، لأنها كلها معانى حقيقية كامنة في النفس ومحددة بقوى أخرى حقيقية موجودة في البيئة كذلك .

يولد الطفل مزوداً ببعض القوى الطبيعية والميول النفسية . فهو يشعر بأن له قوة بها يحقق أغراضه الجسمية والعقلية ، ويجب أن تخضع لها كل القوى الأخرى الموجودة في البيئة . فهو ، بمقتضى هذه القوة الطبيعية ، يحاول أن يخضع البيئة وما فيها لأغراضه ، ويستخدمها في مصالحه .

ولكنه لا يلبث أن يشعر أن قوته هذه غير كافية بنفسها في تحقيق رغباته وآماله ، فيحاول أن يعوض هذا النقص - مافاته من قوة طبيعية - بضم بعض القوى الخارجية إلى قوته لتكون مكملة لها وعونا على إخضاع الطبيعة . وهو في الوقت نفسه حيوان اجتماعي ولد مزوداً بميول نحو الجماعة ، فيجد هذا الميل الاجتماعي من الميول الأخرى الناشئة عن الشعور بالقوة . ولكن قد تظنى

الميول الاجتماعية على الميول الفردية أو الميول الفردية على الميول الاجتماعية ، فلا يتحقق كمال الشخصية ، ولذا كان من الضروري وجود قوة أخرى ، لتضع كلا من الميول الاجتماعية والفردية في مكانها المناسب لها ، فلا تطغى ولا يطنى عليها . وتلك القوة الأخرى هى التربية والتعليم ؛ وهى القوة المنظمة للميول والأهواء . ومن ثم كانت المعانى المتضمنة فى تكوين الشخصية هى : - الشعور بالقوة والشعور بعدم الكفاية ، والشعور بالحاجة إلى جماعة ، والتعليم .

(١) الشعور بالقوة :

يولد الطفل مزودا بغريزة حب البقاء أو المحافظة على الذات ، وهذه فى نفسها قوة تدعو إلى عمل إيجابى ، فهى تدعو إلى تقرير الذات وإظهارها . فيعمل الطفل كل ما فى وسعه ليعيش وليبقى ، ويحاول أن ينفذ كل ميوله ورغباته مستعملا فى ذلك ما أوتى من قوة وجهد جسمى وعقلى . ولكنه لا يزال ضعيفا وجاهلا : فلا ينفذ من رغباته إلا بقدر ما تسمح به قوته ، وهذه محدودة لا تقدر على إخضاع الطبيعة ومواجهتها .

وهو مع ذلك لا يفهم ماحوله من أشياء ، ولا يعرف تمام المعرفة ماهى الموضوعات التى يمكن أن تساعد على النمو والبقاء ، وماهى الموضوعات التى تقف فى سبيل بقائه . فهو نحو الموضوعات جميعها ، أو على الأقل نحو جلها ، متردد لا يدري ما يفعل ؛ وإذا ما علم فعله قاصر ؛ وإذا ما حاول العمل فقوته محدودة لا تقوى على التغلب على البيئة . فهو يحاول ثم يرجع مخفقا غاضبا لأن البيئة لم تطاوعه .

ومن هذه المتضاربات - قوة تريد أن تعبر عن نفسها ، وجهل بالبيئة ، وشعور بقوتها وعزتها عليه - من هذه العوامل النفسية والخارجية يوجد عند الطفل شيء من المعرفة الإجمالية . فيعرف كيف يعبر عن نفسه ، وفي أية حالة ، وفي أى زمان ، ويعرف حين يقدم محاولاً ارضاء رغباته ، وحين يحجم كابتناً لها ومتربصاً سنوح المناسب من الظروف والفرص .

يعلم كل ذلك بنوع من الغموض والإبهام أولاً ، ثم ببعض الوضوح والجلء التدريجى ، حتى ينجلي له كثير من الحقائق . فهو يعلم ما يريد وما يريد أن يكون ، وقد يعلم كذلك كل ماحقه أن يكون ، ويعلم ما تسمح به البيئة والظروف ، ثم يعلم فى الوقت نفسه أنه لابد أن يوفق بين كل هذه المتعارضات ، ليرضى بعض ما عنده من ميول ورغبات . وهكذا تبني مثله العليا شيئاً فشيئاً ، وهكذا تتكون شخصيته شيئاً فشيئاً .

(٢) الشعور بعزم الكفاية :

ولكن الجهاد فى سبيل المحافظة على النفس وفى سبيل تقرير الذات وإظهارها مصحوب بشعور نفسى آخر ليس أقل من الأول تأصلاً فى النفس ، وهو شعور المرء بعدم إمكانه السلامة بنفسه فى عالم مملوء بالخوف ، ومملوء بقوى متعارضة يسعى كل منها للبقاء جهده ولو على حساب غيره . فهو يشعر بعدم كفايته بنفسه ، وهو لهذا يبحث عن ملجأ يأوى إليه ، وكهف حصين يركن إليه ، وقوة أخرى تساعد قوته على تنفيذ رغباته . ويجد الطفل ذلك الركن الحصين فى الأم أولاً ثم فى الأب ويتدرج منه إلى غيره . ثم يجده فيما يجمع حول نفسه من ثروات وحاشية وأصدقاء ، وما يتحلى به من صفات وعلوم ومعارف .

فمن مقارنة الطفل بين ما يريد وبين ما يمكنه أن يفعل يوجد الشعور بعدم الكفاية . وهذا الشعور نفسه عامل قوى من عوامل تنمية القوة الذاتية . فبقانون التعويض المتأصل في النفوس يحاول المرء أن يزيد من قوته الذاتية ، حين يشعر بعدم كفايتها ، بما يضم إليها من قوى أخرى خارجية قد يظنها معوضة له عن نقصه الطبيعي . فهو يحاول أن يعد نفسه ويكملها لتتغلب على كل ما يقف أمامها من عقبات ، أو لتستعملها في أغراضها الشخصية . ومن هنا جاء حب التملك وغيره من العوامل التي يظن أنها مكملة للذات . ومن ثم أيضا تعددت الشخصيات بسبب اختلاف وجهة نظرها فيما تراه مكملًا لذواتها . فهذا يرى أن المعرفة هي مكمل لما به من نقص ؛ وذلك يفضل الثراء والنعمة ؛ وهذا يفضل الخلق الكريم ؛ وذلك يفضل الجاه والسلطان ؛ وهذا يزهد الدنيا ويتخلص من المادة وعلائقها ، لأنه يراها قصيرة الأمد ، ويوجه همه إلى ما هو أطول أمدًا وأحسن شأنًا ؛ وذلك يرى غير هذا من الصفات .

فأنت ترى أن هذين العاملين - الشعور بالقوة ، والشعور بعدم الكفاية - من العوامل النفسية الموجهة نحو الذات نفسها ونحو تقويتها وتكملتها ، والتي لو تركت وشأنها ، من غير أن تهذبها قوة أخرى ، لكانت سببا في إبراز شخصيات لا يعنينا من الأمر إلا ما كان لها فيه مزية ، ولا يهمها إلا شأنها . وفي ذلك خطر عظيم على كل من المرء والمجتمع .

لهذا كان من الطبيعي أن توجد قوى أخرى مقابلة لهذه القوى النفسية ، ومعارضة لها في مرامها ، لتحد من مفعولها ولتمنعها من الظهور بشكلها الأناني . وشاعت حكمة القدير أن يزود الإنسان بقوة من هذه القوى المهدبة ، وأن تكون من المعاني النفسية التي تقارنه في الوجود ، لتكون أقدر على تنفيذ

أغراضها ، وأدعى لأن تهذب الميول الأخرى . وتلك القوى النفسية المهدبة هي الميول نحو الجماعة أو الغرائز الاجتماعية .

(٣) الشعور بالحاجة إلى جماعة

وهذا من أقوى العوامل في وضع القوى الذاتية في موضعها اللائق بها ، وحفظها في مكان مناسب . فيشعر المرء بأنه عضو في جماعة ، ويشعر بوجود شخصيات أخرى ذات مصالح ورغبات ، أو يشعر بشخصيته بين شخصيات .

يعلم الطفل بالغريزة أنه مخلوق اجتماعي . ولهذا ، وعلى الرغم من كل ما يمكن أن يكون فيه من أنانية ، فإنه لابد أن يأتي يوم يشعر فيه بأن عليه أن ينظم من أعماله وسلوكه تنظيماً يتفق وقوانين الجماعة التي يعيش بينها ، ويتفق مع حقوقها وواجباتها . فإنه إن لم يفعل ، فإنه إن تجاهل الجماعة وأهملها ، فسوف تجعله الجماعة يحس بها ، وسترغمه على أن يعترف بوجودها ، بما تفرضه عليه من عقوبات أو بما تمنعه عنه من مساعدات . وعندئذ سوف لا تقضى له حاجة أو تشبع له رغبة ، بل لا تبقى له شخصية .

إن الغرض الذي ترمى إليه ميولنا الذاتية هو تنمية الشعور فينا بقيمتنا الشخصية وتهيئة الفرص لها حتى تعبر عن نفسها في العالم الخارجي ؛ وإن شئت فقل ، هو كمال تحقيق شخصياتنا . وأما الغرض الذي ترمى إليه ميولنا الاجتماعية فهو مساعدة الآخرين في تكوين شخصياتهم وتسكيمها ، وفي تنمية الشعور فيهم بقواهم الذاتية .

وكمال الشخصية لا يكون إلا إذا أرضينا كل هذه الميول ، فأشبعنا ميولنا

الذاتية وأرضينا ميولنا الاجتماعية ، وحققنا رغباتنا بجانب تحقيق رغبات الجماعة ومطامعها . وإن شئت فقل كمال شخصية الفرد لا يتحقق إلا في كمال شخصية الجماعة ، وذلك إنما يكون بمعاملة كل فرد كغرض في نفسه وليس وسيلة لتحقيق غرض من الأغراض .

وبما أن التضامن مع البيئة الاجتماعية ، والمساهمة في أعمالها وعاداتها وتصرفاتها ، واحترام قوانينها ، والتحلّي بأخلاقها ، من الأمور الضرورية لتكوين الشخصية ، كان لزاماً على الربّي ، إذا ما أراد فلاحاً للنشأ ، أن يعلمه كل الموانع التي قد تعوقه عن أن يكون عضواً في المجتمع ، وأن يحاول أن يجنبه كثيراً من الرذائل التي قد تنشأ عن إهمال المجتمع واحتقاره ، أو عن إكباره وتقديسه . فإن التقديس من الجماعة على حساب الفرد أو من الفرد على حساب الجماعة شديد الخطر وبين الضرر في تكوين الشخصية والخلق .

فكثير من العيوب الشخصية التي يشكو منها مجتمعنا ناشئة في الحقيقة عن تقديس الأسرة وعلاقتها تقديساً ناشئاً عن عدم فهم معنى الطاعة والأدب . فالولد لا يحسن التعبير عن نفسه ، وعنده كثير من العواطف المكبوتة ، وفيه شيء من الجبن والخوف . وذلك لأنه نشأ في بيئة لا تعطى فرصة الظهور إلا لعاهلها الأكبر ، فهو لسان الجميع الناطق وقلوبهم الخافق ، يعبر عن نفسه وعنهم ويحس لنفسه ولهم ، والحق ما قال .

فتربت عند الأسرة عادة الاعتماد على الغير ، ودرجت على هذا النحو من الحياة ، وستعيش هكذا عالة على الغير في الفكر والرأي من غير أن يكون لأحدها

شخصية مستقلة . وكثيراً ما يموت أمثال هذا النوع من الأسر بموت العاهل المفكر ، إذ لا تجد شخصية تجمع شتاتها ، فتتفرق شذر مذر . وإنا لنشاهد من هذا القبيل الشيء الكثير . وما يشكو منه كثير من البلاد الغربية من انهيار في الأسرة ومن ضعف العواطف نحوها يرجع كذلك إلى سوء في فهم حرية الفرد واستقلاله . فلقد أعطى الطفل هناك من الحرية والاستقلال الفردي أكثر مما ينبغي ، فثار ، وأعطى كل الزمام في مرحلة لا يحسن فيها القيادة ، فأفلت الزمام منه ومن أسرته ، وهكذا نشأت آلامنا وآلامهم عن افراط وتفريط .

وكان خيراً من هذا وذاك أن نتوجه نحو الاعتدال ، ونتخذ طريق الرشاد والطريق السوى ، وهو دائماً طريق وسط بين رذيلتين . ومن الضروري أن يعرف الطفل قيمته الذاتية وقيمة مجتمعه الذاتية . فننمي فيه الاعتماد على النفس والشعور بالعزة والكرامة ، ولكن على وضع لا يطغى على كرامة الآخرين وعزتهم ، بل يعترف بها ويعمل متضامناً مع ميوله الاجتماعية على أن يوجد شخصاً وسطاً في تصرفاته وسلوكه؛ ومن هنا مست الحاجة في تكوين الشخصية المثلى إلى التربية والتعليم .

(٤) التعليم :

إن الرغبة في المحافظة على الذات وفي تقريرها وإظهارها أمر طبيعي لا يمكن الوقوف في سبيله أو منعه من الظهور إلا باعدام الكائن الحي . وليست مهمة التربية أن تمنع هذه الرغبة من التعبير عن نفسها ومن البحث عن إيجاد منفذ لها . ولكنها تبين خير الطرق التي يجب أن تسلكها هذه الرغبة في محاولتها التعبير عن نفسها . فليس التعليم قوة تهدف نحو قتل قوانا الطبيعية ، ولو كان يهدف

نحو ذلك لكان مصيره الاخفاق ، ولكنه يهدينا إلى سواء السبيل ويعلمنا كيف نرضى رغباتنا وكيف ننفذ ما تتطلبه ميولنا الطبيعية .

فالطريقة التنفيذية التي نظهر بها قوانا النفسية ونحقق بها رغباتنا وميولنا تتوقف إلى حد بعيد على نوع التربية العملية ، وعلى نوع التجارب التي نتلقاها في صغرنا ، وعلى نوع البيئة التي نشأنا فيها ، وعلى كل ما يحيط بنا من حقائق .

فعاطفة الأبوين وكيفية توجيهها نحو الطفل ، ونوع المعاملة التي يتلقاها الابن من أبويه تحدد شخصية الطفل . فما كان «شوبنهاور» مثلاً فيلسوفاً متشائماً وثائراً على المرأة كارهاً لها ، ومحتقراً إياها ، إلا لما لاقى من دروس قاسية من أمه . فهو لم ينل منها من العطف والحنان ما كان يرجو ، ولم يلق منها إلا شدة وعنتاً ؛ فقد كانت أشد قسوة عليه من الأعداء ، تغار منه كأنه ندمناوى . وقد قيل انها حاولت التخلص منه ، وهذا مادعاه إلى الفرار منها .

ولا شك أن شخصية تخرجت من مدرسة اليتيم ، وارتطمت بمتاعب الحياة من إبان نشوئها ، تختلف كل الاختلاف عن أخرى نشأت في كنف العز والثروة بين حنان الأم وشفقة الوالد .

وطبقة الشخص الاجتماعية مهمة أيضاً في هذا الصدد : فهذا يتخرج من المدرسة (الأرستقراطية) ، وما يتبعها من مظاهر ومراسيم ، وذلك يتخرج من مدرسة الحياة العملية وبعدها عن الخيال . ويتبين الفرق بينهما واضحاً في استجابة كل منهما للبيئة ، ولو كانت متشابهة .

وهذا قست عليه بيئته ، ولم ير منها حناناً ، فشذ عنها ، ونشأ فظاً غليظ القلب جباراً ؛ وذلك ترعرع بين أحضان الصلاح والتقوى ، فكان من النساك الزاهدين

ونوع المعلومات التي تلقن للأطفال ، ومهارة المعلمين أو جهلهم في طريقة تربية النشء ، وبرامج التعليم نفسها ، وتناسبها مع مقدرة المتعلم ومع بيئته وحاجته ، كل ذلك يحدد من سلوك الشخص ومن الكيفية التي ينفذ بها رغباته .

ولا مرأ في أن كثيرا من الشذوذ في السلوك ومن الاضطراب في الشخصية الذي يظهر في الكبر يرجع إلى الطريقة المعوجة التي تعلم بها الطفل في صغره ، وإلى المعلومات الموهشة الخاطئة التي لقنها ، وهو لا يزال على الفطرة ، في البيت أو في المدرسة .

فتتقيف البنت لتكون أما صالحة والغلام ليكون أبا طيبا من ضروريات الحياة لاجراج جيل طيب وشخصيات مستقيمة .

والأم مدرسة إذا هذبتها أخرجت شعبا طيب الأعراق واختيار المعلم بعد ذلك لتربية النشء أمر لازم إذا ما أردنا أن نبرز في الوجود منه شخصيات مثالية . فما المعلمون إلا مثل عليا تحتذى فوق ما يجب أن يكون لهم من سلطة ورقابة . فاذا ما فقدوا هذا المعنى ولم يكونوا مثلا عليا في أنفسهم - لتدهورهم الخلق أنفسهم ، أولأن الدولة ضنت عليهم بما يساعدهم على تكوين هذا المعنى في أنفسهم - زالت الثقة بين المتعلم ومربيه ، وأصبح التعليم آليا صرفا عديم الجدوى وقليل الفائدة ، بل علة من العلل ومثار قلق وفتن .

التربية الريفية :

بيد أن تعاليم الجماعة قد لا تكفي وحدها وازعا يدفع المرء لتجنب نوع معين من الحلال وفعل نوع آخر منها . وذلك لأن الفرد قد لا يرى عدالة ماذهب اليه

المجتمع من تشريع وما جرى عليه العرف من عادات وتقاليد ، فلا يخضع له إلا مجازاة للبيئة أو خوفا من سلطة القانون أو العادات والعرف ، ويرى نفسه في حل من مخالفته مادام لا يعترف به ضميره ، وما دام لم يشرع بسلطة عليا لا يجوز عليها الخطأ ؛ فإذا ما أمن طائلة العقاب خالفه وعمل بما تدعوه اليه رغباته أو بما يراه هو حقا . لذلك مست الحاجة إلى نوع آخر من التربية يقرب المبادئ الخلقية من نفوس الأفراد ويجعل الوازع يبدو لهم نفسيا أكثر منه اجتماعيا . وتلك هي التربية الدينية التي تهدف ، أول ما تهدف ، إلى تبين أن هناك قوة تعلم السرائر وما تخفى الصدور ، وتراقب المرء في جلوته وفي خلوته ، ولا تنظر إلى الصور والأشكال بل إلى القلوب والأعمال ، ولا تحكم على الأعمال بمقدار ما دخل فيها من حركات ولكن بمقدار منشآت عنه من بواعث . وبذا يعلم المرء أن عليه رقيبا لا تخفى عليه خافية ، فيدعوه هذا إلى مراقبة ذلك الرقيب والخضوع لما شرعه من قوانين . ومن ناحية أخرى ، إذا ما علم المرء أن القوانين التي يخضع لها ليست في جملتها من وضع إنسان مثله بل من وضع القدرة التي أوجدته ، والتي تعلم لذلك جميع ما يحتاجه في حاضره وفي مستقبله ، والتي لا تحابي فردا لذاته ولا جماعة لذاتها ، بل تعتبر الكل سواء - إذا ما علم المرء كل ذلك رأى شيئا من الانسجام بينه وبين تلك القوانين وخضع لها بنفس راضية وضمير مطمأن . وذلك أحد الأسباب التي تجعل رجل الدين الحق أكثر رضا بالحياة وقوانينها من غيره ، وتجعل نفسه هادئة مطمئنة .

ويحدثنا التاريخ حقا بأن الدين كان من أكبر العوامل التي ساعدت على بقاء المجتمعات ورقيها وعلى السمو بحياة كل من الأفراد والجماعات البشرية ؛ ونحن نعلم فوق ذلك أنه سيظل محتفظا بتلك المكانة مادام الإنسان . وذلك

لارتباطه الوثيق بكثير من ميول الانسان وغرائزه . فاهماله في التربية اهمال
لبعض الميول الفطرية ؛ وذلك وحده كفيلا بأن يقف حائلا دون تطور الشخصية
وبلوغها ما يرجى لها من الكمال الإنساني .

أنواعها :

حاول كثير من علماء النفس تقسيم الناس إلى طوائف وطبقات حسب
اختلاف الشخصيات ، وبذلوا كثيرا من الجهود لوضعوا قواعد تنطبق على بعض
الأفراد أو الطبقات دون بعض . ولكنهم في نظري لم يصلوا إلى الهدف الذي
يرمون إليه حتى اليوم .

إذ أنهم لم يصلوا إلا إلى نتائج عامة لاتكاد تفيدنا شيئا من الناحية العملية
وفي التطبيق على الأفراد . وليس لها من قيمة حقيقية إلا في تبين أن الناس
يختلفون في نظرهم إلى الحياة وفي الأسلوب الذي يواجهون به البيئة .

وإليك بعض ما اشتهر من هذه التقسيمات لتروا قيمتها من الناحية العملية:
(١) يرى (جنج) أن الناس ينقسمون إلى نظريين وإلى عمليين . فالأوائل
هم الذين يوجهون اهتمامهم نحو أنفسهم ونحو أحلامهم وأفكارهم ، ونحو
نظرياتهم . وهم الكتاب والفنانون والعلماء والمخترعون والشعراء والفلاسفة .

وأما العمليون فهم الذين يوجهون اهتمامهم وتفكيرهم نحو ما يحيط بهم
من أشياء وجماعات ، فيهتمون بالبيئة وما يدور فيها أكثر من اهتمامهم بأنفسهم
وأفكارهم . ومن هؤلاء البحارة وعلماء الاجتماع والعلماء المعنيون بالبحث في
طبائع البشر وعلماء السياسة إذا لم يكن مقصدهم اكتساب شهرة أو زعامة .

وإن نظرة واحدة لهذا التقسيم كفييلة بأن تبين أنه أغفل السواد الأعظم من الناس . فجمهورهم ، وهو الطبقة الوسطى ، لا تغلب فيه إحدى الناحيتين دون الأخرى ، فهو بين هذا وذاك .

(٢) ويرى (هيمن) أن الناس ينقسمون إلى من يتصف بصفات الانفعال دون الفعل « Emotive-non active » وإلى من يتصف بصفات الفعل دون الانفعال « Active-non emotive » . فالأول ينفع بحدة ، وهو سريع الغضب ومتقلب ومتسكف ومقلد ، وذو مطامع كثيرة ، وتعوزه الدقة في الملاحظة وفي العمل . وهو نساءة ، ولا يحفظ العهد ولا يفي بالوعد . وهو متطرف في سياسته ولجوج في أسئلته .

وأما الصنف الثاني فهو متشد في أعماله ، وهادئ في حركاته ، ورزين في تفكيره . وهو ذكي الفؤاد ، وقوى الجنان ، ومستقل في التفكير ، ومعتمد على النفس ، لا تعجبه الظواهر ولا يأبه بالشكل والقالب . وهو راجح الفكر صادق الوعد وطيب النفس ، ومتواضع .

وأنت ترى أن هذا التقسيم كسابقه لا ينطبق على جمهور الناس ، فليس الجمهور من هذا النوع أو ذاك ، ولكنه في الواقع شيء بين هذا وذاك . ولو كان واصفاً بذلك النوع الذي شد عن الوسط في فاعليته وشهوته ، وقسم الشخصيات إلى طبقات متفاوتة ترتفع في فاعليتها إلى النوع الأول وتنحط في شهوتها إلى النوع الآخر ، لقبّلنا وصفه . وأما ادعاء أن الناس جميعاً إما هذا أو ذاك فلا يشهد له الواقع .

وهناك نظريات أخرى غير هاتين النظريتين ، إلا أنها جميعها لا تصف إلا

ما يمكن أن يقال عنه انه الشاذ عن الوسط ، فلا حاجة بنا الآن إلى ذكرها .
وأخيرا فإن علماء النفس ، في محاولتهم وضع قوانين عامة تنطبق على كل
الأفراد ، لم يلحظوا الحقيقة الواقعة ، وهى أن الإنسان ليس آلة من الآلات
الميكانيكية ، التى يمكن أن تتسلط عليها القوة الخارجية فتتحرك على غرار واحد
وعلى نظم واحد . فالإنسان ذو إرادة واختيار ، يتصرف باختياره حسب ما يقدر
من الظروف المتغيرة والحالات المتقلبة .

ولو سلمنا أنه مجبور ، وأنه إنما يتصرف بدوافع خارجية وأمور معينة لا قبل
له بتغييرها ، فان هذه الأمور الخارجية نفسها لا يمكن أن يحدها ضابط معين .
على أن القول بالجبر إنما يسلم نظريا ، والقول بالاطراد فى التصرف والسلوك يأباه
الواقع . فالإنسان ذو الشخصية المستقرة الثابتة يثبت لحد معين ثم يتزلزل .
وقوى العزيمة والإرادة يصر لحد ما ثم يلين . والثابت يتغير والشديد يلين .
وهكذا شأن الله فى خلقه ، فهو وحده سبحانه له الثبات والكمال ، ولا يعتريه
تغير ، ولا يجوز عليه البداء ، ولا تبديل لكلمات الله . وما عداه من الكائنات
فليس لتصرفه قانون عام ثابت لا يتغير .

فكيف نرجو بعد هذا أن نضع قوانين تنتظم جماعات من هذه المتغيرات؟
وما دامت البيئات متعددة بتعدد الأفراد ، وما دامت هى عاملا مهما فى تكوين
الشخصيات ، وما دامت متغيرة بطبيعتها ودائبة التقلب ، فكيف يرجى بعد
ذلك أن توجد قواعد تضم هذه المتخالفات ؟ . قد نجدنا كلة جامعة
لجميع أفراد النوع الإنسانى وهى : « الإنسان » ، لكنها لا بد أن تكون من
العموم بحيث تكون قليلة الجدوى فى الواقع . فكما أن كلمة « إنسان » تنتظم الرابانيين

والقديسين ومن علت في الكمال الإنساني مرتبته ، وتنتظم أيضا من انحط في إنسانيته إلى مستوى الحيوان ، ولا تفيدنا من معنى سوى اشتراك هذه الطوائف في اعتدال القامة مثلا والمشي على رجلين ، كذلك قد نجد معنى عاما تشترك فيه طبقات وجماعات من الناس ، ولكنه سوف لا يدلنا على خصائص ومميزات ، وسوف لا يصل بنا إلى ما في كل فرد من أسرار ، وما يمتاز به كـشخص ذي استقلال . وتلك لعمري هي القيم الحقيقية التي ترفع هذا الشخص إلى أرقى درجات الكمال الإنساني وتنزل بذاك إلى أدنى درجاته .

فما دامت الشخصية هي الصفات الفردية التي يتحلى بها كل واحد من الأفراد ، كان من العسير علينا أن نضع قوانين عامة تنتظم طبقات متعددة من الناس ، وتنتظم مع ذلك الفروق الفردية التي يتصفون بها . بيد أننا قد نتجاهل أحيانا تلك الفروق الفردية ، وخاصة إذا لم يكن البون بينها شاسعا ، ونتحدث عن الأوساط من الناس وعن اتصافهم ببعض الصفات الخاصة ، أو نتحدث عن حد الاعتدال في الشخصية الذي يتصف به أوساط الناس ، ونعتبر ما عدا ذلك المستوى خارجا عن حد الاعتدال ، ونعتبر من اتصف به من الناس شاذا عن المستوى العادي . وقد يكون ذلك برقيه عن المستوى العادي ، وهنا تكون الشخصيات القوية ويكون الزعماء ، أو بنزوله عن المستوى العادي ، وهنا يكون ما يسمى في العرف شاذا . ومن هنا حق لنا أن نتحدث عن الزعامة وعن الشذوذ .

الشخصية والمثل العليا :

قد يكون من البين الآن من دراسة ما ذكرنا آنفا أن هناك تدرجا طبيعيا في تكون الشخصية وفي تطور الفعل الإنساني في بلوغه الكمال من الدرجات

الدنيا إلى المرتبة العليا . فتتضح الشخصية وتكمل متدرجة في الكمال من التصرف الغريزي المجرد إلى التصرف الناشئ عن الإرادة والتفكير ، والمنبعث عن المثل العليا التي كونها الشخص في ترقيه نحو الكمال . وبما أنه من المحال على المرء أن يبلغ مرحلة الشيخوخة الجسمية قبل أن يكون قد مر بمراحل الطفولة والشباب ، فكذلك من المحال بالنسبة له أن يبلغ الذروة من الكمال في الشخصية قبل أن يكون قد مر بما قبلها من مراحل . ومراحل تطور الشخصية أو مراحل الفعل المظهر للشخصية هي كما يراها مكيدوجل :

١ — مرحلة التصرف الغريزي الذي لم تهذب رقا به ، ولم تعدل من مفعوله سلطة ، اللهم إلا أن تكون سلطة الشعور النفسي : الشعور بالسرور أو الشعور بالآلم . فقد يصاحب عمل الغريزة شعور بالسرور أو بالآلم ، فيهذب من عملها في المستقبل ، كما هو الشأن في الحيوانات التي لا توجد عندها القوة التفكيرية ، وكما هو الشأن في الأطفال . ولا يكاد الأفراد يختلفون في هذا النوع من التصرف الغريزي . لأن عمل الغريزة في أفراد النوع الواحد ، واتجاهاتها عندهم ، وكيفية تنفيذ هذه الاتجاهات لا يكاد يظهر فيه تعدد أو اختلاف . ومن ثم يمكن القول بأن الأعمال الغريزية نفسها ، وخصوصا البدائية منها التي لم تهذب ، لا تختلف باختلاف الأفراد ، فلا تظهر شخصية ولا فردية ، لأن السكل فيها سواء .

٢ — مرحلة التصرف الغريزي المهذب ، وفيها تكون الدوافع الغريزية قد دخلها شيء من التهذيب والتعديل بفعل بعض القوى الخارجية كقوة الثواب أو العقاب الذي تطبقه البيئة الاجتماعية على الأفراد جزاء وفاقا لتصرفاتهم التي توافق عليها البيئة أو تعارض فيها ، وهنا يظهر نوع من الشخصية أو الفردية . ومرد ذلك إلى اختلاف طبائع الأفراد أنفسهم ، واختلاف قواهم الجسمية ، ومقدرتهم

على تحمل عقاب البيئة، واختلاف قواهم التفكيرية في محاولتهم التخلص من أحكام البيئة أو في التحايل على عادات البيئة والافلات من صرامتها . ويظهر نوع من الفردية أو الشخصية هنا أيضا بسبب اختلاف البيئات الاجتماعية واختلاف مافيه من نظم وقوانين عملية .

٣ - وأما المرحلة الثالثة فلا يكون الباعث فيها على العمل هو مايرجو المرء من ثواب أو يخشى من عقاب ، ولكن الرغبة في أن يكون محط أنظار الجميع ومحل تقديسهم وموضع اعجابهم . فهو يقدم ، ليستحق اعجابا وتقديرا ومدحا وثناء ، ويحجم حين يحجم ، لينجو من لوم اللائمين . أو بعبارة أخرى لا يكون الدافع له أملا في ثواب قانوني أو خوفا من عقاب قانوني ، ولكن غرض الشهرة وحب الذكر الجميل والثناء الطيب . وهنا تبدأ الفردية تظهر قوية ، وتتجلى الشخصية المشوبة بكثير من الأنانية . وتلك لعمري مرحلة أرقى من سابقتها ؛ وذلك لأن الباعث فيها على العمل معنى أكثر سموا من أن يكون رغبة في ثواب أو فرارا من عقاب ، غير انها لم تبلغ بعد درجة السكمال ، لأنه لاتزال هناك مرحلة يمكن أن ينبعث الفعل فيها عن دوافع أكثر سموا ونبلا ، ألا وهى المثل العليا والأفكار المجردة التى ترمى فى غايتها الى ماوراء الفرد من جماعات وشعوب .

٤ - وهنا لا يكون الدافع الى العمل أو الكف عنه وحى الغريزة المجرد ، ولا الأمل فى الاثابة أو الخوف من العقاب ، ولا الرغبة فى الشهرة أو الذكر الجميل ، أو خوف لوم اللائمين ، بل المثل العليا وما كون المرء لنفسه من مبادئ خلقية وأفكار مجردة أثناء ترقيه فى درجات السكمال . فهو يعمل مايتبين له أنه الصراط السوى ، وينفذ ما توحى به مثله ، ولا يبالى بعد ذلك

أعذله قومه أم كان محل تقديسهم وإعجابهم . فمثله مثل من يعبد الله لاطمعاً في جنته ولا خوفاً من عقابه ، ولكن لأنه الله المعبود بذاته ولذاته ، « ولو لم يخف الله لم يعصه » . ولا يبلغ هذا النوع من الكمال الإنساني إلا القلائل المعدودون . وهم أهل القيادة والزعامة ؛ وهم المثل العليا للإنسان .

الزعامة

فالزعامة ، إذن ، ليست حالة مناوئة للشخصية ، ولكنها حالة خاصة من حالاتها ، أو هي هي عندما تبلغ الشخصية حداً معيناً من الكمال النسبي ، ويتميز صاحبها عن بيئته ببعض الصفات الإنسانية . فليس كل ذي شخصية زعيماً ، وإن كانت الشخصية أساساً للزعامة ؛ فيتصف المرء ذو الشخصية بقوة سحرية باهرة تأخذ بمجامع القلوب ، فيجذب الأفراد ، ويتملك أفئدتهم بقوة بيانه وبلاغة منطقته ، ويستحوذ على قلوبهم بما أوتي من حكمة ، وبما ضرب من أمثلة عليا في التضحية ، أو بما قام به من واجبات ؛ وبذا يصير إماماً يقتدى به ، وزعيماً ومرشداً .

ولكن ليس من الشروط الضرورية في الزعيم أن يبلغ المرحلة الأخيرة من الكمال - ومن ذا الذي يبلغ النهاية في الكمال من النوع الإنساني ؟ - بل يكفيه أن يكون قد بلغ ، في الناحية التي تزعم فيها ، حداً من الكمال أرقى من الحد الذي وصل إليه أتباعه ومريدوه . فلو سبقهم في الكمال وارتقى عنهم إلى حد كبير لكانت الهوة بينه وبينهم سحيقة ؛ ولعزت عليهم مجاراته في خطاه ، إلا أن ينزل إلى ساحتهم ويتنزل إلى مستواهم ، ولكن ليس ذلك بالهين على كل أحد ؛ أو لاحتاجوا عند ذلك إلى وسطاء ورسائل يكونون حلقة الاتصال بينهم

و بين زعيمهم . وهؤلاء أحيانا مبعث خطر وفشل في الزعامة . ولكن الذي لا يمكن أن يكون هو أن يسبقه غيره ، أو أن يكون أكمل منه فيما تزعم فيه من موضوعات ، فإن زعيما هذا شأنه لا يمكن أن يفهم آمال أنصاره ومطامعهم ، وأن يحقق رغباتهم . قد يدجل هذا النوع من الناس ، فيتزعم ساعة من زمان ، ثم لا يلبث أن يفتضح أمره ، ويكون مصيره الهوان . فالزعيم الحق هو أنضج قومه تفكيراً وأقواهم شخصية ، وأقربهم إلى الكمال الإنساني . وتتطلب الزعامة الحققة من الزعيم ، مهما ارتفع شأنه عن مريديه وعلا كعبه ، أن يمشى بهم الهوينى ، ويتدرج بهم رويدا رويدا ، وأن يرتقى بهم في سلم الكمال على قدر ما يطيقون ، فإن فيهم الأعرج والضعيف ومن عميت عليه سبيل التفكير ، فلا يقفز بهم فيسقط معهم ، ولا يطيل عليهم المدى أو يكسل معهم فيملونه .

ويتفاوت الزعماء تفاوتاً بينا في هذه الناحية ، كما يتفاوتون في غيرها من النواحي . فيختلف الزعماء باختلاف مؤهلاتهم الشخصية من ناحية ، وباختلاف مقدرتهم على تنفيذ تلك المؤهلات لتطابق ما تبغيه البيئة من حاجات ورغبات ، من ناحية أخرى . فالبدوى الجلف في الصحراء زعيم أسرته أو قبيلته ، لأنه عرف ما تبغيه من مطامع ورغبات ، ولأنه قوى الشخصية مقدم ، وشجاع يقود جماعته إلى سبيل النصر والظفر في أوقات الخطر ، ويطلب بها منازل الغيث ومنابت الخضر . وهو ، بعد ذلك ، الحكم الفصل في مشكلاتها ومعضلاتها . وستالين أو لينين زعيم روسيا وقائدها ، لأنه عرف حاجات شعبه ، فعبّر عنها أحسن تعبير ، علاوة على ما تحلى به من صفات ملكت من شعبه القلوب والأرواح . وكان سعد زغلول زعيما في شعبه استطاع بشخصيته الفذة وقوة بيانته الساحرة أن

يجمع حوله جمهور الشعب ، وأن يوحد صفوفه على الرغم من عوامل التفرقة التي بذرتها في ذلك الحين قوى متعددة .

ولا شك أن وضع واحداً من هؤلاء الثلاثة مكان الآخر وضع خاطئ ، ولا بد أن يكون مصيره الإخفاق . فزعيم البيئة هو ابنها المخنك الذي نبت فيها وتغذى من لبنائها ، فحضنته طفلاً وربته يافعاً ، وخبرها وخبرته . نعم قد يوجد المتبني ، ولكن أين هو من الولد الأصيل - ولد الظهور والبطون ؟

غير أنه يجدر بنا في هذا المقام أن لا نطلق معنى الزعامة إطلاقاً ، فليس هناك اليوم فيما نعرف من بيئات وجماعات متمدينة من يمكن أن يسمى زعيماً على الإطلاق ، ومن له القيادة والإمامة في كل ناحية من نواحي الحياة الإنسانية . فالزعامة كما نعرفها اليوم محدودة غالباً بالسياسة والوطنية . وعلى الرغم من أننا نتحدث عن أنواع شتى للزعامة : فننتحدث عن زعماء للعمال ، وزعماء للأحرار أو المحافظين ، ونتحدث عن زعماء فرق ضمن نطاق الدولة ، تبغى تحسين حال الفرقة نفسها ، وعن زعماء وطنيين يتجهون نحو خدمة وطنهم ومجتمعهم بما فيه من فرق وجماعات ، وزعماء عالميين يفكرون في العالم كوطن واحد ، فإننا لا نريد بالزعامة عند الإطلاق إلا الزعامة الوطنية . فذو الشخصية القوية زعيم لأنه درس شعبه وعرف حاجاته ، وآمن بقضيته وفهمها بوضوح وجلاء ، ثم جهر بالدعوة بها ، واستعد حقاً لبذل النفس والنفيس في سبيل تحقيقها ، ثم بذل ذلك النفيس حينما دعا الداعي ولم يكن من ذلك محيص . والزعيم العالمي نفسه زعيم وطني ، لأن العالم وطنه ، أو لأنه كان في مبدا نشأته أنانياً ، ثم توجهت الميول الأنانية فيه شيئاً فشيئاً نحو البيئات متدرجة من البيئة المباشرة إلى غير

المباشرة ، حتى وصلت إلى ما وصلت إليه من عموم في مرماها : فتوجهت من الذات إلى الأسرة ثم إلى القبيلة والقرية ثم إلى الشعب ثم إلى العالم .

وإذا كانت الزعامة مسألة وطنية وجهاد في سبيل تحقيق مجد الوطن وعزه ، كان من أول واجبات الزعيم أن يجمع حوله عدداً وفيراً من الأنصار المتفانين في حبه والمعتنقين لمبادئه . وكلما قوى إيمانهم بمبادئه ، وكلما اندمجت شخصياتهم في شخصيته أو تفانت فيها ، كان ذلك أدعى للانتصار في قضيته والنجاح في مهمته . وكلما ازداد عدد الأتباع وقويت أواصر الصداقة فيما بينهم قويت شوكة الزعيم واشتدت شكيمته .

لهذا كان لزاماً على الزعيم الماهر أن يتعهد أتباعه ، فيوجد بينهم روح التجانس ، ويكون ، بقدر المستطاع ، فيما بينهم نوعاً من التحالف ، ويزيل ما بينهم من حواجز ، مبيناً أن كثيراً منها ليس في الواقع إلا من صنع الخيال ونتيجة لتعصبات موروثية قد لا يكون لها أصل يذكر . وما التآخي الذي عقده الرسول صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار إلا مثل طيب من الخنكة السياسية استنه لمن ينبغي أن يتزعم جماعات متفرقة من الناس .

ولقد ضرب مفكروننا إبان حركتنا الوطنية مثلاً رائعاً في الاهتمام بهذا الهدى المبين حينما وفقوا ، قبل أن يرفعوا علم الجهاد قويا ، بين الأكثرية وما يسمونه الأقلية ، أو بين المسامين والأقباط .

غير أنه قد يكون من الخطأ في القول ومن هدم لـكيان معنى الزعامة أن يستبيح الزعيم لنفسه أن يتنازل عن بعض مبادئه الجوهرية في سبيل تحقيق لم الشمل وجمع الشتات وتوحيد الصفوف . فإنه إن فعل فقد هدم ركنا ركينا من

عوامل الزعامة - وهو الثبات على العقيدة والإصرار على المبدأ - وعرض نفسه ، بل قضيته أيضا لأن تكون هدفا لسخر الساخرين وتلاعب اللاعبين . فان المبدأ ، إذا ماوضح كالشمس في رابعة النهار وتجلت للزعيم جلالته وأحقيته ، كان عقيدة لا تقبل مساومة ولا نقضا .

وليس معنى هذا أن الزعيم معصوم عن الخطأ ، ولا يجوز عليه التراجع في أموره أو التعديل من آرائه . فالتناس عامة مخطئون بالقوة أو بالفعل إلا من عصم الله ، وهم قلائل . والشعور بالنقص مقدمة للكمال ، والرجوع إلى الحق فضيلة . وليس المحذور على الزعيم أن يتدرج في مدارج الكمال ، فيترك ما هو خير إلى ما هو أحسن منه ، ويستبدل الذي هو خير بالذي هو أدنى ، حينما يتبين له وجه الحق . ولكن الذي يتنافى مع الزعامة هو أن يحور من جزئيات ما يراه حقا من مبادئه في سبيل تحقيق غرض من الأغراض ، ولو كان لم الشمل وتوحيد الكلمة .

فالزعيم ، إذن ، هو الفرد من الناس ذو الشخصية القاهرة الساحرة الذي يجمع حوله عددا من الأتباع والأنصار ينشد بهم غاية معينة ذات شأن حيوى لهم ولما يعيشون فيه من بيئات .

وهناك صفات شتى لا بد أن يتحلى بها الزعيم ليستحق هذا الوصف نذكر بعضا منها على سبيل المثال لا على سبيل الحصر . فهو ، فوق ما أوتى من صفات جسمية دالة على شخصية قوية - وهذه تختلف غالبا باختلاف البيئات والجماعات - لا بد أن يتحلى بصفات خلقية كريمة تعترف بها البيئة وتراها قيمة بالإجلال والتقديس ، وبصفات عقلية قوية . فهو تام الأعضاء ، وقوى التركيب والبناء ،

وجيد الفهم سريع الإدراك ، وقوى الذاكرة وحاد الذهن فطن . وهو كبير النفس على الهمة ومترفع عن كل ما يشينه أو ينقصه في نظر المجتمع ، وصادق عادل ، يفي بالعهد ويحفظ الود .

فلا بد أن يكون صاحب فكرة محدودة في كل ما تزعم فيه من مسائل ، وأن تكون فكرته من الوضوح والجلاء بحيث ينبجلى عنها كل شك وتنقشع عنها كل السحب ، وأن تكون واضحة وضوح الشمس في الضحى . فإنه لو اضطرب في رأيه ، أو تردد في موقفه ، أو غمض عليه وجه الصواب كان كالأعمى الذى يقود مثله ، أو الذى يقود من هو أرقى منه حسا في غياهب الجهالات وفي طرق وعرة لم يسلكها من قبل . فهو يضحي بنفسه وبمن يقود . وإن صح أن يعمل الإنسان في معامل التجارب الكيماوية ويجرى تجارب على العضويات وغيرها ، أو على نفسه ، أو على فرد من الأفراد ، فليس له أن يجرى تجارب على الجماعات . فإن النتائج قد تكون شديدة الضرر . وإن تجربة واحدة من هذا القبيل لكفيلة بأن تبين مرارة ما يعقبها من نتائج . فإن من يتصدر للزعامة ، قبل أن يكون فكرة واضحة عن الهدف الذى يرمى إليه ، لابد أن يتخبط بأنصاره خبط عشواء ، ويتنقل بهم هنا وهناك ، مجربا هذا الطريق وذاك من غير مرمى وعلى غير هدى . فتضيع عليه الفرص وهو لا يزال في دور البحث ، وتكمل الجهود ولم يقطع شوطا واحدا في سبيل الغاية التى ينشدها . وهو ، فوق هذا ، يعرض أنصاره لاختبارات قد لا يجتازونها ، ومتاعب نفسية قد لا يقدرון على تحملها . فالتعمية من الزعيم مقبولة ولكن بقدر ؛ وأما العمى والغباوة وعدم الوضوح الناشئ عنهما فهى صفات تتنافى مع الزعامة . فلا يلبث أتباع مثل هذا

الزعيم أن ينفضوا من حوله ، وينحازوا لجانب من هو أوضح منه رأيا ؛ ولا شك أنهم سيحاسبونه يوما ما حسابا عسيرا على ما أضاعه منهم من جهود . وهذا النوع من الناس هو « المتزعم » أو هو الدجال والمحترف .

وإذا ما وضع الرأي للزعيم ، وتبين له وجه الحق ، وعرف ما ينبغي أن يوجه إليه جهود الشعب والأنصار - وذلك يقتضى بحثا عميقا ودراسة مستفيضة وتفكيراً جيداً - كان عليه أن يؤمن به إيمانا مطلقا لا تشوبه ريبة ولا يقبل مساومة ، وأن يثبت عليه ويتمسك به تمسك المؤمن بعقيدته الدينية . فلا ينبغي به بدىلا ولا يتنازل عنه ، ولو ساقه ذلك إلى السجن والتشريد والتعذيب . والتاريخ فى جميع عصوره ملئ بكثير من الزعماء الذين لم يزددهم العسف والتشريد إلا إصرارا على مبادئهم وإيماناً بها . ولذلك خلد التاريخ أسماءهم واعتبرها مثلاً طيبة تبقى ذكرا حسنا بين الأعقاب ، وكانوا مثار احترام وإعجاب فى عصورهم وفى عصور اللاحقين .

ولا بد أن يكون ذا شخصية قوية باهرة تأخذ بقلوب كثير من الأنصار وتجذبهم نحوها ، كأنها قوة مغناطيسية تجذب ما يتصل بها من مواد حديدية . ولن يتأتى لشخص مثل ذلك السحر العجيب إلا بنوع من التربية الحقة . وهذه تتوقف على نوع البيئة الذهنية التى ينشأ فيها الزعيم ، وعلى نوع المثل العليا التى يتجه إليها أفرادها ، والعادات الأخلاقية التى يقدسونها ، والصفات الاجتماعية التى يحبونها . فتفضل هذه الجماعة الشخصيات التى امتازت بميولها الدينية وتحترم الزعماء الذين برزوا فى تلك الناحية ؛ وتفضل جماعة أخرى المغامرة والمغامرين ؛ وتفضل نائلة السياسة والسياسيين ؛ وهكذا تتطلب كل بيئة نوعا معيناً من

الصفات التي يجب أن يتحلى بها زعمائها . غير أننا قد لا نكون بعيدين عن وجه الصواب إذا قلنا إن البيئات جميعها تحب للزعيم أن يكون كبير العقل وثابا بعيد النظر وذا حنكة سياسية . ولسنا نعني بالتربية الحقبة التربوية الجامعية أو التربية المدرسية كما نعرفها ؛ فالحياة كلها مدرسة لمن أراد ولمن لم يرد ، غير أن الأول قد يكون أكثر استفادة وأسرع تخرجاً ؛ وكل ما أفاد الشخص في تجاربه ، وأوجد عنده ملكة وربى فيه قوة الخيال ، ووجهه وجهة صالحة فهو تعليم حق وتربية مثلى . وليس الزعيم الذى خرجته الصحراء وصقلته الشدة بأقل نفعاً ونهوضاً بقبيلته ومحافظة على كيانه من زعيم تخرج من أرقى البلاد تمديناً أو أعلى الجامعات ثقافة وتهذيباً .

والمقدرة العقلية المرجوة فى الزعيم هى المقدرة التى يتمكن بها من أن يرى نواحى موضوع تفكيره كلها دفعة واحدة ويفكر فيها جملة : فيقابل الواحدة منها بالأخرى ، ويرى ما يترتب على كل من نتائج ، فيزنهما بميزانها المستقيم ، ويصل بعد ذلك إلى قرار حاسم . وهذا النوع من التدبر هو أعلى مراتب التفكير العقلى ، وهو العقل الاستقرائى التأليفى .

وهناك مرحلتان من التفكير أقل تطوراً من هذه المرحلة ، وجدير أن لا يتصف بإحدهما واحد ممن تصدر للزعامة : وهما عقل الفرد الساذج وعقل المرء المغلوب على أمره بسبب خضوعه لانفعالات حادة . وهذان نوعان من العقول لا يقدران على أن يبحثا موضوع تفكيرهما إلا من ناحية واحدة ، وكثيراً ما يكون تفكيرهما فيه وحكمهما عليه ملونا بميولهما الشخصية . فهما من العقول الحرفية ضيقة الأفق ، التى ، إن توجهت نحو نواحى الموضوع المتعددة ،

لا تتوجه إليها إلا تتابعا ، لعجزها عن المقارنات الذهنية . وهما أبعد الناس عن مرا كز الزعامة . فإن أهل الزعامة الحققة هم أرباب العقل الاستقرائى ، إذ أنهم هم القادرون على أن يكونوا بأنفسهم فكراً برهانية يقينية ذات ثبات واستقرار . وأما الآخرون فمتأرجحان بين هذا وذلك ، ومستسلمان فى النهاية ، إما بالحجة المنطقية وإما بمجرد المشاركة ، لآراء ذوى العقل الاستقرائى .

ولا بد أن يكون شجاعاً مقداماً ليس بالخوف ولا الوجل . والشجاعة معنى نفسى وفضيلة بين التهور والجبن . ولسنا نغنى بها الشجاعة التى تبدو عضوية كافتحام الحروب وركوب المخاطر فحسب ، بل الشجاعة الأدبية أيضاً وما تتضمن من إقدام أدبى وثبات على المبادئ الشريفة وصدق عزيمة . وليست الشجاعة ، كما يرى إفلاطون ، إلا نوعاً من العلم ؛ فهو يعلم الخيف ومواطن الأمن ، ويعلم حين يقدم بمريده ، فيقدم ، ولا يضيع الفرص المواتية ، ويعلم حين يحجم ، فيحجم ، ولا ينزل بها مواطن التهلكة . وهو دائماً بين الصفوف بل أولها ، وأقرب أتباعه إلى العدو وأبعدهم منجاة منه . لأنه أقوى الجماعة إيماناً بقضيتها ، فلا بد أن يكون أسبقها فى النود عنها والدفاع عن كيانها .

ولقد ضرب الرسول صلى الله عليه وسلم مثلاً رائعاً فى هذا النوع من الشجاعة . فيقول على كرم الله وجهه « لقد رأيتنى يوم بدر ونحن نلوذ بالنبي صلى الله عليه وسلم وهو أقربنا إلى العدو وكان من أشد الناس يومئذ بأساً » ، ويقول أيضاً « كنا إذا احمر البأس ولقى القوم القوم اتقيننا برسول الله صلى الله عليه وسلم فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه » .

والشجاعة الأدبية تساق الثبات والمثابرة ، وتقتضى الجهر بالدعوة

والإصرار عليها . ولولا هذه الصفات ، ولولا الشجاعة الأدبية التي اتصف بها المرسلون والمصلحون والزعماء ، لما نعمنا بما ننعم به اليوم من مبادئ مستقرة وقوانين ثابتة ونظم أخلاقية ومخترعات علمية . فلا بد أن يكون الزعيم شجاعا يصدع بما يعلم ، ولا يخشى فيه لومة لائم ، ثم يجاهد متقدما صفوف الدفاع في أدق الساعات وأحرج الأزمات . والزعيم الذي لا يظهر إلا وقت الانتصار ، والزعيم الذي لا يقدم إلا حين تنجلي المعركة وينتهي النضال ، لجدير بأن يوصف بأنه دجال ومحترف ، ومغتصب لمكان ليس هو جديراً به . وحقيق به وبأمثاله أن يكونوا في الساقة ، ما دام من الضروري أن يكونوا في صفوف المجاهدين من الجماعة .

ومن هنا يتبين لنا الفرق بين الزعامة الحقة وبين الاحتراف والتدجيل . فهناك أقوام قد أعطوا قوة في البيان وحسنا ولباقة في التعبير عن أنفسهم ، وسرعة في البديهة وقوة في الخاطر . ولكن ليست لهم ضمائر قوية تردعهم أو مبادئ حية يسترشدون بها ؛ وهم في سرائر نفوسهم ، على الرغم مما يظهرون من ثبات ، قلب كالخرباء ، يلبسون لكل حالة لبوسها ، تدفعهم الأنانية وتحدهم المصلحة الشخصية . ولكنهم قد ملكوا قلوب جماعة من الأنصار ، واستحوذوا على ألسنتهم وأفئدتهم بما أوتوا من سحر البيان ، وبما كرسوا عليه جهودهم من طنطنة حول أسمائهم ومن دعايات وإشادة بما عملوا أو ورثوا من تراث ، فينخدع بهم بعض الجماهير - والجماهير أغرار - فينزلونهم منزلة التقديس والإكبار ، ويعطونهم القيادة ويسلسون لهم الزمام . ولكن لا تلبث ضمائرهم أن تخونهم ، وقرارة قلوبهم أن تظهر في أفعالهم وأقوالهم ، فيفتضح أمرهم

وتتضمن قوتهم ، ثم يموتون مودة الأشقياء الخونة . أولئك هم المنافقون حقا ، وأولئك هم أعداء الجماعة والاستقرار .

فليست الزعامة لمن يدعيها ، ولكن لمن يعمل وينتج ، ولمن يؤمن ويخلص ، ثم يجد ويجاهد . ومثل الزعيم كمثل ولي الله الذي يحدثنا عنه رجال الصوفية : « إن بدأ يتحدث عن نفسه ومواهبه وكراماته جرده الله منها وحرمه من قوى تلك المواهب » . فكذا الزعيم الحق : يتحدث عنه أعماله ، وتنبئ صفاته بزعامته ، وتتم مواهبه عنه .

وليست الزعامة مسألة دعاية ولكنها مسألة حاجة . فتشتد الأزمة مثلا وتبدو مستعصية الحلقات ، وتظن الجماعة أن لا مخرج لها من الشدة ؛ فهي في موقف تردد وشك لا تدري أتقدم أم تنكص على الأعقاب ؛ وهنا تبدو الحاجة الملحة إلى قائد ومرشد يجمع الشمل ويلم الشتات ويرسم الخطة ؛ وتلك هي الساعة التي يظهر فيها الزعيم غالبا . فيظهر من بين الجماعة في ساعات الحرج والشدة فرد ذو شخصية قوية ، متمتع بكثير من الاحترام بين ذويه ، فيأخذ الزمام ويقود الجماعة المضطربة إلى الأمام ؛ ولم تفكر فيه الجماعة من قبل ، ولم يخطر بباله أنه سيكون منقذ الجماعة وقت محنتها وحاميا . بيد أن الحاجة الاجتماعية تطلبت عملا إيجابيا فاستجاب لها ، لأنه كان أهلا لأن يجيب النداء .. فهي مسألة تشبه المسائل الاقتصادية من ناحية الطلب والعرض . فأقدم ذلك الشخص حين دعت الحاجة ، وحدد المشكلة الاجتماعية ، واقترح الحلول ، ووضع مناهج العمل وأسلوب الخلاص . فإذا بالجماعة تلتف من حوله وتصيخ إليه ، وإذا بها تناديه وتمجد منه ، وإذا بها تلتق إليه بزمام القيادة والزعامة . وإذا به يتقدم الصفوف

في أدق الساعات وأخرجها ، وإذا به يقود ويحسن ، وإذا به أكثر الناس بلاء ،
وأشدهم مراسا ، وخيرهم غناء عند الشدائد . أولئك هم الزعماء حقا ، وأولئك
هم رجال الإصلاح والعمل .

الشذوذ

قد رأينا أن الفروق الفردية في النوع الإنساني لا ترجع إلى الاختلافات
الجسمية بين الأفراد كما ترجع إلى الاختلافات العقلية والنفسية بينهم ، وأن
الشخصيات المتعددة لا تتكون إلا من هذه الفروق الفردية . ولكن ، على الرغم
من تعدد الشخصيات وتباين الأفراد في كثير من الصفات ، فإن هناك مقدارا
كبيرا من التصرف الإرادي ، بجانب التصرف الغريزي والعمل العكسي ، الذي يستوى
فيه الناس في العادة ، أو الذي يستوى فيه ، على الأقل ، ذلك النوع من الناس
الذي يعيش في بيئة واحدة ويخضع لقوانين مجتمع واحد . ويعتبر ذلك القدر
المشترك من المتصرف المستوى الطبيعي للبيئة أو للنوع الإنساني ، ويكون مخالفه
مخافيا لذلك المستوى ، أو شاذا ، أو في وضع قد يسببه شذوذا عقليا . فالشخص
الذي تخالف تصرفاته الأوضاع الطبيعية والاجتماعية للبيئة التي يعيش فيها ، أو تخالف
اتجاهاته وميوله اتجاهاتها وميولها ، قد يفقد توازنه العقلي ويكون شاذاً . وقد
يكون ذلك الشخص على حق في مخالفته البيئة ، وخاصة إذا ما كان ثائرا على
الحدود الضيقة والقوانين الجائرة التي رسمتها البيئة ؛ بيد أن إصراره على هذا
النحو من المخالفة ، وإصرار البيئة على اعتباره مخالفا ، والتعامل معه على هذا
الأساس ، قد يجعله غير قادر على الاحتفاظ بالانسجام مع البيئة التي يعيش فيها ؛
وذلك الانسجام من ضروريات الاحتفاظ بالسلامة العقلية كاملة .

فالشذوذ العقلي هو تلك الحالة النفسية التي يفقد المرء بها توازنه الاجتماعي والانسجام مع البيئة التي يعيش فيها . وهو نوع من اضطراب الشخصية يرجع إلى عوامل نفسية ينبعث بعضها عن الطبيعة نفسها ، وينبعث البعض الآخر عن عقد نقص تكونت على مر الأيام بسبب التربية الخاطئة التي يتلقاها المرء في صغره ، أو بسبب فعل المجتمع وقوانينه الصارمة .

وعلى الرغم من أن كلا من الأمراض الجسمية والعاهات ، ومن الشذوذ في كيفية تركيب الجسم ، لا يؤثر تأثيراً مباشراً على التوازن العقلي ، فانه قد يؤثر تأثيراً غير مباشر عليه ، وخاصة إذا ما كان حاداً وواضح الأثر . وكما شعر المرء بضعفه الجسمى ، وبقوة وقوف هذا الضعف في سبيل تحقيق أهدافه ، وشعر بشعور البيئة بهذا الضعف و بنتائج الحتمية ، زاد أثره النفسى وقويت عقده ، وبذا يصبح شاذاً . وكل الأشخاص الذين يختلفون عن المستوى العادى في المظهر والصورة عرضة لأن يصابوا بذلك النوع من الشذوذ . لأنهم قد يستسلمون لنوع من الوهم والخوف يجعلهم يميلون للعزلة والانفراد . وقد يؤثر ذلك في كثير من تصرفاتهم ، فيجعلهم غير قادرين ، إلا بنوع من المشقة والجهد بما يتبع ذلك من اضطراب ملموس ينم عن نفسه وعن الشذوذ ، على أن يوفقوا بين أنفسهم وبين البيئة التي يعيشون فيها . وذلك هو الشذوذ . وما الحياء عند مواجهة الناس ، وما انعدامه عند ما يقضى به الحال ، وما بعد الأصم والأخرس عن الناس ، إلا أمثلة من هذا القبيل .

لذلك كان من العسير على من يفترق عن المستوى العادى من الناس في مظهر من المظاهر أن يحتفظ بتوازنه العقلي كاملاً غير منقوص ، مادام يشعر بوجود

هذا الافتراق ، ويحس بشعور الناس به . ولكن ليس من الضروري أن ينشأ الشذوذ عن هذا الافتراق المادى ، مادام المرء قد عوض عنه بنحو من الأنحاء الأخرى التى تجعل البيئة لاتعيره اهتماما ، أو مادام ذا شخصية قوية تعطى كل ما فيها من عيوب جسمية ، وتؤمن بأن المرء بقلبه ونفسه لا بمظهره وجسمه . وأما المخالفة العقلية ، وأما المخالفة فى التصرف والاتجاه ، فيعز على المرء ، حين وجودها ، أن يظل محتفظا بالانسجام بينه وبين البيئة ، وبتوازنه الاجتماعى ؛ وكلما بعدت الشقة عز ذلك التوفيق وزاد الشذوذ .

فالانسجام مع البيئة ، والمقدرة على التكيف بالكميافيات المختلفة ، التى قد توجد فى البيئات المتغيرة ، هما من أمارات السلامة العقلية والتقدم العقلى ، ومن العوامل التى تساعد المرء على الاحتفاظ بتلك السلامة أيضا . ويتطلب ذلك الانسجام وتلك المقدرة شروطا ينبغى تحقيقها لتهيأ للمرء فرصة الاحتفاظ بمستواه العادى من الصحة العقلية والسلامة فى التفكير ؛ وقد تسمى تلك الشروط بأسس السلامة العقلية التى نذكر منها مايلى :

١ — فالأساس الأول هو أن يكون للمرء عقل يتجه إلى مايتجه إليه الرجل العادى أو الجمهور من الناس ، ويعمل كما تعمل عقول الآخرين كذلك . فإذا ماخالفها فى الاتجاه أو فى العمل كان مجافيا للوضع العادى ، وكان لذلك شاذا .

ولاشك فى أن المرء مدفوع بطبيعته للسعى فى هذا العالم ليعيش فيه ، وليكمل شخصيته بقدر المستطاع ، وليزودها بكثير من التجارب التى تساعد على تحقيق أهدافها ، وخاصة التجارب التى تسبب لها رضاء نفسيا ، وتزيد من شعورها بالسرور . وذلك هو الاتجاه الطبيعى فى الحياة ؛ وذلك هو المستوى الطبيعى

الذى ينتظر من كل فرد أن يسعى للوصول إليه . وهذا يستدعى أن يكون المرء دائماً ، أو في غالب الأحيان ، مؤملاً في المستقبل مثلاً ومتطلعاً إليه ، ولا يكون متشائماً بالنسبة إليه ، ويائساً منه ؛ وعلى هذا الأساس يتصرف الجمهور من الناس . ولكن ليس معنى هذا أن الشخص العادى لا يتشائم أبداً ، أو لا يؤمن بإحدى نظريات التشاوم ؛ فقد يؤمن الرجل العادى بما يشاء من نظريات المتشائمين ، وقد يتشائم هو نفسه ، ولكنه يستمر مع ذلك فى عمله وفى تجاربه الطبيعية ، مجاهداً فى سبيل تحقيق أغراضه ، وإن كان يؤمن بأن تحصيلها عسير . وأما المتشائمون الذين يرسمون للحياة صوراً سوداء قائمة ، ويعتقدون أنها مكان غير صالح للعيش فيه ، فإنهم يكونون شاذين ، فى اتجاههم ، عن المستوى العادى للجماعة الإنسانية ، ويزيد شذوذهم كلما كانت تصرفاتهم مظهرًا لذلك الاتجاه . وقد تحتفظ بعض الشخصيات القوية بالانسجام بينها وبين البيئة الخاصة التى تعيش فيها ، على الرغم من أنها تباينها فى الاتجاه وفى الأهداف . بيد أن المرء الذى يخالف ، فى اتجاهاته وتصرفاته ، اتجاه الرجل العادى وتصرفه فى جميع العصور والأمكنة لجدير بأن يوصف بأنه ليس عادياً ، مهما يكن موهوباً أو محبوباً . فالشخص الذى لا يهتم بمتع الدنيا وزخارفها ، ويزهد فى كل ما فيها من آباء وأبناء وأقارب وأصدقاء ، ولا يتأثر بما فيها من محن وإحزن ، ولا يعطف على الضعفاء والمعوزين ، لا يمكن أن يقال فيه إلا أن حالته هذه لا تتناسب مع السلامة العقلية للفرد العادى من بنى الإنسان .

فهناك ، إذن ، مستوى طبيعى من الاتجاه العقلى يقصده الناس بطبيعتهم ، ويعد من تجافى عنه شاذاً . وعمل العقل حين ينتجه هذا الاتجاه ، أو أى اتجاه

آخر ، ضرورى كذلك أن يكون على نحو ما تعمل العقول الأخرى ، لتحقيق السلامة العقلية المرجوة . فالمقدرة على أن تتفاهم العقول وتتخاطب من ضروريات الانسجام . والتفاهم يستدعى أداة له من لغة أو إشارة ، ويتطلب أن يكون مدلولها واضحا وواحدا عند الجميع ، أو على الأقل ، عند المتخاطبين . ولا مرء في أن كثيرا من الاضطرابات الذهنية يمكن إرجاعها إلى العجز عن هذا التفاهم ؛ وكثيرا ما يوجد الاضطراب العقلى عند الأطفال الذين لا يقدرّون على التكلم أو التعلم لسبب من الأسباب ؛ وكثيرا ما يقل شذوذ الأبكم أو الأصم في اللحظة التي يقدر فيها على التفاهم مع البيئة والاتصال العقلى بها .

وبما أن الكلمات والجمل لا تعنى مدلولاً واحداً عند العقول العادية فحسب ، بل ترتبط كذلك بنوع خاص من الكلمات والجمل ، فإن انعدام ذلك النوع من الترابط يعتبر أمانة من أمارات عدم السلامة العقلية . بيد أن ذلك النوع من عدم الترابط أقل في دلالاته على الاضطراب الذهني من استعمال جمل تدل على معان لا يرتبط بعضها ببعض . فالشخص الذي يشذ في تلك الناحية ، والشخص الذي لا يتأثر في نواحي تفكيره بما يتأثر به الآخرون ، ويكون في منطقته مخالفاً لمنطق الآخرين ، لا يمكن أن يحتفظ بمستواه العادى من التفكير طويلاً . والشخص الذي لا يرى وجهة نظر الآخرين ، ويرفض أن يفكر فيما ذهب إليه الآخرون أو يضعه موضع الاعتبار ، حين يعارضونه في نتائج منطقته ، وقد كان لهم من الفرص والظروف ما يؤهلهم لأن يعرفوا ما عرف ، ويصلوا إلى النتائج التي وصل إليها ، يكون من هذا القبيل .

٢ — والاستجابة العاطفية والانفعالية ، أو الاستجابة للبيئة في الحركات

الإرادية وفي الانفعال على النحو العادى ، من ضروريات الاحتفاظ بالسلامة العقلية أيضا . فالشخص الذى لا ينفعل أبدا ، أو لا يتأثر إلا قليلا بحالات تثير فى العادة حزنا أو خوفا أو أى نوع آخر من أنواع الانفعال الحاد ، فانه يكون شخصا شاذا فى طبيعته ، أو شاذا فى اللحظة التى لم ينفعل فيها ، لسبب من الأسباب . وكذا الشأن بالنسبة للشخص الذى ينفعل بشدة عند وجود دواعى لا تقتضى ذلك النوع من الانفعال فى العادة . ولا شك فى أن ذلك النوع من عدم التأثر بالمثيرات الخارجية أو التأثر بها تأثرا لا يتناسب معها لا يستلزم فى نفسه شذوذا ، ما دام شيئا موقتا ؛ غير أن الأفراد الذين يعجزون عن التحكم فى ذلك النوع من الانفعال أو عدمه لجديرون بأن يصبحوا يوما ما من الشواذ حقا .

وليس هذا صحيحا بالنسبة للمثير الخارجى فحسب ، بل هو صحيح أيضا بالنسبة للمثيرات النفسية - مثيرات الذاكرة والخيال . فيتأثر الشخص العادى بما يتذكره عن الماضى وبما يتخيله عن المستقبل أو يؤمله فيه ، كما يتأثر بحقائق اللحظة الحاضرة . وأما الشخص الذى يعيش على الحاضر فحسب ، أو الماضى فحسب ، أو المستقبل فحسب ، فجدير بالإخفاق ، و بالعجز عن مواجهة الحاضر . إذ أن الذى يتطلب الحركة الفعلية هو اللحظة الحاضرة ؛ وتستدعى الحركة الفعلية ، لتكون موفقة ومؤدية الغرض منها ، استحضار الماضى والانتفاع بما فيه من تجارب وعبر ، وتخيل المستقبل وربطه بالحاضر والماضى . وقد يقال ، إن الشخص الذى لا يتأثر إلا بالحاضر قد يظل محتفظا بالمستوى العادى من التوازن الاجتماعى ، وصحيح العقل سليم التفكير ، ولكنه قد يرتكب كثيرا من الأخطاء ، فى حين أن الشخص الذى يوجه اهتمامه إلى الماضى : فى معنى « بكننت وكان » ، أو إلى المستقبل

فيعنى بالأمانى والأحلام ، لا يعمل أبدا ، وبذا يعجز عن أن يوجد الانسجام بينه وبين البيئة . وذلك حق في الحالين ، بيد أن الأول ، وهو الذى يعنى باللحظة الحاضرة فحسب ، قد تجره أخطاؤه الكثيرة ، وخاصة ما كان منها موجها نحو البيئة ، إلى ذلك النوع من عدم الانسجام بينه وبينها ، وذلك هو الشذوذ . فيكون مصيره فى النهاية مصير الآخر .

٣ — وإرضاء بعض الغرائز من ضروريات هذا النوع من الاتزان العقلى أيضا . فالغريزة الاجتماعية تتطلب أن يكون المرء فى جماعة وأن يشعر بوجوده بينها . وكثيرا ما أدى انعدام ذلك الشعور إلى اضطراب ذهنى أو إلى حالات حادة من الجنون . فكثير من الأشخاص يغدون مجانين إذا ما وضعوا مدة طويلة فى منعزل من الناس . ولا شك أن هناك أشخاصا يقدرّون على أن يعيشوا فى مثل هذه العزلة محتفظين بتوازنهم العقلى ، ما داموا قادرين على أن يعيشوا فى مجتمع ذهنى . ولكن إلى متى ؟ قد لا يكون الأمد طويلا . وإرضاء الغريزة الجنسية ، وكذا الغرائز الأخرى ، وخاصة ما تعلق منها بالمحافظة على بقاء الشخص أو بقاء النوع ، من ضروريات السلامة من الاضطراب الذهنى كذلك . ولا ينبغي أن يعزب عن بالنا فى هذا المقام ما ذهب إليه فرويد من أن العقد النفسية التى تسبب كلا من الاضطراب الذهنى والعصبى ترجع كلها إلى كبت فى مقتضيات تلك الغريزة الجنسية ، وإن كنا لا نوافقه على هذا التحديد الضيق .

٤ — والنجاح فى الحركة وفى الجهود كفىل أيضا بأن يؤدى إلى التوازن العقلى . والنجاح هو الوصول ، بعد الجهد والحركة ، إلى الغاية التى يرغب فيها

المرء ويرتقبها ، أو هو تحول كل من الرغبة والخيال إلى حقيقة . وليس من الضروري في تجنب أسباب الاضطراب الذهني أن يكون المرء ناجحا في جميع حالاته ؛ فالنجاح المطرد نفسه ، والنجاح الذي يزيد عن المترقب ، قد يؤديان إلى الاضطراب الذهني . ولكن المهم هو أن يعتبر المرء نفسه ناجحا في الوصول إلى غاية تبدو له مساوية للغاية التي وصل إليها بعض الناس الذين يقارنهم بنفسه ، أو إلى ما هو أسمى منها . فالإخفاق المستمر قمين بأن يوجد كثيرا من الاضطراب الذهني ، وبأن يكون عند المرء تلك النظرة التشاؤمية التي تؤدي غالبا إلى الانتحار . وأما النجاح المعتدل فهو الجدير بالاعتدال الذهني وبالشخصية المتزنة . ولسنا نغني بالنجاح النجاح المادي فحسب بل الأدبي كذلك . فكل ما يشعر المرء بأنه نافع في المجتمع ومرغوب في بقائه فإنه يعتبره نجاحا مشجعا على الاستمرار في العمل وفي خدمة المجتمع . ولا شك أن كل امرئ يحب بطبيعته أن يعترف الناس بأن وجوده ضروري وبأنه نافع ومرغوب فيه ، يستوى في ذلك الكبار والصغار ، وكبار العقول وصغارها حتى المجانين من الناس . ومن غير ذلك الاعتراف ، يعز على المرء أن يحتفظ بتوازنه العقلي . وكثيرا ما نجد أشخاصا يحاولون إرغام الناس على أن يعترفوا بهم بشتى الطرق ، وعلى أن يوجهوا انتباههم إليهم ، ولو أدى ذلك إلى الإضرار بهم . وليس الطالب الذي عجز عن مجارة إخوانه من الطلاب في الحياة العلمية ، فشا كس المدرس أو الطالب ليوجه إليه الأنظار ، إلا مثلا من هذا النوع .

غير أن النجاح الأدبي لا يوجد دائما ما يؤكد حصوله أو يبين مقداره . وذلك لأنه يختلف باختلاف الاعتبار . فقد يعتبر المرء نفسه ناجحا وتعتبره البيئة

محققا ، وقد يكون الأمر بالعكس . وكذا الشأن بالنسبة لكثير من حالات النجاح العضوى . فقد يكون أقل نجاح يحرزه الطفل أكثر سموا وأعلى قيمة فى نظره من نجاح « اديسون » أو غيره من العلماء . وقد يعتبر النابغة نفسه محققا بالوصول إلى بعض الأهداف التى تعتبر البيئة الوصول إليها نجاحا كبيرا . ومرد ذلك كله إلى نظرة الأشخاص لأنفسهم ولما ينتجون .

يتجه جمهور الناس عادة إلى المبالغة فى تقدير شخصياتهم وأعمالهم . والذى يحدد من ذلك الاتجاه فى الفرد العادى هو نتائج الموضوعية وآراء أقرانه فيها . وذلك النوع المحدد من الاتجاه هو الذى يكون عادة ذلك المستوى العادى ، الذى يهيء للمرء فرصة الاحتفاظ بسلامته العقلية . وأما الأشخاص الذين يعيشون مع من هم أقل منهم مقدرة وموهبة ، وتقدر أعمالهم بمثل هذه البيئة ، فانهم قد يتربى عندهم ملكة الغرور والاعتداد بالنفس إلى حد تأباه الطبيعة الإنسانية ، ويؤدى ذلك إلى الشذوذ . والأشخاص الذين يعيشون مع من هم أعلى منهم مقدرة ، وتقدر أعمالهم بمثل هؤلاء ، فانهم قد يتربى عندهم الشعور بالضعف والنقص ، ويؤدى ذلك إلى الشذوذ .

وأما الشخص الذى يعيش وسط مجموعة من الناس تتكون من أمثاله ومن هم أرقى منه حسا وأعظم شأنا ومن هم أقل منه فى ذلك ، وتقدر أعماله بأمثال هذا المجموع ، فانه هو الشخص الذى هيئت له السبل ، من تلك الناحية ، التى تساعد على الاحتفاظ بسلامته العقلية . لأنه ، فى تلك الحالة ، يجرب كلا من الرياسة والخضوع والزمالة ، ويوفق بين نفسه وبين تلك الحالات المختلفة . وذلك حقيق بأن يوجد اتزاناً عقلياً ونوعاً معتدلاً من الشخصية ، لا تغلب فيه

نزعات الأنانية أو نزعات التضحية . فالتوازن العقلي هو في التوازن بين تقدير المرء لنفسه وتقدير البيئة له . وأما الاعتماد على تقدير البيئة فحسب أو تقدير النفس فحسب فذلك نوع من التطرف الذي يؤدي إلى الشذوذ .

أسباب :

١ — لا ينشأ كثير من حالات الشذوذ العقلي إلا عن تجنب ذلك النوع من المقارنة بين المثل العليا وما تحقق منها ، أو بينها وبين ممكن التحقيق منها ، مقارنة ناشئة عن تقدير المرء لقيمتها وتقدير البيئة التي يعيش فيها لها . فقد يعتمد المرء اعتمادا كبيرا على تقدير البيئة ، ويمتنع عن القيام ببعض الأعمال الإيجابية ، مالم يتأكد أن نتيجتها ستكون خيرا له ، وأن الجماعة ستقدسه من أجلها . وبما أن ذلك النوع من التأكد عسير الحصول عادة ، فسيظل هذا الشخص في حالة سلبية ، عائشا في جو من الأحلام وفي حياة خيالية ، ينتج فيها الكثير بالمجهود القليل ، ويعيش على كثير من الفروض كذلك قائلا : انه يقدر أن يفعل لو كان كيت وكيت ، وأن ينجح لو كان الأمر كذا وكذا ، أو لو كان له من الأمر شيء ورتب المسائل على وضع خاص لكان النجاح حليفه . فهو يعيش على ذلك النوع من الحياة الفرضية متجنباً ، بقدر المستطاع ، الحياة الواقعية التي يتمكن الناس فيها بسهولة من الحكم على نتائجهم وتعرف مقدار نجاحه أو إخفاقه . وكل الأشخاص الذين يركزون انتباههم وتفكيرهم حول أنفسهم ، لاحول الموضوعات التي تحيط بهم ، متعرضون لهذا النوع من الشذوذ .

وأما الأشخاص الذين يركزون انتباههم حول الموضوعات المحيطة بهم قبل أن تكون حول أنفسهم لا يصابون بمثل هذا النوع من الشذوذ . فهم عمليون ،

ومعنيون بمقارنة النتائج مقارنة موضوعية لادخل للأشخاص فيها . فيقارنون نتائجهم بعضها ببعض ، ثم يقارنون بين نتائجهم ونتائج غيرهم مقارنة ذاتية . وبذا تتكون عندهم المقدرة العملية ، لكثرة تجاربهم ، على إيجاد ما يبعثون إيجاده . ولكنهم قد يصابون بنوع آخر من الشذوذ الناشئ عن تجنب النظريات والمثل العليا .

وأما الشخص المتزن فهو بين هذا وذاك ؛ وهو نظري وعملى معا ، أو هو مثالى وواقعى ؛ وذلك هو المستوى الصالح الذى ينبغى أن ندرب عليه أبناءنا من الصغر حتى لا يشبوا متطرفين فى إحدى الناحيتين ، فتضطرب أذهانهم ، ويختل توازنهم .

٢ — وهناك سبب آخر للشذوذ ، وهو عدم المقدرة على أن يوفق المرء بين شعوره النفسى وتصرفاته ، من ناحية ، وبين الحوادث الصغيرة التى تتكرر كل يوم بل كل ساعة ، والتى لا يمكن عادة تجنبها ، من ناحية أخرى . فقد يغتاض بعض الناس ويتهيج من صرير الباب ساعة اشتداد الرياح ، أو من عدم الدقة الرياضية فى محافظة أصدقائه على مواعيد المقابلة ، فيؤلمه أن يتخلف صديقه بعض اللحظات ؛ وينفعل كل هذا الانفعال من غير أن يتقدم بعمل إيجابى ، نحو هذا المثير ، فيحاول إيقاف حركة الباب أو تغيير اتجاهه نحوها . كل ذلك يؤدى إلى شذوذ . وذلك لأن الانفعال والألم أمارتان — كما رأينا فى الحياة الوجدانية — على أن المرء أو العضو محقق فى مهمته وليس بناجح ؛ والاختفاق أحد الأسباب المؤدية إلى الشذوذ .

فلا بد للمرء من أن يحاول أن يغير من وضع المثيرات الخارجية ويجعلها على

نحو لا يثير انفعالاته ، أو أن يغير اتجاهاته نحوها ، أو أن يبقى متغيظا مهتماجا وغير ناجح في إخضاع البيئة له . ولكل واحدة من هاته الحالات أثرها الإيجابي والسلبى ، وقد يكون من الخير فعل هذه بعينها منها ، أو تلك . بيد أنه ينبغى أن يلاحظ أن الشخص الذى يحاول تغيير كل شيء والتحكم الكلى فى البيئة يخفق كثيراً ، وأن الشخص الذى يمرن نفسه تمرينا يمنعه من أن يتأثر بالمثيرات الخارجية وينفعل بها يصبح عديم الجدوى كإنسان ذى قيمة اجتماعية . فليس من الممكن دائماً التحكم فى الموضوعات الخارجية ، وخاصة إذا كانت من النوع الإنسانى ، أو كانت تمت إليه بصلة متينة ، وليس من الخير ، بل ليس من الممكن أحياناً ، التحكم الكلى فى الاتجاهات والميول . فقدر من هذا وقدر من ذلك ضروريان لوجود الانسجام ووجود الشخصيات المترنة .

(٣) عقر النقص :

وقد يعتبر الموضوع ناقصاً إن لم نشر إلى عقد النقص كسبب من الأسباب الهامة التى ينشأ عنها الشذوذ فى التصرف والاضطراب ذهنى والعصبى . وقد تكون هى نفسها من العوامل المهمة التى عاقت المرء عن تجنب مقارنة المثل العليا الذى تحدثنا عنه آنفاً ، وأدت به إلى أن ينفعل ويتهيج للأسباب التى لا يحتاج منها المرء عادة ، والتى تحدثنا عنها آنفاً كذلك . لذلك رأينا التحدث عنها بإيجاز . ولكن ينبغى أولاً أن نفرق بين الشعور بالنقص الكامن فى نفس كل إنسان وبين عقد النقص التى نتحدث عنها ونعتبرها مرضاً يجب علاجه . فالشعور بالنقص هو تلك الحالة النفسية التى يحس بها المرء عندما يتصل بالحياة الخارجية ويراها أقوى منه وأكبر من أن تخضع له . فيحاول الطفل أخذ

موضوع من الموضوعات، فيمنعه طفل آخر أقوى منه ، أو يعجز هو عن حمله .
وبذا يحس بعجز وضعف ، فيحاول ، بقانون التعويض الكامن في نفسه ،
أن يضم بعض القوى والعناصر إلى قوته ، ليقدر على تنفيذ رغباته ، ويستعمل
كثيراً من الحيل والأساليب ، ويتعلم ، ويجمع حوله الأصدقاء والأعوان ، ويبني
البيوت ويجمع الأموال ، ليعوض عن نقصه الطبيعي . فهو نوع من الشعور
الضروري في الحياة ؛ وهو من ضروريات التقدم والتطور كذلك ؛ وهو الذي
يقال فيه « ان الشعور بالنقص مقدمة الكمال » . فهو فضيلة إنسانية ، لأن
الإنسان بطبيعته في حاجة دائمة إلى الرقي ، ولا تقف مثله العليا عند حد ، بل كلما
بلغ مرحلة من مراحل الكمال تصور ما هو أعلى منها ؛ وكلما أشبع رغبة تجددت
رغبات . ولكنه ليس مرضاً من الأمراض التي يجب أن تعالج ، مادام ، كغيره
من الميول الإنسانية ، لم يتجاوز حد الاعتدال .

وأما عقد النقص فانا نعني بها شيئاً وراء هذا ؛ فنعني بها تلك الأمراض
النفسية ، التي قد لا يحس بها المرء ، على الرغم من وجودها وتكييفها لكثير
من أعماله ، والتي تجعله يحس بأنه عاجز عن أن يكيف نفسه وأعماله تكييفاً
يتناسب مع بيئته . أو هي تلك الأعراض النفسية ، التي تجعل المرء يفقد ثقته
بنفسه لشعوره بالعجز عن مواجهة تكاليف الحياة ، والتي قد تدفعه لأن يقوم
ببعض الحركات التي لا يجد لها مبرراً في حياته العادية .

فهى ، إذن ، من الأمراض النفسية التي تصيب بعض الناس لسبب من
الأسباب ، وليست من الحالات الطبيعية التي لا بد أن توجد عند كل إنسان ،
كالشعور بالنقص . ولكن لامرأ في أن الشعور بالنقص مرحلة من مراحل

تكوينها . وأخص خصائص من أصابته عقد النقص هو ذلك الشعور العنيف والإحساس الحاد بالذات وبصلتها بالمجتمع . فتراه معنيا بآراء الناس فيه وبأحكامهم عليه وبتقديرهم لقيمتة عناية تنعص عليه حياته وتباعد في النهاية بينه وبين المجتمع .

وترجع عقد النقص كلها إلى الإخفاق والخيبة في الحياة . ولا شك أن كثيرا منها قد يتيأ له من الأسباب ما يجعله يأخذ في التكوين منذ الطفولة المبكرة . وذلك لأن الطفل يولد مزودا بكثير من النزعات الفطرية والميول الموروثة التي لم تخضع لتهديب أو تعديل . ولا شك في أن كثيرا منها لا يتفق في مطالبه مع مقتضيات المدنية وقوانين الجماعة . وهنا يبدأ شيء من الكفاح ، الذي لا بد أن تنجح فيه الجماعة أخيرا ، لأنها أقوى من الفرد . وبذا يخفق الفرد ، ويرى لزاما عليه أن ينسى تلك الدوافع الفطرية أو يطردها من ذهنه . ولكنها لا تزال به بعد ذلك ، بل تطاوعه ، فتتطرد من العقل الشعورى فحسب ، وتذهب إلى بؤرة اللاشعور أو إلى العقل اللاشعورى ، وتكمن هناك مكيهة لأعمال المرء ولا اتجاهاته ، وتظل هناك حتى تحدث حالة يراها ذلك العقل مرتبطة بمقتضيات تلك العقدة ، فيظهر أثرها في تصرف المرء وحركاته بشكل معوج وطريق ملتوية ، ينشأ عنها اضطراب في الشخصية واضطراب ذهنى وإخفاق عام في الحياة .

وكما زاد ضغط المجتمع ، وتطرفت الميول الفردية ، ازدادت عقد النقص وازداد الشذوذ واضطراب الشخصية . غير أنه ليس من الضروري أن يكون ذلك الكفاح المسبب للشذوذ كفاحا بين الميول الفطرية وقوة الجماعة فحسب ، بل يجوز أن يكون كفاحا ذاتيا ونفسانيا ، وخصوصا عند الكبار ذوى الشخصيات القوية والمثل

العليا . وتلك حقيقة واقعة . فتسعى القوى الفطرية لتعبر عن نفسها عن طريق الذات ، ولكن الذات تعارضها أو تفرض عليها بعض القيود ، وهذا الكفاح نفسه لاشعورى . فتتعدل النزعات اللاشعورية ، بفعل هذا الكفاح ، تعديلا لاشعوريا ، فى الشخص المتزن ، ثم تحول إلى أعمال شعورية . ولكنها تستمر فى حياتها الخاصة بها متعارضة مع بقية النفس من غير تعديل أو تحول فى الشخص الذى يقال فيه انه مصاب بعقد من النقص . وذلك هو اللاشعور المكبوت . وتلك هى عقدة النقص التى تسبب كثيرا من الشرور والآلام النفسية والاجتماعية .

من هذا يتبين أن الكفاح اللاشعورى بين النزعات بعضها وبعض الذى يقول به علماء النفس يشبه ذلك النضال النفسى بين قوى الخير والشر فى الإنسان الذى يقول به رجال الدين ، والنضال بين الضمير ودواعى الهوى والشهوة ، عند من يقول بوجود قوة تسمى الضمير من علماء الأخلاق . فيتفق علماء النفس ورجال الدين والأخلاق على أن قوى الشر ليست هى المتحكمة فى النفس فحسب ، بل هناك فى النفس عوامل تدفعها إلى ناحية الأنانية والمصالح الشخصية وأخرى تدفعها إلى ناحية الخير العام . ومهمة التربية والأديان أن تناهض بعض الدوافع حتى يتغلب الخير على الشر فى الإنسان وفى الجماعة الإنسانية .

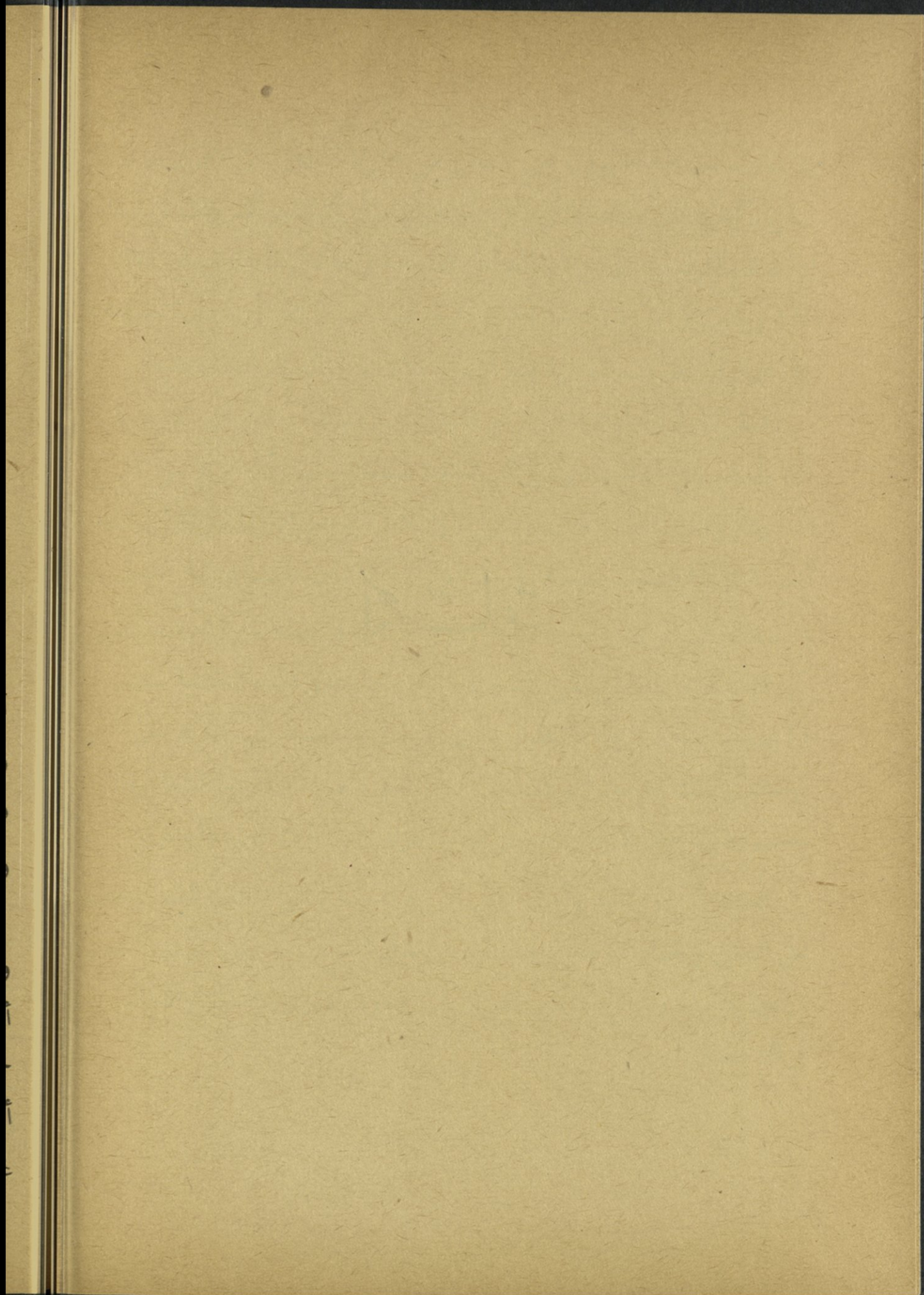
وفى ختام هذا الموضوع نقول انه ليس المهم فى تكوين الشخصية المتزنة أن توجد لدينا أسباب الشذوذ المادية ، أو عوامل النقص الناشئة عن ضعف وعجز ، أولا توجد ، ولكن المهم هو نظرتنا إليها ومقدار تحكمنا فيها أو خضوعنا لمطالبها ؛ وذلك هو الذى يحدد أثرها فىنا . فإذا ما واجهناها بحزم وعزم ، ولم نعتبرها

إلا مدعاة لمضاعفة الجهود ، حتى تتمكن من مجاراة البيئة وسبق الأقران ، فإنها تكون كفيلة بأن تساعدنا على بلوغ الغاية والوصول إلى أسمى الدرجات . ولكن إذا ماناء الفرد بها ، وظن أن العوامل الطبيعية والعوامل الاجتماعية تكالبت عليه ووقفت في طريق نجاحه ، فانه يكون قد ساعد البيئة التي تعمل لاختضاعه ، وأضاف إلى الضربات الموجهة إليه الضربة الأخيرة الكفيلة بالقضاء عليه .

فنظرنا إلى الحياة ، على الرغم مما يقال عن طبائعنا ، هي التي توجد فينا أى مقدار من الشدوذ ، وهي التي تعالجنا عندما نصاب بأى نوع من أنواع الشدوذ . وقد يساعدنا المحلل النفسى ، ولكنه لا ينجح إلا إذا حاولنا أن ننقد أنفسنا أولا ؛ وليست مهمته فى الواقع إلا اكتشاف سبب هذا الضعف . وعندما يفطن المريض لسبب ضعفه ، ويراه تافها فى نفسه ، وكثيرا ما يكون كذلك ، فانه يتخلص من الضعف نفسه ، وتنحل عقده النفسية بنفسها . وكثيرا ما نتبين ، بعد التحليل ، أن نظرنا الشخصية إلى الحياة هي التي أوقعتنا فى ذلك الشدوذ ، وأدت إلى ذلك النوع من الملائخوليا التشاؤمية التي جعلت الحياة جحما لا يطاق ، وأن نظرة أخرى إليها كانت أولى وأجدر .

لذلك أكرر ثانيا وأقول : إن التربية الدينية ، التي تتطلب العمل وتحث على السعى والجهد ، وتطلب بعد ذلك أن تقبل النتائج ، أيا كان نوعها ، بصبر وإيمان لا بهلع وجزع ، من ضروريات وجود الاتزان العقلى والاعتدال فى الشخصية .

الجماعة



الجماعة

قد علمنا أن الشخصية وما يتبعها ليست إلا أثراً لعوامل نفسية في طبيعة الشخص وتركيبه ولعوامل خارجية ، وأن العوامل النفسية يمكن إرجاع قسط وافر منها إلى العوامل الخارجية . وما العوامل الخارجية إلا البيئة بجميع أنواعها وخاصة الاجتماعية منها . فالبيئة في النوع الإنساني المكيفة لأعماله واتجاهاته اجتماعية إلى حد كبير : فالبيئة الاجتماعية أكبر أثراً وأعظم شأنًا في تحديد سلوك المرء وتصرفه وفي تكوين شخصيته من البيئة الطبيعية ، أو أن أثر هذه البيئة الأخيرة في السلوك يكاد يكون معدوماً بالنسبة للأولى في الإنسان المتمدين ، وخاصة بعد أن تمكن من إخضاع البيئة الطبيعية لارادته إلى حد كبير . والشخصية الإنسانية مظهر لتلك البيئة الاجتماعية الحاضر منها والغابر . إذ أن البيئة الغابرة أثرت في الآباء والأجداد ، ونحن نمرتهم ، وأثرت في تكوين عادات الجماعة ونظمها وقوانين السلوك فيها ؛ وما عاداتها ونظمها إلا عادات لنا وقوانين نخضع لها ، فلا تلبث أن تصبح ملكة فينا وصفات لازمة لنا لا نقدر على التغلب عليها بسهولة ، وتغدو كأنها طبيعة من الطبائع .

على أن التفاعل موجود من الجانبين ، فتوجد الجماعات الشخصيات المختلفة ، وتكون الشخصيات الجماعات . والغرائز الفردية والميول العقلية نفسها ذات أثر كبير في تكوين الجماعات وفي تطورها ، فالغرائز الجنسية نفسها تتطلب جماعة ، ولا يمكن أن تشبع إلا في الجماعات ؛ وغرائز الأبوة والأمومة تتجاوز في أثرها الأولاد والأسرة ، وتجد ما يشبعها فيما وراء ذلك من قبائل وأمم ؛ وتساعد غريزة الغضب على بقاء الجماعات وعلى رقيها ؛ وما العقاب والثواب الاجتماعيان ،

وما الغضب عند مخالفة القوانين الخلقية الضرورية لبقاء الجماعة ولرفاهيتها واستقرارها ، إلا أثر لتلك الغريزة ؛ وتعمل غرائز المنافسة في الانسان على النهوض بالجماعة إقتصاديا وأديبا ؛ وتعمل الغرائز الاجتماعية على تحديد بناء الجماعة وتقويته ؛ والمقدرة على النطق والتفكير وحدها كفيلة بأن تبين مدى حاجة الفرد إلى الجماعة والجماعة إلى الفرد وتأثير أحدهما في الآخر . فهما متفاعلان ؛ وهما ، من ناحية السبق والتأثير ، كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفاها .

ولكن ماهى تلك الجماعة ؟ وما طبيعتها ؟ وماهى صلتها الحقيقية بالأفراد ؟ وما هو أثرها فيهم أو أثرهم فيها ؟ وهل تتطور الجماعة وتتقدم ؟ وهل تنحل وتموت ؟ وما أسباب ذلك ؟ وماهى معايير التقدم ؟ فذلك ماسنحاول شرحه الآن .

طبيعتها

ليست كلمة الجماعة محدودة المعنى دائما وواضحة المفهوم . فكثيرا ماتطلق على معان متعددة تبدو متخالفة كل التخالف . فقد تطلق ويراد بها جماعة من الناس اجتمعت لساعة من الزمان لغرض من الأغراض ثم انفضت عند ماتم لها غرضها ، أو اجتمعت بقصد الدوام ؛ وقد يتحدث عن الجماعة كنظام يخضع له جمع من الناس ، أو كمجموعة من الصفات يتصف بها مثل هذا الجمع ؛ وقد يكون مدلولها خاصا بدائرة معينة من الأفراد ، وقد يعم حتى ينتظم الناس أجمعين . فأفراد الأسرة جماعة ؛ وطلاب المعهد جماعة ؛ والمجتمعون للصلاة في المسجد ، أو لبحث علمي في المعاهد العلمية ، جماعة ؛ وأفراد القبيلة أو الأمة جماعة ؛ والناس أجمعون جماعة أيضا . غير أننا لانعدم أن نجد بين كل هذه

المتفارقات معنى كلياً شاملاً ينتظم الجميع ، وهو مدار التسمية بالجماعة . وذلك المعنى الكلى هو الاتحاد في الغرض الأخير والمقصد النهائي الذي يرمى اليه الأفراد في اجتماعهم . وتلك الوحدة في الغرض هي العامل الأساسي في تكوين أي جماعة من الجماعات ، ولو كانت جماعة اللصوص وقطاع الطرق . فإذا لم يوجد ذلك الهدف المشترك لم تكن هناك جماعة ، بل تكون جماعات متعددة بتعدد الأهداف المختلفة التي يرمى إليها كل فرد أو كل جماعة .

فلا بد في تكوين الجماعة من أن توجد ، بين مجموعة من الناس ، علاقات اجتماعية يقصد بها تحقيق غرض مشترك ، ولا بد من أن يكون كل فرد منهم شاعراً بالآخرين من حوله كذلك ؛ فإذا انعدم هذا الشعور ، ولم يحس الفرد بالجماعة حوله أو لم يعلم بوجودهم ، انعدمت الجماعة بالنسبة له ، ولم يكن لها أثر في تفكيره أو تصرفه . بيد أنه ليس من الضروري أن يكون الشعور بالجماعة الحاضرة فعلاً حاضراً في الذهن دائماً ، فقد يشعر الإنسان بها ويتكيف سلوكه بقوانينها وأساليبها في الحياة وقت غيابها الفعلي عنه ، ما دامت متصلة به نفسياً ، وما دام يؤمن بأنها ستبقي يوم ما ما فعله أثناء غيبتها . وليس من الضروري كذلك أن يكون الهدف المشترك واضحاً عند الجميع . فقد يتضح عند فرد ، ويغمض عند آخرين ، ويظل مع ذلك هدفاً مشتركاً يرمون إليه جميعاً ، وبه تتحقق الوحدة التي تصحح التسمية بالجماعة .

فالجماعة ، إذن ، هي المجموعة من الأفراد التي جمعها هدف مشترك وجامع واحد ، قد يكون الرغبة في تحسين الحالات الاقتصادية لأفراد الجماعة ، وقد يكون غرض حمايتهم ، وقد يكون لحة الدم ورابطة النسب ؛ وقد يكون كل هذا

أو شيئاً وراءه . ولكنها قد تطلق على ما هو أخص من ذلك وأسمى ، فيراد بها جماعة من الأفراد ، اجتمعت عن ارادة ، وتضامنت عن رغبة ، لاتحدوها ارادة النهوض بالمستوى الاقتصادي للأفراد فحسب ، أو تكوين جبهة قوية يدافعون بها عن أنفسهم فحسب ، أو ارتباطهم بأواصر القرى فحسب ، ولكنهم مجتمعون ، مع كل هذا أو بغض النظر عنه كله ، لأنهم متضامنون تضامنا عقليا على أن يحترم كل واحد منهم حاجات الآخرين المادية والعقلية ، وعلى أن يقدر قيمتهم الذاتية ويساعدهم ، بقدر المستطاع ، على تحقيق كمال شخصياتهم واشباع حاجاتهم ورغباتهم ؛ أو باختصار ، لأنهم متضامنون على أن يعملوا ليوحدوا نوعا من الانسجام فيما بينهم ، تكمل فيه شخصياتهم ، ويشبع فيه على السواء أكبر مقدار ممكن من رغباتهم . وذلك هو المثل الأعلى للجماعة .

وإذا ما وجدت جماعة من الجماعات في ساحة من الساعات فإنها ستعمل بلاشك على تحديد مكانها بأي نوع من أنواع المحددات ، وفصله عن سائر الجماعات ، لتمنع المغيرين والمعتدين . وذلك هو التحديد الجغرافي . وستكون ، ولاشك ، نوعا من العادات والتقاليد مناسبة لبيئتها الجغرافية والطبيعية ولقدرتها على الانتاج ولقدر تجاربها في الحياة . وقد يكون البناء الجسمي لأفرادها مخالفا في مظهره ، فوق ذلك كله ، لبناء ما يجاورها من جماعات ؛ وبذا يوجد نوع آخر من المفارقة بينهما . فالمفارقات التي يمكن أن تميز الأمم والجماعات بعضها عن بعض قد تكون ، إذن ، جغرافية ، وقد تكون نفسية ، وقد تكون جسمية . بيد أن المهم في الإنسان وفي الجماعات الإنسانية منها هو المفارقات النفسية وحدها . وأما ماعداها من المفارقات فلا يعدو أن يكون حواجز صناعية قد يتجاهلها الشخص العادي ، ولا يعز عليه أن يتجاوزها ويتغلب عليها إذا ما فكر فيها .

ولا يعنيننا الآن أن نتحدث عن الأصل التاريخي للجماعات وتطورها وارتقائها ، في مدارج السكّال ، إلى المرحلة التي بلغتها اليوم . وإنما يعنيننا هنا أن نقول ان الجماعات التي تعيش معا لا بد أن يكون بينها مقدار من التشابه النفسي والعقلي ، بل الجسمي أيضا . وكلما زاد هذا التشابه زاد الانسجام وقوى الائتلاف . ولكن إذا لم يكن التشابه إلا مجرد اشتراك في المصالح أوجت به حالات طارئة ، وإذا لم يكن الاجتماع إلا نتيجة لعوامل وقتية أوجدها ظروف ملحة ، فإن الائتلاف لا بد أن يزول حينما تزول تلك العوامل . وما كان لعله زال بزوالها ، وما كان للانسانية في ذاتها دام مادامت وبقى ببقائها . وشتان ما بين فريقين جمعتهما الخوف من ثالث وبين آخرين ارتبطا بلحمة الدم والنسب ، أو وحدت بينهما المثل العليا ، أو الاشتراك في العقيدة الدينية .

كل ذلك حق لا يكاد يمارى فيه أحد من علماء النفس أو علم الاجتماع . بيد أنهم يختلفون بعد ذلك في نظرتهم إلى الجماعة وفي شرح طبيعتها وفهمها . ومرد ذلك الاختلاف إلى أن لأفراد الجماعة عقولا وأجساما وأن بينهم علاقات اجتماعية قد تغرى على القول بأنها شيء وراء الأفراد . فينظر بعض العلماء إلى الجماعة نظرتهم إلى الأجسام العضوية ، ويحكم عليها بأنها نوع كبير من الأجسام العضوية متأثراً في ذلك بما يلاحظ من تشابه بين حياة الفرد وحياة الجماعة ؛ ويتأثر بعض آخر بالناحية النفسية الباعثة على الحركات الاجتماعية العامة ، وينظر إليها نظرتهم إلى النفوس أو إلى العقول ؛ ويذهب آخرون إلى أنها شيء أكبر من مجموع الأجزاء التي تتكون منها . فهناك ، إذن ، ثلاث نظريات في شرح طبيعة

الجماعة ينبغي أن نلم بها . ولو كانت نظريات ذهنية لا تمت إلى الحياة العملية بسبب ، ولا تؤثر في تكييف قوانين الجماعة وتحديد قواعد السلوك فيها ، لأغفلناها أو لمررنا عليها سراجاً ؛ بيد أن كل نظرية منها تستتبع نوعاً خاصاً من المبادئ الخلقية ، وتفترض أسساً نفسية مختلفة . لذلك رأينا أن نقف عندها قليلاً ، ونناقش كلا منها على حدة ، لنخلص إلى ما يتبين لنا أنه الحق .

١ — الجماعة والأجسام العضوية :

لا مرأى في أن هناك مقداراً كبيراً من التشابه بين حياة الجماعة وحياة الفرد من الحيوان أو الإنسان . فكما أن لكل عضو من أعضاء الجسم وظيفة يخدم بها مجموع الجسم ، فكذا لكل عضو في الجماعة وظيفة يخدم بها الجماعة ؛ وكما أن كل عضو من أعضاء الجسم يعتمد في بقائه وفي تأدية وظيفته على الجسم ، فكذلك يعتمد الفرد على الجماعة في بقائه وفي تأدية وظيفته ؛ وكما أنه من الممكن أن يفنى بعض أعضاء الجسم ، أو يصاب بعطب ، أو يعجز عن تأدية وظيفته في الحياة ، ويظل الجسم كله ، على الرغم من كل ذلك ، قادراً على القيام بمهمته في الحياة ، فكذلك يتغير الأفراد في الجماعة ، ويفنى بعضهم ، ويعجز آخرون عن تأدية مهمتهم في الحياة ، وتبقى الجماعة قادرة على القيام بأعبائها في الحياة . ولقد دعت ملاحظة هذا التشابه بعض الفلاسفة ، في القديم والحديث وفي العصور الوسطى ، الذين كانوا مهتمين بدراسات حياة الجماعة — مثل أرسطو ، والقديس توماس الأكويني ، وهوبز ، وسبنسر — إلى القول بأن الجماعة نوع من الأجسام العضوية ، يخضع لأحكامها ، وتسرى عليه قوانينها . ويُعرب نيكولص كوينز

منهم ويقول ، مبینا أجزاء ذلك الجسم الاجتماعی وأعضائه المختلفة: ان دواوین الإدارة فی الجماعة هی الأعضاء ، والقوانين هی الأعصاب ، والتشريع الأعلى هو العقل ، والأرض التي تقيم علیها الجماعة هی الهيكل ، والأفراد المتغیرین هم الأبدان ، وهم اللحم والدم . وكثيراً ما نجد مثل هذا الوصف التفصیلی فی أقوال بعض علماء الإسلام الاجتماعیین أيضاً .

ولكن علی الرغم من أن التشابه بین حياة الجماعة وحياة الجسم المؤلف من أجزاء عضوية موجود حقاً ، ومن أن له مظاهر شتى ، فإنه لم يبلغ الحد الذي يسمح لنا أن ننقل حكم أحد المتشابهین إلى الآخر . وذلك لأن المفارقة بينهما أشد وأقوى ؛ وهی فی مسائل جوهرية . فلا تنشأ الجماعة كما ينشأ الفرد ، ولا تنمو كما ينمو ، ولا تموت كما يموت ، ولا تتصرف كما يتصرف . بل لها أسلوبها الخاص بها فی كل ذلك ؛ وليست لها حياة واحدة مثل الفرد ، بل حيوات عدة بعدد ما فیها من أفراد . وهی لا تتألف من أجزاء يكونون كلا ، ولكنها تتألف من أفراد ، لكل منهم إرادته الخاصة ، وغرضه الخاص ، وحياته الخاصة به التي لا يمكن أن تناع بحال ما فی حياة الجماعة ، وتكون معها حياة عضوية واحدة . وأما الجسم فبخلاف ذلك . فليست لأعضائه المتعددة حيوات مستقلة عن حياته ، وليست لها إرادات مستقلة ولا أغراض خاصة تخالف إرادة الكل وغرضه . علی أن هناك فرقاً آخر یبعد ما بينهما من تشابه . وذلك أن الجماعة تعتمد ، فی تكونها وفي نجاحها فی تأدية وظيفتها ، علی تشابه الأفراد نفسياً ، وتضامهم علی تحقيق الغرض المشترك ، كما قلنا آنفاً ، فی حين أن الأجسام العضوية لا تتألف إلا من أعضاء متخالفة الوظائف ومتخالفة التركيب . كل ذلك

يدفعنا إلى القول بأن الجماعة ليست جسما اجتماعيا ، ولا يمكن أن تسرى عليها قوانين الأجسام ؛ وقد يسوغ لنا أن نفعل ذلك أحيانا لغرض من الأغراض الاجتماعية ، ونتحدث عن وحدة الجماعة وحركتها وشعورها ، وأنه ينبغي لها أن تترابط- ترابطا قويا ، وتعمل كأنها جسم واحد ، وتشعر كذلك ؛ فيتأثر الواحد بما تشكو منه الجماعة ، وتحس الجماعة بالآلام الفرد ؛ ويكون مثلها مثل « الجسم الواحد إذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر الأعضاء بالحمل والسهل » . وذلك حق لا شك فيه . بيد أن التطرف ، والانتقال من المشابهة إلى الوحدة ، والقول بأنها جسم يخضع لسائر قوانين الأجسام العضوية ، لا يجد ما يبرره ، ولا بد أن يعتبر مخالفة لما تسمح به قوانين القياس .

٢ — الجماعة والعقل :

ترى هذه النظرية أن الجماعة تكون وحدة ، ولكنها ليست وحدة عضوية ، بل وحدة نفسية أو عقلية ناشئة عن اتصال عقول أفرادها بعضها ببعض . فنتحدث عن عقل الجماعة ، وروح الجماعة ، وشعور الجماعة ، وإرادة الجماعات أو الشعوب ، لا بطريق المجاز والكناية ، ولكن بطريق الحقيقة . فالشعب حقا عقل واحد ، أو شعور واحد ، أو إرادة واحدة . ومن أنصار هذا الرأي « وليام مكدوجل » و « هربرت سبنسر » ، و « دوركايم » . ويعتمد هذا الرأي ، في الجملة ، على ملاحظة حركات المجموعات الدنيا من الحيوانات والحشرات وملاحظة الحركات الجمعية للجماعات الإنسانية كذلك .

فكثير من الحيوانات الدنيا تتصرف كأنها مخلوق واحد ، وهى مع ذلك

ليست إلا مجموعة من الحيوانات ؛ وخلية النحل في حركاتها تعمل كوحدة ؛ والسرب من الطيور كذلك يبدو كأن غرضا واحدا يحدوه ويدفعه إلى الأمام ؛ والجماعة الإنسانية نفسها ، في حركاتها الجمعية ، وتصرفاتها المشتركة ، التي كونت تاريخها الطويل ، لابد أن تكون أثرا لنوع من المبادئ أو من القوى التي لا يمكن أن تكون إلا عقلا أو من عمل العقل . غير أنه لا يمكن أن تكون أثر العقل الشخصى لهذا الفرد أو ذاك من الجماعة . لأنه وحده عاجز عن أن يوجد ذلك الأثر . ولكنه نتيجة لشيء نشأ عن اتصال عقول أفراد الجماعة بعضها ببعض ؛ وذلك هو ما يسمى « عقل الجماعة » .

فعقل الجماعة ، على هذا الرأي ، حقيقة واقعة موجودة فعلا ، وناشئة عن الاتصال الذهني بين أفراد كل جماعة من الجماعات ؛ وهو المسئول عن النظم والقوانين الاجتماعية كلها ؛ وهو المسئول عن كل الحركات المشتركة التي تقوم بها الجماعات في اجتماعها وأثناء تجمهرها .

ويذهب بعض العلماء أبعد من هذا ، ويقول ليست الخلايا الخفية إلا حيوانات وجراثيم دقيقة ، مستقلا بعضها عن بعض تمام الاستقلال ، ولكل منها شعوره الخاص ، وإدراكه الخاص ، وحياته الخاصة ؛ ومن مجموع هذه الحيات ، ومن مجموع هذه الإدراكات ، ومن مجموع هذه الخلايا ، يوجد عقل الفرد من الإنسان ، ويوجد شعوره الواحد وإدراكه العقلي الواحد ، وتوجد حياته العقلية التي لا تعدد فيها . فعقل الفرد هو تلك الوحدة التي تنشأ عن اجتماع هذه الخلايا ، وإدراكه أو شعوره العقلي هو تلك الوحدة التي تنشأ عن إدراكات الخلايا وشعورها . وإذا كان

هذا هو الشأن بالنسبة للعقل الفردى ، أو لا يمكن أن يكون كذلك بالنسبة للجماعة ؟ أو لا يحق لنا أن نعتبر الفرد فى الجماعة كالحلية فى العقل ، وأن عقل الجماعة هو تلك الوحدة التى تنشأ عن اجتماع الخلايا التى هى عقول الأفراد بعضها ببعض ؟ فعقل الجماعة ، على هذا الأساس ، هو تلك القوة الخارجية التى تنشأ عن التقاء عقول الأفراد ، والتى تمثل عقل كل فرد من أفراد الجماعة من غير أن تكون إحداها .

ويقول «مكدوجل» فى كتابه «علم النفس» : « ان تصرف المرء وقت شعوره بأنه عضو من جماعة يخالف تصرفه حين ينعدم منه ذلك الشعور ؛ وكذا الشأن بالنسبة لتفكيره ووجدانه وإرادته . لأنه ، فى الحالة الأولى ، يتصرف بعقل الجماعة وشعورها ، ويتصرف ، فى الثانية ، بعقله هو وبشعوره . إذ لا شك فى أن لكل جماعة إنسانية منظمة عقلا مشتركا مسئولا عن تصرفاتها المشتركة وعن أعمالها المشتركة وحركاتها العامة التى تكون فى جملتها تاريخها الطويل . وإنه لمن المستحيل فهم الأنظمة التى أوجدت هذا العمل المشترك والبواعث التى بعثت عليه إلا على ضوء ذلك العقل المشترك الذى يخالف عقول الأفراد الذين تكونون منهم الجماعة » .

فالتقاليد والعادات الاجتماعية ، والخصائص القومية ، والمميزات العقلية للشعب ، وسلوك الجماهير ، وشعور كل فرد فى الجمهور بالجرأة ، مثلا ، وهو بين جماعة ، عنه ، وهو وحيد ، وتصرفه فى ذلك الحين بأسلوب يخالف أسلوبه العادى فى التصرف ، وانفعال الجماهير بسرعة - كل ذلك لا يمكن أن يفهمه أصحاب هذا الرأى إلا على أنه أثر لذلك العقل الاجتماعى أو عقل الجماعة .

بيد أن ذلك كله لا يبرر القول بأن للجماعة عقلا مغايراً لعقول الأفراد الذين يكونونها . لأن العقل ، كما نعرفه ، لا بد أن يكون وحدة ذات حياة واحدة . ولا تتحقق تلك الوحدة إلا إذا كانت أعضاء جسمه متصلة اتصالاً عضوياً ، وكانت أجزاء مخه مرتبطة ارتباطاً عصبياً ، أو باختصار ، إلا إذا كانت هناك وحدة مادية وعصبية . فهل ما يسمى عقل الجماعة كذلك ؟ هل هناك روابط عصبية بين أجزاء مخه المختلفة ؟ وهل له مخ ؟ وهل له حياة واحدة ؟ أم أنه مجرد افتراض ذهني صحته الحاجة إليه ؟ وإذا لم يكن هذا ولا ذاك ، فكيف تتصوره ؟ قد نقبله على أنه نوع من التجوز في الخطاب ، أو نوع من الأمل يرجى تحقيقه ، ليوحد كمال الانسجام في الجماعات حين تتصرف مدفوعة بقوة واحدة ووجهة واحدة وعقل واحد . غير أن أصحاب هذا الرأي يرون أنه عقل واقعي واحد ، فأين هو ؟ وما هو عدد العقول ؟ وهل هناك عقل أعلى للعالم كله تكون خلاياه عقول الجماعات لعقول الأفراد ؟ ذلك كله نوع من الاغراب في التفكير ، والتعقيد فيه ، ألجأنا إلى النظر فيه أنه لم يقف في نتائجه عند التمرين الذهني في البحث ، بل تخطى ذلك إلى النواحي العملية ، فكانت له آثار نفسية واجتماعية لا يمكن أن نقبلها بحال .

وليس العقل طريقاً أو أسلوباً منظماً من الفكر ، كما يقول «مكدوجل» ، ولكنه شيء وراء ذلك ؛ وليس هو تجريداً ذهنياً كذلك ، وإلا فأين تلك القوة المجردة ؟ ولا ينشأ عن تضام العقول عقل مغاير ، بل إن العقول لا تتضام كما تتضام الأجسام . وليس القول بتكون العقل الفردي من خلايا منفصلة ومستقلة في الشعور وفي الحياة إلا نوعاً من الخيال الذي لم يجد ، حتى اليوم ، ما يبرره .

وكل ما هنالك هو أن العقول قادرة على أن يتصل بعضها ببعض ، وعلى أن تتكيف وتتغير بالظروف المتغيرة . فعند ما تلتقى الأفراد ، وتكون ما يسمى جماعة ، ويستجيب الواحد منهم للآخر ، تتغير البيئة ، فيستجيب لها الأفراد استجابة جديدة ؛ وهذه بدورها توجد بيئة جديدة ، وهي تستدعى بدورها استجابة جديدة ؛ وهكذا . فليست التصرفات الجديدة منبعثة عن عقل جديد نشأ عن الاجتماع ، ولم يكن موجوداً من قبل ، ولكنها نشأت عن عقول الأفراد المجتمعة ، في محاولتها التوفيق بين أوضاعها والأوضاع الطارئة التي نشأت عن تغير البيئة .

فافتراض عقل كبير ، أو عقل أرقى من عقول الأفراد ، أو عقل مخالف لعقولهم ، ليشرح لنا تلك الظواهر الطارئة ، افتراض لا مبرر له . فإننا نجد شرحها الحقيقي بسهولة ويسر في طبائع الإنسان ؛ فنجدها في غرائزه ، وفي ميوله واتجاهاته التي قد يكون للتربية والتعليم في إيجادها أثر كبير .

فللإنسان ، كما لغيره من الحيوانات الاجتماعية ، غرائز ، ومن بينها غريزة التقليد ؛ وهي تلك القوة النفسية التي تجعل الفرد يحاكي الآخر في حركاته وتصرفاته . فعندما تثار هذه الغريزة يتصرف الفرد على غرار ما يتصرف به الفرد الآخر من الحيوان . غير أن هذا التقليد قد يكون مقصوداً ، وقد يكون مجرد استجابة فطرية ، ومشاركة غير مقصودة ولا دخل للإرادة فيها . وتفسر لنا تلك الاستجابات الفطرية كثيراً من تلك التصرفات الاجتماعية التي ينسبها القائلون بعقل الجماعة إليه . وقد تسمى تلك الاستجابة « بالمشاركة الوجدانية الفطرية » . ولها مظاهر شتى في حياة الحيوانات وفي حياة الإنسان نفسه . فقد يطير الطائر

هاربا ، لا لأنه رأى عدوا أو أحس بخطر ، بل لأنه رأى طيوراً أخرى هاربة ، فيشاركها في حركاتها ، لأن حركاتها أثارت فيه الغريزة . وإذا بكيت أمام الطفل بكى معك . وإذا ابتسمت ابتسم لك . وإذا تشاءبت تشاءب كثير ممن معك . وإذا خضعت لبعض الانفعالات سرى الأثر في الحاضرين معك سريان النار في الهشيم . ومن الهين عليك أن تقف ، وتنظر كأنك ترقب شيئا ، فلا تلبث أن تجد كثيرا من الناس واقفين معك كأنهم يتطلعون إلى شيء أيضا . وقد ينزعج الجمهور ، ويضطرب أيضا ، بسبب تلك المشاركة الوجدانية من غير أن يحس بالمخاطر . فإذا جرى أحد الناس من الرعب سرى الرعب في الناس الذين يشاهدونه ، فلا يلبثون أن يجاروه في الحركة . وكثيرا ما يحدث الذعر العام لمجرد المشاركة الوجدانية ، وكثيرا ما تستغل تلك الظاهرة استغلالا حسنا أو سيئا : فيستغلها الخطباء والمصلحون ، ويستغلها اللصوص وقطاع الطرق ليهيئوا لأنفسهم فرصة ينشغل فيها الناس فينفدونها ما يريدون .

فالحرركات الجمعية هي مشاركة وجدانية ، وليست أثرا لعقل عام أو شعور عام ، ولكنها أثرا لتلك الغرائز الفطرية في الإنسان التي تثار في الجماعة عند ملاحظتها انفعال أحد الأفراد فيها . فهو في الحقيقة ، نوع من العدوى النفسية التي تنزل بالمرء عن مستواه العادي من التصرف الخلق ، وتفقده كثيرا من شخصيته ؛ وهو نوع من التحكم الانفعالي الذي يجعل المرء غير متمكن من التفكير المتزن . وما أصدق من قال « الجماهير ، في تجمهرها ، مغلوبة بالانفعالات ؛ فهي حمقى ، لا تعرف رحمة ولا تخضع لقوانين الأخلاق . فإذا كانت على حق في انفعالاتها تصرفت كما يتصرف الحمقى ، وإن كانت على غير حق تصرفت كما يتصرف الحيوان

الممتلىء غضبا . ومن الهين عليها أن تفسد ، ولكن يستحيل عليها أن توجد ،
وكثيرا ما تفضل الطالح على الصالح . فلا يمكن بحال من الأحوال أن يكون
هذا السقوط الخلق والتدهور التفكيرى أثرا لعقل نشأ عن تضام العقول جميعها ،
لأن العقل الناشئ ، أو عقل الجماعة المفترض ، كان ينبغى أن يكون أبعد نظرا
وأدق منطقا من عقل كل فرد على حدة ، كما هو الشأن - حسبما قالوا - فى عقل
الفرد بالنسبة لخلاياه التى تكون منها . ولكنه أبعد ما يكون من ذلك الاتزان
فى التفكير .

فالمشاركة الوجدانية ، إذن ، كافية فى تعليل وحدة العمل فى جماعة الحيوان
وجماعة الإنسان ، فلا حاجة إلى افتراض العقل الكلى أو عقل الجماعة أو الشعور
العام . على أن هناك ناحية أخرى يمكن الرجوع اليها لتعلل تلك الوحدة فى
الجماعات الإنسانية المثقفة . وهى ناحية الميول ، وخاصة الميول المكتسبة الموجهة
نحو المثل العليا والغايات المشتركة . فقد تتجه ميول الأفراد نحو الوطن ، مثلا ،
وتتركز نحوه انفعالاتهم ، فتتربى عندهم عواطف حب له . ثم تكييف تلك
العواطف تصرفاتهم نحوه . فهم يعملون عملا واحدا مشتركا ، لا لأن هناك
عقلا وراء عقولهم يدفعهم إلى العمل ، بل لأن فيهم ميولا تدفعهم لأن يعملوا ،
لينقذوا ذلك الموضوع المشترك من السقوط . فهم يهدفون نحو غاية واحدة ،
ومدفعون بميول متشابهة ، ولا تستخدم الجماعة إرادة واحدة أو عقلا واحدا .
ولكن كل فرد يستعمل إرادته هو ، ويستخدم عقله هو ، لصالح المجموع الذى
يعتبره غرضه الأسمى . ولا شك أن بلوغ ذلك المستوى لا يتوقف على الغريزة
الاجتماعية التى تجمع الأفراد وتبقيهم معا خصب ، بل يتوقف كذلك على مقدار
التجارب التى مرت على المرء فى الجماعة ، ومقدار الذكريات المشتركة لأفرادها ،

ومقدار ما اكتسب المرء من تعاليم ، ومقدار ما بين الأفراد من تجانس . كل ذلك يوجد عند كل فرد من أفراد الجماعة شعورا نحوها ؛ وذلك الشعور هو الذي يحدد عمله في الجماعة ؛ وهو المسئول عن وحدة العمل في الجماعة .

٣ — الجماعة والمجموع :

ولكن ، على الرغم من أن الجماعة ليست عقلا ولا جسما ، فإنها مكونة منهما ومن شيء آخر ، وهو علاقة هذه الأفراد بعضها ببعض ؛ فهي ، إذن ، شيء أكبر من مجموع الأفراد الذين يكونونها . بيد أن تلك النظرية ، باختصار ، تفترض أن للعلاقات وجودا زائداً على وجود الأفراد الذين توجد بينهم هذه العلاقات ، ومستقلا عنه ، وأن الأفراد يمكن أن تتضام وتكون مجموعا . وكلا الفرضين غير مقبول . فلا تتكون الجماعة من أفراد وعلاقات ، بل من أفراد مرتبط بعضهم ببعض ، ولا يوجد الفرد ، ثم تطرأ عليه العلاقات الاجتماعية وصلاته بالأسرة والقبيلة ثم بالأمة ؛ ولكنه يولد متصفا بتلك العلاقات ، ويعيش وينمو كذلك ، ويموت كذلك أيضا . فليست العلاقات الاجتماعية أمورا خارجة عن الأشخاص ، ولكنها من المعاني المكونة لشخصية الأشخاص ؛ وهي من ضروريات تكوين تلك الشخصيات . وإذا كان الأمر كذلك ، وما دامت العلاقات عنصرا من عناصر الشخصيات ، فلا يمكن التحدث عن الجماعة كشيء أكبر من المجموع . لأن التحدث عن مجموع الأفراد يستلزم تجريدهم أولا عن العلاقات وقطع بعضهم عن بعض قطعاً كلياً ؛ وذلك فرد لا وجود له في الخارج . لأن الشخص الواقعي هو الشخص ذو العلاقة المرتبط بغيره ؛ والأشخاص في

علاقتهم بعضهم ببعض هم الجماعة؛ والجماعة هي هؤلاء الأشخاص، وليست شيئاً وراء ذلك.

فالجماعة هي الأفراد في علاقتهم بعضهم ببعض؛ وهي الأفراد المتآزرون والمتسكتفون على أن يحققوا لأنفسهم هدفاً مشتركاً. وليست للجماعة حياة غير حياة الأفراد الذين يكونونها؛ وليس لها أغراض وراء أغراض هؤلاء الأفراد؛ وليست لها عادات أو قوانين خلقية غير عادات الأفراد وأخلاقهم. وليس هناك من تعاند أو عداء بين الأفراد والجماعة، وإن صح أن يوجد ذلك بين الأفراد في الجماعة، أو بين بعض الأفراد في الجماعة والجماعة. وذلك الأخير هو الذي يتيح لنا أن نتحدث عن واجب الفرد وواجب الجماعة، وعن حق الفرد وحق الجماعة.

وإذا لم يكن هناك تعاند بين الأفراد والجماعة لم يكن هناك ما يدعو إلى القول بأن الجماعة هي الجوهر، وهي القمينة بالوجود دون الفرد، أو إلى القول بأن الفرد هو الموجود الحق، وأن وجود الجماعة وجود عارض. فالفردية والاجتماعية مظهران من مظاهر الفرد الواحد؛ فهو فرد حين تنظر إليه بنفسه كموجود ذي استقلال وذي إرادة، وهو اجتماعي حين تنظر إليه في علاقته الضرورية بالآخرين؛ وهو في الحقيقة هذا وذاك.

وعلى الرغم من وضوح هذا الرأي كل الوضوح، وعلى الرغم من إيمان العلماء بأن الإنسان حيوان اجتماعي، وعلى الرغم من أن التاريخ لم يحدثنا عن حالات لم يكن فيها الإنسان اجتماعياً، - على الرغم من كل ذلك فقد وجدت نظريات تقدر الفرد على حساب الجماعة، وأخرى تقدر الجماعة على حساب

الفرد ، كأن العناد عناد حقيقي ، وكأنه يمكن وجود أحدهما بدون الآخر . وهاتئ النظریات هى المسماة بالنظرية الفردية والنظرية الجمعية . وهما مبنيتان على ذلك الخلاف السابق فى طبيعة الجماعة .

الجماعة والفرد

قبل أن نشرح المذهبين المتقابلين فى شرح طبيعة صلة الفرد بالجماعة ، نحب أن ندفع ما قد يتوهم هنا من أن التقابل المتحدث عنه هو تقابل بين الجماعة وبين فرد معين أو فرد ما من أفرادها . فذلك غير مقصود ، لأن ذلك النوع من التقابل أو التعاند ليس موضع خلاف . ولكن المتحدث عنه هو التقابل بين الجماعة وأفرادها . فهناك من يقدر الجماعة على حساب الأفراد ، وهناك من يقدر الأفراد على حساب الجماعة . وكلا النظريتين لا يتمشى مع الصواب كما سيتبين بعد .

١ — المذهب الفردى :

ظهر هذا المذهب من زمن بعيد ، ولكنه لم يبلغ أشده إلا فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، عندما بلغت الصناعات درجة لا بأس بها من التقدم . ولقد ظهر ، أول ما ظهر فى هذين القرنين ، كمجموعة من الأنظمة والقوانين التى تتناسب مع مصالح طبقة التجار وأرباب رؤوس الأموال ، وتخدم أغراضهم . فهو على ما يبدو ، نظام اقتصادى قد لا يمت بكثير من الصلة للحياة العقلية والنفسية للأفراد ، ولتحديد مراكزهم من هذه الناحية بالنسبة للجماعة . بيد أنه قد أصبح من المعترف به ، أولا ، أن الحالة الاقتصادية فى الجماعة والقوانين المتحكمة

فيها ، تتحكم ، إلى حد كبير ، في تشكيل قوانين هذه الجماعة وعاداتها وأخلاقها وفي تحديداتها ، وتتحكم بالتالي في تحديد الروابط النفسية والخلقية بين الأفراد بعضهم ببعض من ناحية ، وبينهم وبين الجماعة من ناحية أخرى . ومن المؤكد ، ثانياً ، أن هذا المذهب ، وإن بدأ اقتصادياً ، مبنى على أسس نفسية يفترضها في الفرد ، وإن كانت في جملتها خاطئة كما سيتبين بعد . فهو مذهب اقتصادي وسياسي وخلق ونفسى معا .

يرى هذا المذهب أن الفرد هو الحقيقة الواقعية ، وهو الجوهر الحقيقي الموجود في الخارج . وأما الجماعة فهي تجريد ذهني ، وليست حقيقة واقعة في الخارج ؛ لأنها ليست إلا نوعاً من العلاقات الذهنية ومن النظم والطرائق التي يتصرف بها الأفراد بعضهم نحو بعض . فهي روابط وعلاقات طارئة يوجد بها الأفراد حين يتجاوب أحدهم مع الآخر . فالأفراد حقائق موجودة في الخارج قبل وجود العلاقات التي هي الجماعة ؛ وهم الأساس الذي تعتمد عليه هذه العلاقات ؛ وهم قطب الدائرة في الوجود الذين يوجدون كلا من التجارب الجسمية والعقلية ، أو هم المكونون للتيار يخ . فهم ، إذن ، أرباب المطالب والحقوق ، وأصحاب التوجيه . فينبغي أن تحترم ميولهم واتجاهاتهم ، وتنفذ رغباتهم وما تدعو إليه غرائزهم .

ولا شك في أن المرء مزود بغريزة المحافظة على البقاء ؛ وهي قوة تدفعه إلى العمل . فهو مدفوع بطبيعته لأن يعمل ليبقى ويعيش ، ولأن يزود نفسه بأكثر مقدار ممكن من السعادة واللذة ، ولأن يحيطها بسياس قوى ويحصنها من كل العادات . وهو يسعى بطبيعته ليحقق أغراضه ويقضى شهواته ، أو أنه لا يسعى بطبيعته إلا لإرضاء ما ربه وإشباع رغباته . فهو أناني بالطبع . وخير

حياة له هي تلك الحياة التي ينفذ فيها كل ما يشتهي أو أكبر مقدار ممكن منه .
وما دام الناس جميعا كذلك ، وما داموا سواء في هذا الغرض بطبيعتهم ، وما
داموا بطبيعتهم فرديين وأنانيين ، فإن المثل الأعلى الذي يجب أن تهدف إليه
الأعمال الاجتماعية هو تحقيق ذلك الغرض العام ، وهو إرضاء الميول الطبيعية
لجميعهم ، وإشباع الغرائز الأنانية في الأفراد ، أو إشباع أكبر مقدار ممكن منها ،
أو إيجاد أكبر مقدار ممكن من السعادة لأكثر عدد ممكن من الناس . فليس
للدولة ، إذن ، أن تضيق على الأفراد وتحد من سلطانهم ، إلا بقدر ما هو
ضروري لمنعهم من إيذاء بعضهم بعضا . لأن الأفراد لم يوجدوا هذه العلاقات
- الجماعة - إلا لتساعدهم على قضاء مآربهم ، فلا يمكن أن تقف حائلا دون
ذلك القضاء . بيد أنه قد يكون من الضروري لتحقيق هذه المآرب كلها أو
بعضها أن توجد سلطة تأخذ شيئا من هذا الفرد ، وشيئا من ذاك الفرد ،
ليتمكن الإثنين من إشباع بعض الرغبات . وتلك السلطة هي سلطة الجماعة .
فتدخلها وتحديدها لتصرف الأفراد ضرورة يتوقف عليها إشباع رغباتهم
وتحقيق أنانيتهم ، أو هو شر لابد منه ، فيكفي منه ما يدفع الضرورة .

ومن هنا جاءت النظريات الاقتصادية التي تلزم الجماعة بأن تترك للفرد
كثيراً من الحرية في الناحية الاقتصادية ؛ وذلك لأنها ترى أن الطريق الوحيد
لإيجاد أكبر مقدار ممكن من السعادة لأكثر عدد ممكن من الناس هو أن
يترك الأفراد أحراراً فيما يدعون وفيما يذرون في المسائل الاقتصادية ، ويتنافسون
في الأسواق ، ويحتكرون إن شاءوا ، ويجلبون ما يشاءون من الأقوات
وغيرها ، ولو كان ذلك على حساب الأسواق المحلية ، ويرسلون إلى الأقطار

الأخرى ما يشاءون كذلك ، ولو كانت البلاد في حاجة إليه . وذلك لأنهم يرون أن حرية التنافس تؤدي إلى ارتفاع مقدرة الإنتاج في الجماعة ، وإلى نوع من العدالة الاجتماعية . لأنه يعطى الجميع فرصة العمل وفرصة التنافس ، ويترك السوق حراً ، ليتمكن كل فرد من شراء ما يراه أكثر نفعاً له . وذلك كله قمين بأن يوجد أكبر مقدار ممكن من السعادة لأكثر عدد ممكن من الناس .

وقصارى القول أن هذا المذهب يرتبط بمذهب « اللذة » في الأخلاق وفي علم النفس ، ويفترض أن المصالح الشخصية هي البواعث على العمل وعلى الجهود الاقتصادية ، أو هي أهم البواعث على ذلك ، وأن الفرد ، إذا ترك حراً من غير أن تتحكم الجماعة في أعماله ، يخدم مصالحه على أحسن الوجوه وأكملها . ويفترض ، كذلك ، أن المصلحة الشخصية لا تعاند المصلحة الاجتماعية ، بل تعاضدها وتوازرها ، فكلما خدم المرء مصالح نفسه وأشبع رغباته خدم مصالح الجماعة التي يعيش بينها .

ولسنا نريد الآن أن نطيل في نقد هذه النظرية الاقتصادية ، في ناحيتها النظرية ، وخاصة لأنها نظرية قد أصابها الوهن من زمن بعيد ؛ لأن الاطراد في التقدم الصناعي والتجاري ، وازدياد الإنتاج بسبب استعمال الآلات الميكانيكية ، لم يجعل للفرد أملاً في أن ينهض بنفسه ، فاضطر لأن يتعاون مع غيره . بيد أن هذا لا يمنعنا من أن نذكر بعض الملاحظات التي تجعلنا نرفضها ، فنقول :

ليس هناك من شك في أن الإنسان مدفوع بطبيعته لأن يعمل كل ما يسبب لنفسه سروراً وسعادة ويجلب لها الخير . بيد أنه كثيراً ما يخطئ في التقدير وتمييز النافع من الضار ، وخاصة إذا ما كان مدفوعاً بغرائزه وميوله الفطرية

من غير روية وتدبر . فتارة يحكم على الضار بأنه نافع ، لأنه يرى فيه منفعة عاجلة ، ويراه براقاً لامعاً ، ويحكم ، أحياناً ، على النافع بأنه ضار ، لأنه قد يكون مخفوفاً بالمكاره والصعاب . فلا يقدر المرء أن يعرف ما هو خير له في الحقيقة ، ولم يقدر في كثير من الأحيان على ذلك . ولقد كان يعرفه في بعض الأحيان ، ولكنه كان عاجزاً عن أن ينفذه بسبب ضغط البيئة ، أو بسبب بعض الميول النفسية المكتسبة أو الموروثة .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، فإن أرباب الأموال (بدل أن يتوجهوا نحو إيجاد نوع طيب من الحياة لكل الأفراد في الجماعة ، ليبرهنوا على صحة النظرية في قولها إن الفرد يخدم الجماعة بخدمته نفسه) مالوا نحو الاتجاهات الفردية وإشباع النزعات الأنانية التي لا تخدم المجموع بحال من الأحوال . ولقد ساعدتهم ثراؤهم على أن يتحكموا في الجماعة من جميع نواحيها وسيطروا على سلطانها وعلى التشريع فيها ، إلى أن أصبح الآخرون عمالاً وأجراء وعالة ، من ناحية اقتصادية ، عليهم ، تلجئهم الضرورة الملحة إلى إفناء مقدراتهم على الإنتاج في سبيل تحصيل نوع من العيش مرير . ولقد اعتبر تضامنهم ، بعد ذلك ، لاستخلاص حالة أرقى من تلك الحالة ثورة على النظام الاقتصادي المقدس يجب أن تخمد ، واعتبر كل تشريع يهدف نحو حماية مصالحهم أو تحسين حالاتهم عملاً عدائياً وحداً من الحرية الفردية التي يجب أن تكفل للجميع . وكان ذلك وحده كفيلاً بأن ينقض النظرية من أساسها . لأن الحرية التي افترضتها للجميع ، والمساواة في القيمة التي يشترك فيها كل

أفراد الجماعة ، والمساواة في الفرص ، لم تضمن كلها إلا لأفراد قلائل ، وهم
أرباب الثراء والنعمة .

ولقد وجد مع هذا النظام الاقتصادي الفردي ، أو نشأ عنه ، نظام خلق
فردي أو حر ، لا لأنه كان أنانيا ، في نزعته واتجاهاته ، بالنسبة لكل فرد
فحسب ، بل لأنه كان أيضا نظرية اجتماعية مبنية على أهمية الحقوق الفردية ،
والمسئولية الفردية ، والعقل الفردي ، والضمائر الفردية ، والغرائز الفردية .
فالحقوق الفردية هي الحقوق الحققة التي يجب أن تراعى وأن تحمى ، ولا يحجر
عليها إلا حين تتعارض مع حقوق الجماعة ؛ وذلك أمر فرضي ، لأن النظرية
ترى أنه لا يمكن أن تتعارض مصلحة الفرد الحققة مع مصلحة الجماعة الحققة .
والحرية الفردية في الحركة ، وفي العمل ، وفي التعبير عن الرأي ، وفي تقدير
القيم والمصالح ، من الأغراض الرئيسية التي يجب أن يسعى في تحصيلها وفي
المحافظة عليها . ويفكر الفرد بنفسه ولنفسه ، ولا يتنازل عن مقدراته العقلية
لغيره ، أو عن شعوره وضميره ، فيدعه يفكر له ، أو يقدر له ، أو يكون
مستولا عنه ، ولو كان الجماعة نفسها .

ذلك كله حق . غير أن الحرية الكلامية والحرية في الحركة وفي الفعل
عديمتا الجدوى من غير وجود مقدرة اقتصادية تعضدهما ، وعسير تنفيذهما
كذلك . ولقد أخطأت هذه النظرية من ناحية نفسية ، حين افترضت أن
الغرائز الفردية والميول الأنانية وحدها هي البواعث على العمل . فإن الإنسان
حيوان اجتماعي ، ومزود بغرائز فردية وبغرائز اجتماعية ؛ وهو مدفوع بهما
إلى العمل لا بإحدهما فحسب . فإذا أشبع الفردية فحسب ، ظلت الأخرى في

حاجة إلى ما يشبعها . وما التضحية الشخصية عند الفرد البدائي نفسه في سبيل
المحافظة على الأسرة والقبيلة والنوع ، وما إنكار الذات ومصالحها في سبيل
تحقيق بعض الغايات الاجتماعية ، وما الإيثار وتفضيل الغير عند الخمسة وغيرها ،
وما المجتمع نفسه وبقاؤه ، وما عواطف الشفقة والحب والإحسان ، وما النطق
نفسه في الإنسان ، وما التفكير وتطوره ، إلا مظاهر لعمل الغرائز الاجتماعية
في الإنسان . فالإنسان بطبيعته فرد اجتماعي ، وليس أحدهما فحسب ، ولا تتحقق
رغباته ولا ترضى غرائزه بالإيثار أو الأثرة ، ولكن بإشباع الناحيتين . فالقول
بأن الفرد أناني فحسب قول ينكره الواقع وتنفيه طبيعته .

٢ — المذهب الجمعي :

يرتبط هذا المذهب الاجتماعي ارتباطا وثيقا بالفلسفة المثالية التي ترى ،
في جملتها ، أن الحقيقة الكاملة هي الكل الكامل ، أو الكل المطلق الذي
لا كل بعده ، وأن الموجودات تختلف ، في مقدار ما فيها من حقيقة ، بمقدار
قربها من ذلك الكل المطلق أو بعدها عنه . فكما كانت أكثر عموما وأوسع
دائرة كانت أقرب من غيرها إلى الكل المطلق ، أو إلى الحقيقة الكاملة ،
وكانت بذلك أكثر حقيقة منه . ولما كانت الجماعة أكثر عموما وشمولا من
الأفراد كانت أقرب للحقيقة منهم ، وكان حظها من الحقيقة أكثر من حظهم منها .
ولذا استحققت الاعتبار دونهم ، أو استحققت ، على الأقل ، اعتباراً أكثر مما
يستحقون . فالجماعة هي الحقيقة ؛ وأما الأفراد فهم تجريد منها ، وهم صور من
صورها ومظاهر من مظاهرها . وأما تصرفاتهم ، وأما تفكيرهم وإراداتهم وكل

حركة يعبرون بها عن أنفسهم ، فليست في الحقيقة إلا مظاهر لإرادة الجماعة وتفكيرها ومشيتها . فالفرد آلة عمياء تقوم بتنفيذ رغبة الجماعة وإرادتها وكل ماتراه ضرورى التنفيذ . وأفعاله كلها أثر للوراثات العضوية التى انتقلت إليه من الأسلاف ، وللتجارب الماضية القريب منها والبعيد ، ولعمل البيئة الحاضرة . وليس فيه شىء نفسى بعد ذلك غير متأثر بالبيئات الخارجية ، اللهم إلا أن تكون قوة مجردة لا تمت إلى المادة بصلة ، وهى ما قد يسمى « هو فى ذاته » ، بيد أنا لا نعرف عنها شيئاً ولا نقدر أن نعرف عنها شيئاً .

ولاشك أن الفرد يرث عن آباءه وأسلافه غرائز وميولاً تهديه إلى نوع معين من التصرف وأسلوب خاص فى الحياة يتناسب معه . بيد أن هذه الميول الموروثة لم تكن فى الأصل من الأمور المكوّنة لطبيعة الإنسان ، لأنها أثر لانفعال الأسلاف بقوى البيئات الغابرة التى عاشوا فيها أو سبقت وجودهم . فلقد ضغطت قوى البيئات الغابرة على القوى الكامنة فى الأسلاف ، فوجهتهم نحو نوع خاص من التصرف وأسلوب خاص من العيش يتناسب مع الأوضاع التى كانوا يعيشون عليها . ثم أصبحت هذه الحلال والميول ، بطول العهد وتقدم الزمن ، من المعانى النفسية للفرد التى تنتقل منه إلى الأعقاب . فلا ترجع الاختلافات الموجودة بين الأفراد والأنواع والجماعات فى أصلها إلى الأفراد الذين يظهرونها ، ولكنها ترجع إلى الحالات الاجتماعية وإلى الوراثة وإلى الطبيعة الجغرافية . أو بعبارة أخرى ، لا ترجع هذه المفارقات إلا إلى الحقيقة الموجودة خلف الأفراد ، أو إلى الجماعة . وتلك الجماعة هى الموجه الأول للعقل الفردى ، وهى التى تدفعه نحو أسلوب معين من الحياة ، بما فيها من تقاليد وعادات وقوانين .

فهى التى تكون النوع الخاص من تجاربه ، والكيف الخاص من عاداته وأخلاقه . أو هى التى تجعله فردا له تجارب وله شخصية وتاريخ .

ولكن ينبغى أن نلاحظ أن أرباب هذا المذهب لا ينكرون قوة الابتكار والابداع فى الأفراد بهذا القول . فقد يجدد الفرد وابتكر ، وقد يرى أسلوبا من العيش جديدا يكون أكثر سموا من التراث المأثور والعادات الموجودة . بيد أنهم يقولون ان القوة النفسية التى تلهمه هذا النوع من الابتكار ليست قوته الفردية ومقدرته الشخصية ، ولكنها أثر لدوافع خارجية ؛ ألا وهى « روح الجماعة » التى ملكته فى تلك اللحظة المعينة ، وتغلبت عليه ، فوصلت عن طريقه إلى هذا الكشف الجديد . فهو مظهر لعمل روح الجماعة فحسب ، وهو القالب الذى لبسته روح الجماعة عند الابتكار فحسب . وقد يقال حقا إن التجديد لم ينشأ إلا عن قوة نفسية للفرد المجدد ، وعن إدراك منه دقيق لطبيعة العالم الذى يعيش فيه ولما فيه من محاسن ومساوئ ، وعن مقدرة على تصور المستقبل حاضرا ، وتخيل حياة مستقبلية ذات أوضاع خاصة ، ثم مقارنة هذه الأوضاع بعضها ببعض ، واستخلاص الأصلح منها . بيد أن ذلك كله ليس إلا من عمل البيئة . فليست القوة النفسية التى تحلى بها وأدرك بها ذلك الأسلوب الجديد من الحياة ، وليست المقدرة على تخيل نوع جديد من العيش ومقارنته بالحاضر ، وليس كل ما جعله هذا النوع الخاص من الفرد ، إلا نتيجة لعوامل الوراثة والبيئة . فهو آلة أو مظهر « روح الجماعة » الحاضر منها والغابر ، وليس له قوة فردية ذات إبداع وابتكار .

ولما كانت الجماعة هى الحقيقة كان من الطبيعى أن يتحدث أرباب هذا

المذهب عن « عقل الجماعة » أو « روحها » أو عن « الإرادة العامة » لها ،
أو عن « العقل السكلى » ، كأنه شيء موجود حقا ، ومغاير لعقول الأفراد
الذين تتكون منهم الجماعة . فليس العقل الفردى ، إلا جزءا من مجموعة الأفكار
السكلية التى تكون الحياة الثقافية للجماعة ، أو مظهراً لتلك المجموعة . فهو
متوقف فى وجوده عليها . وأما العقل السكلى فهو حقيقة فى نفسه بقطع النظر
عن هذا الفرد أو ذاك ممن يساهمون فيه ؛ أو أنه ، على الأقل ، أقرب إلى الحقيقة
من العقل الفردى ، لأنه أكثر منه عموما . فيمكن اعتبار الجماعة عقلا كبيرا
قد تكون من خليات شتى ، وهى عقول الأفراد . وهذا العقل الكبير هو الذى
يتملك الأفراد ويوجههم فى تصرفاتهم الاجتماعية والفردية .

ويتبع هذا الشرح للجماعة ، أو يسير معه جنبا إلى جنب ، نظم سياسية
وقوانين للسلوك ومثل عليا ، يجب على الأفراد أن يخضعوا لها فى سلوكهم مع
الجماعة . وهى تناقض تلك التى رأيناها فى المذهب الفردى . فلقد كان الخير كل
الخير هناك ، كما رأينا ، أن يوجه المرء كل جهوده الفردية وقواه الشخصية نحو
تحقيق ما يعتقد أنه أكثر نفعا له وتحقيقا لمصالحه ، معتقدا أنه بارضاء ميوله
الشخصية واشباع غرائزه وخدمة مصالحه ، يخدم الجماعة على أحسن الوجوه
وأكملها . وأما هنا ، فالخير كل الخير أن توجه جهود الفرد وقواه نحو ما هو
خير للجماعة ، على اعتقاد أنه بتحقيق أغراض الجماعة ، يحقق أغراضه الشخصية
ومصالحه الفردية . ولما لم يكن إلا جزءا من كل حقيقى أو مظهرا له ، لم يكن له
أن يتحكم فى أخلاق الجماعة وعاداتها ، لأنه ليس له من المقدرة ، وهو جزء ، ما يمكنه
من أن يرى وجهة نظر الكل ، ويدرك غايته ؛ فلا بد أن تكون أحكامه قاصرة

وسقيمة عليه . لذلك كان من الخير للفرد وللجماعة أن يتجلى الفرد بالطاعة والرضا بما أوتي من أعمال ، وأن يؤدي وظيفته الاجتماعية على أحسن الوجوه وأكملها في حدود المركز الذي وضعه فيه القدر ، أو وضعته فيه الجماعة .

والكن ليس معنى هذا أن يبقى الناس جميعا في الساقية، منتظرين أن توجه إليهم الأوامر وتحدد مراكزهم بالجماعة، فذلك أماراة الانحلال، ونوع من الفناء لا يمكن أن تنهض به جماعة . فلا بد أن يكون من بين أفراد الجماعة أفراد قد تحلوا بمواهب وقوى طبيعية ، ولهم من إلهامهم القوى ، وروحهم الصافية ما يمكنهم من أن يروا حاجات الجماعة ، ويدركوا آلامها وآملها، ويتبينوا أهدافها ، فيقودوها على الصراط السوي إليها ، ومن أن يساعدوها على النهوض بها في ثقافتها ، وعلى المحافظة على كيانه ووحدةها . وهؤلاء هم أرباب الحل والعقد ، وهم المعبرون الطبيعيون عن « روح الجماعة » ، وهم العقل الحقيقي للجماعة . فهم أهل الزعامة والرياسة وأولوا الأمر والنهي . وأما غيرهم فأهل الخضوع والانقياد والطاعة العمياء . وبعبارة أخرى ، ان « روح الجماعة » لا تشمل إلا في أفراد قلائل ، فينبغي الخضوع لهم والوقوف عند توجيههم . وبهذا ينقسم الناس إلى طائفتين بالطبيعة ، توجه أحدهما وتوجه الأخرى .

والغريب في هذه النظرية من ناحيتها السياسية انه يمكن ان يستغلها نوعان متباينان من الأفراد ، ويمكن ان تشهد للحكومات القائمة وللثورات عليها . فلا شك أنها تناسب الحكومات الفعلية للأفراد التي تعتبر نفسها المعبر الحقيقي عن « روح الجماعة » ، وبهذا تكون نظرية محافظة تدعو إلى الإبقاء على الحكومات الفردية القائمة ، لأنها أولى الناس بالتعبير عن « روح الجماعة » .

ولكنها ، مع ذلك ، تناسب الثوار على القديم الذين يزعمون أن لهم رسالة يعيدون بها مجد مجتمعاتهم وينهضون بها إلى المستوى اللائق بها ، والذين يرون أنهم المظهر الحقيقي « لروح الجماعة » ، لأنهم أقدر من غيرهم على تصور آلامها وآمالها وبناء مستقبلها . وبذا تكون نظرية ثورية تدعو إلى التحلل من القديم ، وتتطلب من الجماهير أن تخضع للنظم والقوانين التي يسنها هؤلاء الثوار ، وتطيعها طاعة عمياء . ونظرية « هيجل » أوضح مثل لذلك . فقد كانت نظرية مثالية تناسب قوانينها الخلقية الحكومات القائمة فعلا ، ولكنها غدت بفعل « كارل ماركس » نظرية مادية تناسب قوانينها الخلقية الثورات التي تقلب هذه الحكومات . وذلك وحده كفيل بأن يبين لنا القيمة الحقيقية لهذه النظرية ، وأنها عديمة الجدوى كنظرية تطبق في الحياة العملية .

وكما أن النظرية الفردية شجعت الاثرة إلى حد كبير ، وقوت الروح الفردية في الجماعة تقوية أدت في النهاية إلى انحصار السلطان في أيدي الاغنياء وارباب الاموال ، فان هذه النظرية شجعت كثيرا من الطموحين على ان يدعوا لأنفسهم شيئا من القداسة وقوة الالهام ، وعلى ان يصفوها بكثير من الصفات التي لا يكاد يتصف بها إنسان . وبذلك يرون لأنفسهم حقا شرعيا وطبيعيا يخول لهم التحكم في الجماعة والتسلط عليها ، فيصبحون حكاما مطلقيين . وقد يكون لها اثر عكسي على الجانب الآخر ممن لا يؤمنون بأنهم اتصفوا بمثل هذه المواهب ، فتشجع بعض الافراد ، او الجمهور من الجماعة ، على ان يتهاون في استعمال مواهبه الطبيعية ، وعلى ان يقبل ، من غير روية وتدبر ، كل ما يوحى به الزعماء والرؤساء فيصبح آلة عمياء من غير ضمير يزجره او عقل يوجهه .

٣ — النتيجة :

ولسنا الآن في حاجة بعد هذا البيان أن نقف طويلا ناقدين هاتين النظريتين، النظرية التي تقدر الفرد على حساب الجماعة ، والنظرية التي تقدر الجماعة على حساب الفرد ، ومبينين كيف أن كل واحدة منهما قد بنت فلسفتها الاجتماعية على أسس « سيكولوجية » خاطئة . فانه من المسلم به أن الفرد يولد مزودا بكثير من الميول والغرائز ، وله مع ذلك شخصيته الناشئة عن فعله الاختياري وإرادته . فمن أغفل واحدة منها فقد أغفل ناحية مهمة من نواحي الإنسان . وليست مهمة الجماعة الإنسانية قتل الميول والغرائز في الأفراد ، ولو حاولت ذلك لكان نصيبها الإخفاق ، أو لأعدمت هؤلاء الأفراد . ولكن تنحصر مهمتها في تهذيب هذه الميول وتعديل عمل الغرائز الاجتماعية والفردية . والإنسان ، بعد هذا ، أناني بطبيعته . ولا يقدر على إشباع أنانيته إلا بإشباع ميوله الاجتماعية ، ولا يكمل من شخصيته إلا ضمن بيئة اجتماعية قد تبادلت معه المصالح والرغبات ، واستجابت له واستجاب لها . وإن شئت فقل انه لا يكمل إلا إذا أُرْضيت كل ميوله واتجاهاته الطبيعية ، فترضى غرائزه الفردية مع الأخرى الاجتماعية . ولو أغفلنا هذه أو تلك لأوجدنا أفرادا معاندين لنا بطبيعتهم ، ومنتهزين سنوح الفرص لهدم نظام لا يسمح لهم بتنفيذ مقتضيات غرائزهم ، وبذلك تنهار الجماعة ، فلا « اجتماعية » ولا « فردية » .

وانه لمن العسير ، إن لم يكن من المحال ، أن يبرهن على أن الفرد هو الحقيقة الموجودة فحسب ، أو أن الجماعة هي الموجود الحق فحسب . فما الجماعة إلا الأفراد المجتمعة ، وليس هناك شيء وراء الأفراد يمكن أن يسمى جماعة ؛ وما الأفراد

إلا الجزئيات - لا الأجزاء الداخلة في تكوين الجماعة . فإذا انهار هذا أو ذاك فقد انهار البناء كله . فالجماعة الأفراد ، والأفراد الجماعة . وعلى هذا الأساس يجب أن تبني النظم الأساسية والعلاقات الاجتماعية والقوانين الخلقية . فكلاهما حقيقة واقعة ، وهما بعد ذلك حقيقة واحدة . والمقابلة اعتبارية وليست حقيقية . وليس العناد بين الأفراد والجماعة ، ولكنه قد يكون بين الفرد والفرد في الجماعة ، أو الفرد وسائر الأفراد من الجماعة .

وأخيراً ، ليس هناك من برهان على وجود شيء خارجي زائد على الأفراد يسمى « عقل الجماعة » أو « روح الجماعة » أو « ارادة الأمة » . نعم قد تتصرف الجماعة كوحدة عقلية وعضوية ، وتشعر بشعور واحد مشترك . ولكن ليس معنى هذا أن لها عقلاً آخر غير عقول أفرادها . وأما تصرف الأفراد في الجماعة تصرفاً يختلف عنه في ظروفهم العادية فيمكن فهمه من ناحية نفسية أخرى أقرب من هذا الفرض إلى الصواب . فيفسر ، كما ذكرنا آنفاً ، بأن الفرد في الجماعة قد يتصرف تحت ضغط بعض الدوافع التي تثير فيه ما يسمى « بالمشاركة الوجدانية » ، كعدوى التشاؤم سواء بسواء . فيميل الفرد بطبيعته في مثل هذه الظروف نحو مشاركة الآخرين في انفعالاتهم وأفعالهم ، ويكون حضور الجماعة عاملاً مثيراً لغريزة المشاركة هذه ؛ فهو ، حين ينفعل ، لا ينفعل إلا لوجود تلك الدوافع الطبيعية .

ولا شك أن هناك كثيراً من الآراء الاجتماعية الناشئة عن احتكاك العقول بعضها ببعض ، ولكنها نتيجة لاقتراح بعض العقول الفردية . فيظهر رأى من الآراء ، فينقده أحد العقول ، ويمحصه ثالث ، ويهذب به رابع ، وهكذا ، حتى يختمر الرأى وينضج ، ويبدو صالحاً لأن يوجههم في حياتهم العملية . فتقبله العقول ،

وتشارك في تنفيذه ، لا لأنه نتاج عقل أكبر من عقول الأفراد ، أو شيء وراء عقولهم ، ولكنه ثمرة عقولهم حين انتفعت بتجارب بعضها بعضا ، واستغل كل مواهب العقول الأخرى . فهو نتاج عقول فردية لأفراد الجماعة كلها أو بعضها .

مراحل الشعور بها

قد رأينا أنه من الشروط الأساسية التي يتوقف عليها تحقيق مانسميه جماعة أن يوجد عند الأفراد نوع من الشعور بها وبأهدافها ، فيشعر المرء بنفسه وبأنه بين جماعة ذات صلة محدودة به ؛ فإذا لم يوجد ذلك الشعور لم تتحقق الجماعة بالنسبة للفرد . ويتحدث العلماء عن مراتب لهذا النوع من الشعور . فيتحدثون عن مراحل للشعور الفردي الذي يوجد عند المرء نحو الجماعة التي يعيش بينها ، والذي يكيف أعماله فيها ، ويحدد تصرفه نحوها ، ويذكر أنواعا متميزة من الإدراكات يمكن أن نرجعها إجمالا إلى ثلاثة أنواع ، ونسميها : عقلية الجماهير ، والعقلية الفردية ، والعقلية المثلى . ونعني بالأولى تلك الحالة النفسية التي تملك المرء حين يكون بين جماعة نائرة غالبا ، فتجعله فردا غير عادي في تفكيره وتصرفه ، وعاجزا عن أن يظهر شخصيته ؛ ونعني بالثانية تلك الحالة النفسية التي تجعل المرء يتخذ نفسه مركزا أساسيا لتفكيره ولا تنبأه مهملا ، إلى حد كبير ، الجماعة التي يعيش بينها ؛ ونعني بالثالثة تلك الحالة النفسية التي تجعل الإنسان يشبع كلا من غرائزه الفردية والاجتماعية ، ويرضى نفسه والجماعة التي يعيش بينها ؛ وهى العقلية القمينة بالإنسان .

ولسنا نريد الآن أن ندخل في نقاش حول تعرف ما إذا كانت هذه العقلية المتميزة مراحل تطور طبيعي في الأفراد وفي الجماعات ، فتبدأ من العقلية الأولى في الجماعات البدائية والجمعيات الساذجة ، وتترج في الرقي حتى تصل إلى العقلية الأخيرة في أرقى الجماعات المتمدينة حضارة ، أو كانت درجات متعاقبة من الشعور يظهرها الأفراد جميعا في تصرفاتهم عند المناسبات المختلفة . غير أن هذا لا يمنعنا من أن نذكر ما نراه حقا في هذا الموضوع من غير أن نقدم عليه برهانا . وهو أن هذه الحالات من الشعور ليست مراحل يتدرج فيها المرء في بلوغه الكمال الإنساني ، ولكنها حالات يظهرها كل فرد من الناس عند المقتضيات المتعددة ، ولا يثنيه عن واحدة منها أنه بلغ من الحضارة أوجها ، أو أنه لا يزال في مهد الحياة البدائية . ولقد كان ذلك شعور الرجل البدائي ، وهو لا يزال شعور الرجل المتمدين . وإنا لنشاهد العلماء والجهلاء على السواء يتصفون أحيانا بهذا الشعور وأحيانا بذاك ، من غير أن تمنعهم ثقافتهم من السقوط إلى عقلية الجماهير ، أو يقف جهلهم عقبة في سبيل وصولهم إلى أعلى مراحل الشعور الجمعي الحق ، وهو الشعور الإنساني . فهذا العالم المتبحر الذي يلجأ إليه في المهمات ، ويفنى حياته مجاهدا في سبيل الأمة ، لا ينبغي على ذلك جزاء ولا شكورا ، كثيرا ماتتملكه عقلية الجماهير ، عند ما يثار ذلك الشعور منه ، فيشارك غيره ، عن غير قصد ، مشاركة وجدانية فطرية ، ويتصرف كما يتصرف أقل فرد في الجماعة . وكثيرا ما يكون أنانيا حتى في تضحيته .

ولكن لامراء في أن بعض هذه المراحل أرقى من بعض من الناحية الاجتماعية ، وأكثر نفعا للفرد وللبيئة . فعقلية الجماهير ، التي لا تظهر فيها

المميزات الفردية ، والتي تتغلب فيها النزعات الوجدانية ، تعتبر أدنى الدرجات ؛ وهى إلى جماعة الحيوان أقرب منها إلى الجماعات الإنسانية . والعقلية الفردية خير من سابقتها ، لأنها تبرز الشخصيات المتميزة ، بيد أنها لا تشبع غرائز الإنسان الاجتماعية ، ولذا كانت أقل درجة من الشعور الأخير الذى هو المثل الأعلى للجماعة الإنسانية ؛ وفيه يكون كل فرد شاعرا بشخصيته وبشخصية غيره ومقدرا لقيمه ولقيم غيره ؛ وبذا تكون الثقة متبادلة ويكون الانسجام كاملا . وإذا ما وصلت الجماعات الإنسانية إلى تلك الغاية فقد حققت أسمى نوع من أنواع الحياة الاجتماعية الممكنة للإنسان .

١ — عقلية الجماهير :

قد يكون من الواضح الآن بعد كل ما ذكرنا فى شرح طبيعة الجماعة أننا لا نعنى بعقلية الجماهير عقلا عاما يوجد حين يجتمع الناس فى صعيد واحد ، فيتملكهم جميعا ، ويوجههم فى حركاتهم وتصرفاتهم ، ولكننا نعنى بها عقلا فرديا ، أو شعورا فرديا ، يتصف به بعض الأفراد حين يكونون بين جماعات تريد أن تتجه اتجاهها معيننا . وهنا يشعر المرء بحضور الجماعة ككتلة تحيط به ، فلا يكاد يميز فيها فردا بعينه ، بل لا يكاد يتوجه انتباهه إلى الأفراد أنفسهم ، إلا إذا كانت لهم أهمية خاصة فى الحياة العقلية للجماعة ، وفى تكييف اتجاهاتها ورسم سياستها . ولا يتوجه انتباهه ، مع هذا ، إلى هؤلاء الخواص كأفراد ، ولكن كمثيرات تشير منه انفعالا خاصا ، وبواعث تبعثه على أن يؤدى فعلا معيننا أو يقوم بحركة خاصة . فشعوره كله مركز نحو متابعة الجماعة فى أقوالها

وأفعالها؛ وكثيرا ما يتابعها بسبب المشاركة الوجدانية الفطرية فحسب ، من غير أن يكون له تفكير سابق ، أو رغبة في إرادة المتابعة ، بل يجد نفسه هكذا منساقا للمتابعة .

ومن البديهي أن الأفراد جميعا لا يصلون بالضرورة إلى هذه الدرجة ، فقد يكون بينهم من هو حاضر الذهن ، وشاعر بنفسه و بشخصيته و بكثير ممن حوله من الأفراد . ولكن على الرغم من شعوره هذا ، وعلى الرغم مما يبديه من مقاومة ، فإنه كثيرا ما يعيل أخيرا نحو عقلية الجماهير ، فيحذو حذوها ، ويتصرف بتصرفها . ويجد نفسه مضطرا ، تحت ضغط عوامل نفسية لا يقدر على دفعها وفهمها ، لأن يجارى الجماعة فيما تقول وفيما تفعل ، فيتنازل عن عقله وتفكيره ومسئوليته الخلقية ، ويتقبل كثيرا من الأفكار الضعيفة ، وخاصة ما توجه منها نحو الوجدان ، فأثاره ؛ وكثيرا ما يقوم ببعض الحركات التي قد لا يفعلها وهو في ظروفه العادية . وذلك لأن تصرفاته ليست في الواقع مظهر إرادته واختياره ، أو أثرا لشخصيته ، ولكنها مظهر لإرادات أخرى وشخصيات أخرى دعتة فاستجاب لها . فهو منفعل تنفذ الجماعة أغراضها عن طريقه ، وإن بدا فاعلا مختارا . وهو ، في جميع تلك الحالات ، غير شاعر بأنه مغلوب على أمره ، ومضطرب لأن يتابع الجماعة . وعلى الرغم من أنه إنما يقبل بعض الآراء دون بعض ، لأنه رأى الجماعة التي هو منها ، فإنه مقتنع في ذلك الوقت بأنه لم يفعلها إلا لأنه المنطق الوحيد الذي تدعو إليه الحالة ، والذي يخدم مصالحه الشخصية ، أو مصالح الجماعة نفسها .

وتغلب تلك الحالة من الشعور الجمعي على الجماعة أوقات الإحن والثورات ،

أو التظاهر المشترك لأمر من الأمور . فتتغلب في أوقات الثورات السياسية أو الاقتصادية ، أو ثورات بعض الطبقات ضد بعض ، وتكون هي الشعور القوي للمتظاهرين جميعا ، وإن كانوا لا يدركون ذلك . وبعبارة أخرى لا تتغلب تلك الروح ، وتكون الدافع إلى الحركة إلا في الجماعات التي اقد تسمى جماعات مؤقتة ، أو الجماهير من الجماعات الدائمة حين تشور مؤقتا بقصد تحقيق غرض من الأغراض المشتركة . وسنشير إلى الفرق بين الجماعات المؤقتة والجماعات الدائمة وخصائص كل منهما بعد ذلك .

ولا شك في أن تلك الحالة من الشعور أدنى مراحل تطور حياة الفرد وحياة الجماعة ، لأنها إحدى المظاهر النفسية لفعل الغرائز الاجتماعية في الإنسان التي لم يدخلها شيء من التعديل والتهذيب . وفيها يكون المرء مغلوبا على أمره ، ومنذفعا إلى كل ماتوحى به وجداناته من غير روية وتفكير . فلا تظهر فيها شخصيته أو فرديته التي هو بها إنسان . ولذا كانت أكثر مناسبة للحيوانات ذات الغرائز الاجتماعية منها إلى الإنسان .

٢ — العقلية الفردية :

وهي تلك الحالة النفسية التي لا يكون الفرد فيها مدفوعا إلى العمل بغرائزه الاجتماعية ، أو مغلوبا بشعور الجماعة ، أو بانفعالات وجدانية ، ولكنه يعمل بشيء من التفكير والروية ؛ بيد أن الدافع الأصلي هو غرائزه الفردية وميوله واتجاهاته الشخصية . فهو مدفوع دفعا أنانيا بغرائزه الفردية التي دخلها شيء من التهذيب والتعديل . فيشعر الفرد في الجماعة بنفسه كشخص له واجبات

وحقوق ومطالب وأغراض ، وله قوى تدعوه إلى إثبات وجوده وتقرير ذاته وإحاطتها بمظاهر المنعة والقوة ؛ ويشعر كذلك بالأفراد الذين يوجدون حوله ، ولكنه لا يعيرهم كثيراً من الاهتمام ، ولا يوجه عنايته ، ولا يركز اهتمامه إلى على نفسه وأغراضها . ولكنه قد يشعر مع ذلك بالعطف على كثير من أفراد الجماعة ، وقد يساعدهم ويحسن إليهم ، وقد يبدو مضحياً في كثير من الحالات ، ولكن الدافع له في جميع الحالات هو نزعاته الفردية . فهو يفعل هذا أو ذاك ليحيط نفسه بسياج منيع الجانب من القوى الأدبية أو المادية . فهو أناني في أثره وفي إثارة .

ولا شك في أن هذه المرحلة أكثر تطوراً من سابقتها ، لأنها تبين شيئاً من المقدرة الذاتية والشخصية الإنسانية ، ولأن الدوافع فيها قد ارتقت عن أن تكون دوافع فطرية فحسب ؛ إذ أنها غرائز فطرية قد تهذبت ، وتحدد لها غرض مقصود ، وراء مجرد الدوافع الغريزية التي هي تقرير الذات والمحافظة عليها . بيد أنها لاتزال أقل مما يرجى للإنسان من كمال ، وأقل من أن تشبع اتجاهات الإنسان كلها . فالإنسان الأناني ناقص وشاذ ، فلا يرقى به مجتمع ، ولا تكمل له شخصية ، كما أن الإنسان المؤثر كل الإيثار كذلك . والمجتمع الناهض هو المجتمع الذي يتكون من شخصيات مثلى ؛ وهى الشخصيات التي احترمت ذواتها واحترمت غيرها من الذوات ، وآمنت بحقوقها وبحقوق غيرها ، وعملت حقاً لاعطاء كل ذي حق حقه . وتلك هى المرحلة الأخيرة للتطور الإنساني في الجماعة . ولكن ينبغي أن نلاحظ أن جمهور الناس وغالبهم مدفوع ، في كثير من الأحيان بالنزعات الفردية ، وأن الاتجاهات المسماة بالاتجاهات المثالية ،

وباتجاهات التضحية ، إنما تفعل غالباً بدافع الأنانية المحضة عند بعض الناس ،
وبدافع المصالح الاجتماعية ، لأنها أيضاً مصالح فردية عند كثير منهم ، ولا تفعل ،
لأنها المثل الأعلى ، إلا بالخواص الذين يكادون يعدون على الأصابع في كل عصر
من عصور التاريخ ، أو لا يكادون يوجدون في بعض عصوره . فالدافع ، غالباً ،
هو الاتجاه الشخصي ؛ والمواطن الطيب هو الذي لا تخالف أنانيته مطالب
البيئة الاجتماعية التي يعيش فيها ، بل يتنازل عنها كلها ، أو يوفق بينها وبينها .

٣ — العقلية المثلى :

وهنا لا يكون المرء مدفوعاً إلى الحركة بوجداناته مشاركة للجماعة الثائرة ،
أو بغرائزه الفردية واتجاهاته الأنانية ، ولكنه يعمل بدافع الغرض الاجتماعي
الذي جعل من الأفراد جماعة ، والذي يحقق مصالح الفرد ومصالح الجماعة .
فيعترف الفرد بنفسه وبغيره وبالهدف المشترك وبما بينه وبين غيره من علاقات .
ولا يحترم نفسه أو زوجه مثلاً فحسب ، بل يحترم النفوس الأخرى والزوجات
الأخريات ، ويحترم الزوجية كذلك ؛ أو يحترم كل العلاقات الاجتماعية التي
يراها المجتمع قيمة بالاعتبار . ولا يمكن ليس معنى هذا أنه لا يمكن أن يوجد شيء
من الخلاف أو العناد بين أفراد مثل هذا المجتمع ، فإن ذلك أمر يكاد يكون
محالاً في أي مجتمع من المجتمعات الإنسانية ، وقد يكون الخلاف والتشاحن
والتعاند أمانة الحيوية في الجماعة ؛ وقد يكون ضرورة توحى به مصلحة الجماعة .
بل المراد أن الخلاف مهما اشتد بين الأفراد في مثل هذه الجماعة لا يمكن إلا أن
يكون خاضعاً لهدفها الأسمى وغرضها الرئيسي ، فيختفي ، أو يكمن ، حين يهدد

ذلك الغرض الأسمى ، وترجع الوحدة والانسجام ؛ فهو اختلاف يهدف نحو تحقيق الغرض المشترك ، شأنه في ذلك شأن حالات الائتلاف . فالباعث على الائتلاف وعلى الاختلاف هو المصلحة العامة ، لا الأغراض الفردية .

وتلك ، ولا شك ، مرحلة عليا من مراحل تطور العقل الإنساني وتطور حياة الجماعة . وذلك لأن الفرد لا يحتفظ فيها بشخصيته فحسب ، بل يجد نفسه في وضع يكون فيه من العوامل التي تساعد الآخرين على الاحتفاظ بشخصياتهم ، وعلى النهوض بها حتى تبلغ كل ما يمكن لها من كمال ، ويكون فيه من الأشخاص الذين يجدون من البيئة كل عون ممكن حتى يبلغ الهدف الذي ترمى إليه ذاته . وما دامت المساعدات متبادلة ، وما دامت المصالح مشتركة ، وشعر الأفراد بها على هذا النحو ، وما دام الأفراد يؤمنون بأن مصالحهم الفردية منسجمة مع مصالح الجماعة ، وأنها لا تقضى إلا بمساعدة الجماعة ، ويعملون على هذا الأساس ، فستتطور القوى النفسية لكل فرد في الجماعة وتقوى ، ويصبح أكثر قدرة على إشباع رغباته وقضاء حاجاته من ذي قبل . وتكون الجماعة كذلك مقضية الحاجات ومشبعة الرغبات . وذلك هو خير ما تصبو إليه الجماعات الإنسانية .

أنواع الجماعة

قد رأينا أن كلا من الاجتماع المصادفي والاجتماع الجغرافي لأى عدد من الناس لا يحقق لهؤلاء الناس وصف الجماعة ، ما داموا غير مجتمعين اجتماعا نفسيا ، وغير شاعر بعضهم ببعض ، وبالهدف المشترك الذي يرمون إليه جميعا . فالذى يكسب الأفراد من الناس وصف الجماعة هو وحدة الهدف مع الاجتماع

المكانى . بيد أن الأهداف التى ترمى إليها الجماعات يمكن أن تكون أهدافا مؤقتة وأن تكون أهدافا دائمة ؛ فتوجد الأولى جماعات مؤقتة ، وتوجد الثانية جماعات دائمة . وبذا أمكن تقسيم الجماعة إلى جماعات مؤقتة وجماعات دائمة . فإذا ما اجتمع الأفراد بقصد الدوام والاستمرار ، ولتحقيق غرض يبقى مقصودا ومحتاجا إليه ما دام الإنسان ، فالاجتماع دائم ، والجماعة أبدية ما دام الإنسان . وتلك هى الجماعات الانسانية الطبيعية من أسرة ، وقبيلة ، وشعوب ، وأمم . ولكن قد تتكوّن من هذه الجماعات الدائمة جماعات أخرى لتحقيق غرض خاص ، أو لتنتزع من الدولة حقا خاصا ؛ فتقوم طبقة العمال طالبة زيادة الأجور ، ويقوم جمهور من موظفى الدولة طالبا أن تزيد مرتباتهم ، ويقوم بعض المصلحين طالبا إدخال نوع معين من مواد التعليم فى مناهج الدراسة فى المدارس . فتلك جماعات أيضا ؛ ولكن هدفها خاص ، وله غاية زمنية ينتهى غالبا بانتهائها . فهى جماعات مؤقتة ومتغيرة ؛ وهى فى حالة استقرارها وهدوئها لا تكاد تختلف فى خصائصها عن الجماعات الدائمة ؛ بيد أنها تختلف عنها حالة ثوراتها وعملها لتحقيق أهدافها لأنها ، وقت الثورة ، ذات خصائص لا يمكن أن تتصف بها جماعة ثابتة مستقرة ، اللهم إلا أن تكون وقت فوران الشعور الوطنى ، حينما يوضع موضع الاختبار ، حين يهاجم العدو ، أو تكون الجماعة محفوفة بحياتها بالمخاطر . فالجماعات التى جمعها هدف مؤقت ، أو الجماعات وقت تجمعها وثوراتها يكون لها طابع خاص وتصرف خاص ناشئ عن نوع حاد من الشعور أوجده ذلك الاجتماع ؛ وهو يخالف فى خصائصه طابع الجماعات المستقرة وتصرفاتها . ولنسم الجماعات من النوع الأول بالجماهير ، والجماعات من

النوع الثانى بالجماعات الدائمة . ولنشر ، بإيجاز ، إلى طابع كل منهما وخصائصه .

١ — الجماهير :

قد أشرنا إلى عقلية الجماهير ، وعلمنا أنه ليس هناك من عقل كلى يتحكم فى الأفراد من الناس حين يجتمعون فى صعيد واحد ، ولكنه نوع من الشعور الطارىء الذى أوجدته الحالة العارضة من الاجتماع . ولسنا نعى بالجماهير أكثر من جماعة من الناس اجتمعت فى صعيد واحد ، بغية تحقيق غرض مشترك يهمهم جميعا ، ويدفعهم إلى العمل ، فيعملون كأنهم جسم واحد . ولهذا النوع من الجماعات أمثلة شتى فى الحياة . فالمتظاهرون لأغراض وطنية أو شخصية ، والجيش حين يتحرك أو يهاج ، والأسر والقبائل حين تعترك ، والجماعات التى يثيرها خطباؤها ووعاظها ، أمثلة من هذا النوع . وكلهم يشتركون فى كثير من المظاهر النفسية ، ويتشابهون فى كثير من التصرفات ، ويعملون كأنهم مدفوعون بدافع واحد ، ومتحركون بروح واحدة .

المرء بنفسه ضعيف لا يقدر على إخضاع البيئة واستخلاص مطالبه منها ؛ فهو لا يأخذ منها إلا ما تلفظه هى ، أو تجود به عليه ، أو تسمح به قوته المحدودة . وهو ، مع ذلك ، مضطر لأن يعيش فى بيئة إنسانية لتساعده على تحقيق شيء من مطالبه ، ولتهدئ له فرصة البقاء . بيد أنه يدفع ثمن تلك المساعدة غاليل . فحريته محدودة ، وتصرفاته محسوبة عليه ، والبيئة دائما له بالمرصاد ، وقوانينها الصارمة تمنعه من تنفيذ كثير مما يقدر عليه . وبعبارة أخرى ، هو مسئول أمام

البيئة التي يعيش فيها عن تصرفاته وأعماله . ولتلك المسؤولية أهمية كبرى في بناء المجتمعات ؛ ولشعور الأفراد بها أثر كبير في تحديد أعمالهم وسلوكهم . فنحن لانعمل كثيراً مما نريد ، لأننا مسئولون عن أعمالنا ومحاسبون عليها ، إن خيراً نفيهاً ، وإن شراً فشرأ . فالشعور بالمسؤولية محدد للسلوك ومانع من السقوط الذي كثيراً ما تدعو إليه الشهوات ؛ وكذا العجز من الأسباب التي تحد من حركات المرء وسلوكه . فالشخص العادي محدود في تصرفاته بضعفه الطبيعي من ناحية ، وبشعوره بالمسؤولية من ناحية أخرى . فإذا ما تحرر من الناحيتين ، فجاءته قوة على قوته ، ولم يكن عليه رقيب ، حاول ، بقدر المستطاع ، إرضاء الرغبات والأهواء والأمال ، التي لا تخضع لشيء من محددات البيئة ومسئولياتها . وذلك هو ما يحس به الفرد في الجماهير . فيكتسب من وجوده بين الجمع قوة كبيرة (هي نتيجة قوته التي رفعها تشجيع البيئة ، وقوة البيئة نفسها) تعينه على تنفيذ أغراضه ، وتغريه بالاسترسال في ميوله واتجاهاته . ثم لا يجد ، بعد ذلك ، ما يلزمه بأن يكتب هذه الميول والاتجاهات ، ما دام الشعور بالمسؤولية غير واضح أو غير موجود . فعمل الجماعة عمل مشاع بين الأفراد ، والمسئوليات المترتبة عليه مشاعة كذلك . فلا يشعر الفرد بتبعات خاصة ملقاة عليه . وذلك يغري بالفعل ، لأن الشعور بالتبعات هو ، كما قلنا ، عنصر مهم من العناصر التي تزجر المرء عن فعل ما لا ينبغي .

وإذا كان هذا هو الشأن بالنسبة لكل فرد من أفراد الجماهير ، أمكننا أن نفهم السر في أن الجماهير كثيراً ما تتصرف تصرفات غير خلقية ، وفي أن الأفراد فيها يتصرفون تصرفاً يخالف اتجاهاتهم العادية . هذا من ناحية ، ومن

ناحية أخرى ، يجب أن لاننسى أن مجرد التجمهر كفيل بأن يشير عند الإنسان كثيرا من غرائزه الفطرية (وهى أبعد ما تكون ، فى تصرفها واتجاهاتها ، عن التصرف الذى تقتضيه المدينيات والمنطق المتزن) ، ومنها المشاركة الوجدانية التى تجعل المرء يشارك غيره فى انفعالاته ، على الرغم من إرادته ؛ فإذا ما انفعل أحد الأفراد فى الجمهور انفعل الجمهور كله ؛ وإذا ما تصرف بعد ذلك تبعه الجمهور . لأن ثوران الغرائز - غرائز الاجتماع وغرائز المحاكاة والمشاركة الوجدانية - عند التجمهر يجعل المرء فى الجمهور وجدانيا أكثر منه مفكرا ومريدا . فتقوى فيه العواطف والانفعالات ، وتشتد كلما اشتدت فى فرد من الأفراد المجتمعين ؛ والشخص الذى تغلب عليه الوجدانات والانفعالات يكون سريع التأثر ، كما قلنا فى الحياة الوجدانية ، وسريع التقليد وسريع الحركة كذلك . وإذا كان هذا صحيحا بالنسبة للشخص الوجدانى ، وهو وحده ، فما بالك به إذا اجتمع بأمثاله فى صعيد واحد ؟ إنهم ، ولا شك ، يكونون صورة واضحة من التأثر والانفعال . لذلك لم يكن عجيبا أن نرى الانفعال الواحد يسرى فى الجماعة ساعة ظهوره بسرعة البرق ، ونرى الجمهور يهوج ويتحرك حين يتحرك أحد أفراداه .

ولذا كانت الجماهير أقدر على الحركة منها على التفكير ، شأنها فى ذلك شأن كل من خضع للانفعالات وتغلبت عليه النزعات الوجدانية . فمن الهين على المرء أن يحرك الجمهور إلى هذا الجانب أو ذاك ، أو أن يدفعه ليدمر وليخرب ، أو ليعمل الأعمال التى ما كان يقوم بها فى ظروفه العادية إلا بعد جهد عنيف ؛ ولكن ليس من الهين أن تجعله يفكر تفكيرا منطقيا ، أو يصغى إلى شىء من

هذا القبيل . ولذا كانت الجماهير أسلس قيادا لهؤلاء الذين يتجهون لعواطفها ووجداناتها دون هؤلاء الذين يتجهون لتفكيرها ومنطقها ، وأكثر استجابة لدواعي الهوى منها لدواعي المنطق ؛ فهي أقدر على التخریب منها على البناء ؛ وكثيرا ما يصاحبها الانتصار ، وتظفر بالمغانم ، ولكنها تعجز عن أن تنتفع بما غنمت ، أو تبني ما خربت . وقصارى القول أنه يمكن تلخيص الخصائص النفسية لمثل هذه الجماهير فيما يلي :

١ — تغلب الروح الوجدانية على كل الأفراد فى الجماعة ، وبالتالى ، على الجماعة ، لأنها ليست سوى هؤلاء الأفراد المجتمعين .

٢ — ضعف الناحية التفكيرية فى الأفراد ، وبالتالى ، فى الجمهور الذى يتكوّن منهم .

٣ — انزواء الناحية الشخصية فى كل فرد ، وضعف الشعور الفردى ، ليحل محله نوع من الشعور بالجماعة ككتلة واحدة لا يكاد يتميز فيها فرد عن فرد .

٤ — اختفاء الشعور بالمسؤولية الفردية عند كل فرد من أفرادها ، والشعور بالتحرر من كثير من القيود الاجتماعية .

٥ — الشعور بالقوة .

من ذلك كله يتبين مقدار الأخطار الاجتماعية التى تترتب على تغلب مثل هذه الروح على أى جماعة من الجماعات ، ومقدار صدق القضية التى تقول : إن الجماهير حمقى ، ولا تقدر على أن تتصرف فى تجمهرها تصرفا يوصف بالحسن من الناحية الخلقية . وذلك لبعدها طبعا عن التفكير ، ولتغلب الانفعالات عليها ،

ولانعدام الشعور بالمسئولية . ولكن من حسن الطالع أن التجمهر الذي تتبعه هذه الصفات من الحالات الطارئة التي تعرض للجماعات الإنسانية ، ولا تلبث أن تزول ، وأن الجماهير لا تكون من هذه الخصائص عادات وتقاليد . وكل ما هنالك هو حالات تعرض ثم تزول . فليس للجماهير عادات وتقاليد ، ولكن لها حالات وأعراض . ولا تكون التقاليد والعادات والقوانين إلا للجماعة المستقرة الثابتة ذات الطابع الخاص والشخصية الخاصة التي تميزها عن غيرها من الجماعات .

٢ — الجماعات الدائمة :

ونعني بها تلك الجماعات التي لم يجمعها هدف عارض ، أو غرض موقت ، بل اجتمعت بقصد البقاء والدوام لتحقيق غرضا باقيا ومستمر التجدد مادام الإنسان . وذلك الغرض يرجع في النهاية إلى قصد المحافظة على بقاء الذات وبقاء النوع وتهيئة سبل السعادة لها . وذلك كما في المجتمعات الإنسانية من أسر ، ودول ، وشعوب . وقد لا يكون ذلك الهدف واضحا عند كثير من أفراد الجماعات البسيطة ، وهي الجماعات التي ترتبط بروابط النسب والدم ، فيعتقدون أنهم مجتمعون لأنهم أقارب فحسب ، وليس لهم هدف وراء ذلك . ولكنه هدف لا شعوري عند أمثال هؤلاء ، وسوف لا يلبثون إلا قليلا حتى يصبح شعور يا أيضا ، ويتبينوا أن تلك المصالح المشتركة هي العامل الأساسي في بقاء المجتمعات مجتمعات ، وفي تكوين الكثير منها إن لم يكن في تكوينها كلها .

هذا ، والأسرة هي أبسط مظاهر هذا النوع من الاجتماع ؛ وفيها يتداخل الأفراد تداخلا ، يجعلهم يبدون كأنهم جسم واحد لا تكاد تميز فيه الأعضاء ،

ولا تتخصص في الأعمال ، بل يعملون جميعا ، أو يعمل القادرون منهم ، كوحدة ، في سبيل النهوض بالجميع . وهى ، على التحقيق ، أقدم أنواع الجماعات الإنسانية . فلا تخلو منها جماعة من الجماعات البدائية والمتحضرة . فهى عنصر من عناصر الجماعات الكبيرة ؛ وذلك مشاهد فى كل مكان . ولقد كانت أقرب أنواع الاجتماع الإنسانى إلى الحالات الفطرية ، ولا تزال كذلك ؛ لأنه لم يدخل فى بنائها وفى تحديد العلاقات الاجتماعية بين أفرادها مقدار كبير من التطور ؛ وليست نتيجة لقصد أو تفكير ، بل من عمل غرائز الأبوة والأمومة . ويجد الطفل نفسه فيها متأثرا بالضرورة بما فيها من علاقات ، ومرتبطا بها ارتباطا لا يجد من نفسه قوة تبيح له أن يفصمه . فالروابط فيها روابط ذاتية قبل أن تكون روابط مصالح ومنافع . فإذا ما تطورت بعد ذلك ، وهدفت إلى تحقيق المصالح المشتركة ، فهو تطور لا ياغى الروابط الذاتية ، بل يسيران جنبا إلى جنب . ولا شك أنها ذات أثر كبير فى تكوين ثقافتنا وتحديد عاداتنا وتكييف سلوكنا . وعنها تنشأ الجماعات الكبرى ؛ فتتألف الأسر وتتصاهر ، وتتضامن العشائر والقبائل ، وتتحد القبائل وتترابط ، فتتكون المجتمعات الإنسانية الكبرى ، وتوجد الشعوب والأمم . ولا شك أن قوة الجماعات واستقرارها ومثانة ترابطها تتوقف ، إلى حد كبير ، على ثبات الأسرة واستقرارها وقوة الترابط بين أفرادها . فهى الوحدات التى تتألف منها الجماعة ؛ ولا شك أن قوة المركب تتوقف على قوة عناصره .

فإذا ما تألفت الجماعة ، فإن الأسرة لا تفقد ذاتيتها وقوتها ، بل تظل محتفظة بمكانتها وتأثيرها النفسى على الأفراد . فتندمج الأسرة فى الجماعة ، وتخضع لقوانينها وعاداتها ، وتحارب من أجلها ، وتفتسب إليها ، ولكن يبقى لها ، مع

ذلك ، طابعها الخاص ، وأسلوبها الخاص ، وشخصيتها الخاصة ، ويعتقد الأفراد فيها أن ارتباطهم بالأسرة أقوى من ارتباطهم بالجماعة ، أو أكثر الزاماً منه . وذلك واضح بنوع خاص في الجماعات التي لم تبلغ شأواً كبيراً في الحضارة . إذ أن الأسر والعشائر ، في أمثال هذه الجماعات ، تمثل الوحدات والأفراد الذين تتألف منهم الجماعة ، ولا تعرف الجماعة الفرد إلا عن طريق الأسرة أو العشيرة الذي ينتمى إليها ، ولا تتعامل معه إلا على هذا الأساس . وأما الجماعات المتحضرة فتضعف فيها روابط الأسرة قليلاً ، ولكنها لا تزول . فكلما تحضرت الجماعات ، وتقدمت ، كانت وحداتها الأفراد دون الأسر والعشائر ، وكان اتصالها بالأفراد دون الأسر والعشائر ، وكان كل فرد مسئولاً أمام الجماعة بنفسه ، وعن نفسه ، ولا تسأل عنه عشيرته ، أو يسأل هو عن عشيرته . وكل ذلك يضعف الروابط البدائية للأسرة . وذلك لأن المساعدة التي كان ينشدها الفرد عند أسرته أو بيئته المباشرة قد ارتبطت الآن بما هو أقوى منهما - بالجماعة ، وأصبح الفرد يلجأ إلى الجماعة والدولة دون الأسرة والقبيلة . وكلما تقدمت الجماعات في الحضارة ، وارتقت في التفكير ، ربط أفرادها أنفسهم بجماعات أكثر عموماً من الجماعات التي كانوا يرتبطون بها من قبل . وهذا هو السر في أن العظماء لا بد أن يكونوا أوسع أفقا في نزعاتهم واتجاهاتهم من قومهم ؛ وكثيراً ما يكون منهم من هو عالمي النزعة ، ويعمل لخير البشرية كلها . وذلك هو أحد مقاييس التقدم الفكري في الجماعة ، بل أحد مقاييس رقي العقائد نفسها . فكلما كان الدين عاماً كان أكثر سمواً من غيره . والدين الذي يخاطب البشرية جمعاء ، ويعمل لاسعادها ، يكون أسمى الأديان ، وأحق منها بالاتباع .

ولكن ليس معنى هذا أن الإنسان المتحضر قد يموت فيه الشعور بالأسرة

وبروابطها، فذلك لا يكون إلا بإعدام غرائز الأبوة والأمومة فيه والغرائز الجنسية،
والغرائز الاجتماعية نتيجة لذلك . وذلك إعدام له كإنسان . فالإنسان ، مهما بلغ
من الرقي والحضارة ، ومهما كان عالمي النزعة والاتجاه ، ومهما ربط نفسه بدول وأمم
أو بالعالم أجمع ، لابد له أن يشعر بدوافع نفسية عنيفة توجهه نحو الأسرة
وحياتها ، وتنقص عليه حياته ، وتجعله شاذا في تصرفه ، ان لم يعمل لإرضائها .
لذلك تراه ، إذا ما حرمته الطبيعة من التمتع بذلك النحو من الحياة ، يحاول ،
بقصد أو بغير قصد ، أن يعوض ذلك النقص على نحو من الانحاء . وقد يكون
من مظاهر التعويض التي يبدئها ذلك الفرد شذوذه في التصرف نحو الأشخاص
الذين يتمتعون بما حرم منه من بنين أو أزواج .

فالشعور بالأسرة والارتباط بها طبيعي وجزءي ، ومن ضرورات تقدم الجماعة
كذلك . ولم يكن افلاطون على حق ، حين طلب من الحكم أن يترهبوا ، وأن
يباعدوا بين أنفسهم وبين حياة الأسرة ، فلا يكون لواحد منهم أسرة خاصة ؛
فان من لم يتذوق حلاوة حياة الأسرة ومرارتها لا يمكن أن يكون بحال ما ذلك
الحاكم الذي يبغيه افلاطون ، إذ تنقصه الخبرة والمران في بعض جوانب الحياة
من ناحية المعرفة ، وتكبت عواطفه ووجداناته ، ولا تشبع غرائزه ، فينزل عن
المستوى العادي للإنسان ، من الناحية الوجدانية أيضا . فإذا ما انحط عن رعيته
علماء ووجدانا ، فكيف يكون مشرعا ؟ وكيف يفهم آمالهم ويعمل لإرضاء رغائبهم ؟
ان بعده عن هذا لا يقل عن بعد هؤلاء الذين انغمسوا في شهواتهم الفردية ؛
فكما أن هؤلاء لا يصلحون عنده حكما لأنهم جهلاء ومغلوبون على أمرهم ،
فكذلك لا يصلح الآخرون لأنهم جهلاء وغير عمليين . فالأسرة ضرورة من

ضروريات الاجتماع، وليس لانحلال الشعور بها أو ضعفه من نتيجة إلا انحلال الجماعة، أو ضعف الروابط العامة فيها، ان قريبا وإن بعيدا .

وأما المجتمع الإنساني المكون من أسر أو قبائل أو جماعات فهو أكثر تطورا من الأسرة والقبيلة، ويبدو فيه كثير من العمل الإرادى . فالإنسان مدنى بالطبع، ومحتاج للتعاون؛ وقد لا يجد ما يشبع رغبته فى البيئة التى يعيش فيها، فيدفعه هذا إلى أن يهاجر؛ وقد لا تنهض الأسرة ولا تقوى على تحقيق رغباتها، فتضطر إلى البحث عن معين بطريق المصاهرة، أو بطريق الغزو، أو بطريق الخضوع، فتتضام الجماعات وتتآلف وتكون وحدة فيما بينها . وبمقدار انسجام هذه الوحدات وارتباط بعضها ببعض تكون قوة الجماعة، وبمقدار انصهار عاداتها وتقاليدها بعضها ببعض تكون وحدتها، وتكون شخصيتها التى تميزها عن غيرها من الجماعات .

ليس هناك من شك فى أن المرء المتنقل من جماعة لأخرى يكون كثيراً من العادات الشخصية المستقاة من هنا ومن هناك، والتى ليست فى جملتها عادات هذه الجماعة أو تلك الجماعة . وان الشأن كذلك بالنسبة للجماعات . فإذا ما اتصلت الأسر بعضها ببعض، وكونت وحدة فيما بينها، واتحدت القبائل وكونت جماعة كبرى، فإنها ستكون بالضرورة بعض العادات المشتركة والتقاليد التى يخضع لها الجميع، وستظل مع ذلك عادات الأسر والأفراد الخاصة بهم قائمة بينهم، ومحددة لسلوكهم وتصرفهم . ويتوقف نوع التقاليد المشتركة على نوع العلاقات التى نشأت بين هذه الجماعات . فإذا كانت علاقة القهر والغلبة كانت العلاقة بين الغالب والمغلوب علاقة السيد والمسود، وبين الغالبين وبعضهم وبعض علاقة المساواة،

وكذا بين المغلوبين بعضهم وبعض . ولكن يظل المغلوب مع ذلك محتفظا في خاصة نفسه بكثير من عاداته الفردية وتقاليده الخاصة ، وخاصة إذا لم يكن البون بينها وبين عادات البيئة الطارئة شاسعا . ويتوقف نوع التقاليد على الطبيعة الجغرافية والاقتصادية للجماعات المتضامة أيضا ، وعلى طبيعتهم وأذواقهم .

فإذا ما تكونت العادات ، وأصبحت عرفا للجماعة ونظاما لها ، أصبحت عرفا لأعقابها كذلك . وكلما طال بها الزمن ، وطال ارتباط هذه الجماعات وأعقابها بعضها ببعض ، تحددت العادات ، واستقرت ، وأصبحت أكثر الزاما . وحينئذ يعز نقضها أو تغييرها . وكثيرا ما هلك رجال أشداء في محاولاتهم التغيير من عادات قومهم وتقاليدهم . ولكن التغيير مع ذلك ممكن بسبب الاختلاط الثقافي بالغير وبسبب فعل الزعماء كذلك ، إذا كانت العادات المرجو تغييرها والعادات التي يراد الانتقال إليها متقاربة ، أو إذا كان التغيير في مجرى الاتجاه ، دون الاتجاه نفسه . ولكن إذا كان التغيير في ناحية أساسية ، ويعارض الميول النفسية كان من العسير تحقيقه . فالقديم دائما صنو النفس ، وعديل الروح ؛ والجماعات والأمم والشعوب تحب المحافظة على تراثها الفكري ، مهما بدا بعيدا عن المنطق في نظر غيرها ، محافظتها على بقائها .

ومن تلك التقاليد والأنظمة والعادات تنشأ شخصية الجماعة ، وتكون حياتها النفسية ، التي تميزها عن غيرها من الجماعات . فتنشأ التقاليد والعادات أولا عن طباع الأفراد المجتمعين وطبيعة تربتهم وحياتهم ، ثم تتحدد على مر الزمن وتصبح أكثر استقرارا وإلزاما ، ثم تصير بعد ذلك موجهة للجماعة ومقومة لطبايعها ومقوية لها ، وتجعل الجماعة تشعر بوجودها ككتلة متميزة عن غيرها ذات

خصائص وأهداف . وذلك الشعور - الشعور بال شخصية وبالهدف - المحدد
للاتجاه في الجماعة، والباعث لها على العمل المشترك ، هو الذى يسمى أحيانا بالشعور
القومى ، أو عقل الجماعة . بيد أنه ، كما قلنا سابقا ، لا يوجد إلا فى الأفراد الذين
تتكون منهم الجماعة ، وليس عقلا عاما مغايرا لعقول الأفراد .

وضمن نطاق هذه الجماعة توجد جماعات وجماهير : ففيها الأسر والقبائل
بما لهم من نظم خاصة وتقاليد ؛ وفيها المدارس والمعاهد ؛ وفيها الطبقات الاجتماعية ؛
وفيها المؤسسات التجارية والاقتصادية ؛ وفيها المنظمات والأحزاب السياسية ؛ وفيها
الحكومة ورجالها ؛ وفيها الطوائف المتعددة التى يتخصص كل منها فى ناحية
خاصة من نواحى نشاط الجماعة ؛ وفيها الكثير من الجماعات الموقته التى تتكون
ثم تنحل . ولكل من هذه الجماعات الجزئية خصائص تمتاز بها عن غيرها ،
ووظائف تقوم بها فى الجماعة ، ولها ، لذلك أثرها فى تكييف سلوك الأفراد
الذين ينتسبون إليها ، وفى تكوين أخلاقهم . وقد يجر ذلك إلى إيجاد كثير
من التنازع بين الجماعات والطبقات فى الأمة الواحدة ، فيؤدى إلى ضعفها
وانحلالها . وبما أن التنافس بين الطبقات والأفراد طبيعى ، كان من الخير
للجماعة أن تنظمه ، فتجعله خادما للمجموع ، وتجعل الطبقات أداة يخدم بعضها بعضاً ،
دون أن يستغل أحدها الآخر ، أو بعبرة أخرى ، كان عليها أن توجد وحدة من
المتفارقات ، وتسمح للمتفارقات أن تعيش محتفظة بشخصياتها ضمن نطاق الوحدة .
وبمقدار ذلك التوفيق بين المتعدد والواحد يكون تقدم الجماعة ورفقها . « مثل
المؤمنين فى تواددهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى عضو منه تداعى
له سائر الجسد بالحلمى والسهر » . وذلك هو المثل الأعلى لارتباط الجماعة بأفرادها ،

وارتباط الأفراد بعضهم ببعض ؛ فهم يعملون كأن لهم إدراكا واحدا وشعورا
وجدانيا واحدا ، وإن تعددت الأجسام ، واختلفت العقول ، وتباينت المصالح .

تطور الجماعة ومقاييسه

كلمة التطور في ذاتها لا تعني التقدم وبلوغ الغاية المرجوة ، أو الانتقال إلى
ما هو خير . وإنما تدل على التحول والانتقال من طور إلى طور ، أو حال إلى
حال آخر ، سواء أكان هذا النغير من مرحلة دنيا إلى مرحلة عليا ، أم كان
عكس ذلك . فالانحطاط نوع من التطور ، لأنه انتقال من حال إلى حال ، كما
أن الارتقاء نوع آخر منه ، لأنه أيضا انتقال من حال إلى حال . غير أننا
سنستعمل كلمة التطور لتدل على بعض معانيها فحسب ، وهو هذا المعنى الأخير ،
فنعني بها انتقال الجماعة إلى ما هو خير لها ؛ وبذا ترادف كلمة التقدم .

حينما نتحدث عن تطور الجماعة فإننا نعني تطورا يستدعي تقدما وتحسنا وأنها
ارتقت في مدارج الكمال إلى مرتبة أعلى مما كانت عليه من قبل . ولكن
في أية ناحية من نواحي الجماعة يكون هذا التقدم ؟ حياة الجماعات ، وخاصة
التمدينة منها ، ذات نواحي شتى : فهي اقتصادية ، وأخلاقية ، وسياسية ، ودينية ؛
وقد يكون لكل واحدة من هذه النواحي معيار خاص يقاس به التقدم والانحطاط ؛
وقد تتقدم الجماعة في ناحية من هذه النواحي ، وتبقى منحطة في نواحيها الأخرى ؛
وقد تتقدم فيها كلها ولكن بقدر ؛ وقد تبلغ درجة تقرب من الكمال في ناحية ،
وتتساوى مع الجماعات الأخرى في الرق في سائر النواحي الأخرى ، أو تنحط
عنها . فلا يحق لنا ، إذن ، أن نتحدث عن تطور الجماعة من غير تحديد
لِلناحية التي يظهر فيها هذا التطور .

هذا من ناحية ؛ ولا بد من تبين معيار الحكم ، من ناحية أخرى . فالحكم بأن هذه الجماعة متطورة أو آخذة في سبيل الارتقاء ، وبأن تلك الجماعة آخذة في سبيل الانحطاط والتقهقر ، يستدعى وجود معيار له ، يكون من اتجه إليه آخذاً في سبيل الرقي ، ومن نبذه آخذاً في سبيل الضعف والفناء ، ويكون من حصله قد بلغ السكال . وبعبارة أخرى ، ان كلا من الحكم بالنجاح والإخفاق ، والتطور والجمود ، يستدعى أن يكون هناك غرض مرجو ، وهدف ترمى إليه الجماعة ؛ فإذا أصابته كانت متطورة وناجحة ، وإن نبت عنه كانت مخففة . فما هو ذلك الغرض الأسمى الذي ترمى إليه الجماعات جميعها ؟ وما هي المثل العليا التي تبغى تحقيقها ، والتي يبلوغها أو بالأخذ في سبيلها يقال إن الجماعة قد تقدمت أو أخذت في سبيل الرقي والتقدم ؟ وهنا يخيل للباحث أنه لا يقدر على التعميم في الإجابة ، ولا يحق له ذلك . لأن القيم من المسائل النسبية التي تختلف باختلاف وجهات النظر ، وتختلف باختلاف الزمان والمكان ، وباختلاف الجماعة في عاداتها ونظمها ، وباختلاف حاجياتها ونظرتها للحياة . فليس له من سبيل ، إذن ، إلا أن يستقصى الجماعات التاريخية كلها ، ويأخذها واحدة واحدة ، فيقارن حاضرها بماضيها ، ثم يحكم عليها بما حققته لنفسها من مثلها العليا ؛ ويكون مثله في ذلك مثل الباحث في الإنسان من ناحيته الفردية ، يحكم عليه بما يجده فيه من صفات ، من غير أن يطبق صفاته على غيره من الناس ، أو يطبق صفات غيره عليه .

ومن ناحية أخرى ، لنا أن نتساءل ونقول : هل يحق لنا أن نتحدث عن تطور الجماعات وارتقائها ؟ وهل يسمح لنا الواقع بذلك ؟ فهل ترتقي الجماعات حقاً ؟

وهل تتحسن أحوال الإنسانية جمعاء كلما تقدم بها الزمن ، أم أنها لا تنتقل من حال إلا لما هو أسوأ منه ؟ تلك مشكلة أخرى تضم إلى المشكلتين السابقتين ، فتكون المشاكل التي تواجهنا في هذا الباب : هل هناك تقدم حقيقي في الجماعات ؟ وفي أية ناحية ؟ وما هو معيار التقدم ؟

أما عن الأولى فلا شك في أن هناك كثيرا من الناس الذين تجهمت لهم البيئة ، وتنكر لهم الدهر ، ولم يروا في الحياة ، كما يقولون ، شيئا يرغب في البقاء فيها ، يلذ لهم أن يتنكروا لعصورهم التي يعيشون فيها ، ويحكمون عليها بأنها انحدرت إلى المرتبة الدنيا من السقوط الخلق والأدبي ، وأن العصور الأولى كانت عصور كرم وسخاء وعطف وحب وإخلاص ، وأن العالم في انحدار مستمر وهبوط دائم . وكتب الأدب مليئة بهذا النوع من تمجيد الماضي وتفضيله على الحاضر ؛ ولقد أفاض الشعراء فيه إفاضة جعلت كثيرا من الناس يرجون أن يعود الماضي ليعيشوا فيه وليتمتعوا بمزاياه . ومن ذا الذي لم يتذمر من العصر الذي يعيش فيه ، ولم يرغب في أن تعود الأيام الخوالي حين كان الناس ناسا ؟ وأين تلك الأمة التي لم تمجد أبطالها الماضيين ، وتندبهم ، راجية إياهم أن يعودوا لينقذوا الوطن المعنى ، وليعيدوا له تاريخه المجيد ؟ ومن ذا الذي لا ينظر إلى عظماء التاريخ ، ويعتبرهم مثالا ينبغى أن يحتذى ، ويعتبر عصره عاجزا عن أن يجارى عصورهم الغابرة ؟ وليست هذه نظرة المتشائمين فحسب ، ولكننا نجد عند الرجل العادي ، وعند بعض العلماء أيضا . فنجد من بينهم من ينكر التغير على الطبيعة الإنسانية ، مثل (ما كيفلي) حين يقول : على الرغم من تغير التقاليد والقوانين والحكومات

التي يخضع لها الإنسان ، فإن الإنسان يظل كما هو من غير تغير في طبيعته وفي أخلاقه وفي حكمته أو جنونه ؛ وكذا الجماعة التي تتألف من الأفراد . ونجد من يقول ان التغير ، حين يكون ، لا يكون إلا لما هو أقل من ذى قبل . وذلك لما يشاهدونه من الشرور المترتبة على الحضارة الإنسانية التي قد تغرى بعض الناس بالقول بأنها تقدم . فيشاهدون أن الديمقراطية التي جلبت للفرد حريته ، وضعت القوة في أيدي الجهلة والرعاع ، فأساءوا في الحكم وفي توجيه الجماعة ، فأنحطت عن ذى قبل ؛ ويشاهدون أن التقدم في الصناعة والتجارة الذي نمت الثروة جر معه المنافسة البغيضة ، ثم « الرأسمالية » المتطرفة ، التي أدت بدورها إلى الثورة وإلى الشيوعية . وليس الجميع إلا مظاهر من مظاهر عدم الانسجام الداخلي في الجماعة ، وذلك مدعاة التدهور والأفول . ويشاهدون تقدما في الاختراع والاكتشاف ، ولكنه أدى إلى شرور جسام تكاد ترجح منفعه . فأين التقدم ، إذن ، ما دامت عناصره وسائل شرور ومتاعب ؟

بيد أن ذلك كله لا بد أن يعتبر نوعا من التطرف في الاتجاه الذي نشأ عن حالة نفسية طارئة ، أو عن العجز عن مقارنة الماضي بالحاضر مقارنة موضوعية . فإذا تركنا الحالات النفسية - حالات التشاؤم والملائخوليا - جانبا ، ورجعنا إلى المقارنة الموضوعية ، وقارنا حالات جماعة من الناس في تاريخها الطويل بعضها ببعض ، لوجدنا كثيرا من التغير الاجتماعي الذي يساعد الجماعة على بقائها ، وعلى النهوض بها في كثير من نواحي الحياة فيها . فإذا ما فضل الماضي على الحاضر فمرد ذلك في غالب الأحوال إلى مقارنة أحد جوانب الماضي فحسب بالحاضر ، أو إلى المبالغة في تصور الماضي ، أو تجاهل كثير من مزايا الحاضر .

فلقد برز قدماء المصريين ، مثلاً ، في فن التحنيط والنحت وفي بناء الاهرامات ، ولكن القول بأنهم خير من الحاضر في الصناعات جميعها أو في جميع نواحي الحياة الاجتماعية ، من سياسية وخلقية ، قول لا يبيحه المنطق وينكره الواقع . فالمصريون اليوم غيرهم يومئذ في أساليب العيش ، وفي نظم الحكم ، وفي الاتجاه العام في الحياة . وهى مغايرة جوهرية ، وتعمل عناصرها متضامنة على النهوض بالشعب المصرى ، وعلى تحقيق أغراضه من الحياة . فهى له ، وليست عليه . وهى ليست تغيراً فحسب ، ولكنها تغير هو تقدم .

وليس اعتبار عناصر التقدم شراً ورجوعاً القهقري ، لما ترتب عليها من قبائح وشرور اجتماعية ، إلا نوعاً من التطرف أو قصر النظر . فهى خير جوهرى ، وهى خير فى نفسها ؛ والشر عارض عليها ؛ وهو فى سوء استعمالها . فالحرية الفردية خير ، لأنها تحقيق لأغراض الإنسان الطبيعية ، وبلوغ به إلى الغاية التى ينشدها كإنسان . غير أنه قد يفقدها أو يفقد حياته حين يستغلها استغلالاً سيئاً ، ويحاول أن يتطرف فى تنفيذها ، ويكبت حريات الآخرين . فمن الخير أن تعطى الحرية الفردية ، ويبين أنها ليست تصرحاً للمرء بأن يفعل ما يشاء من غير وازع ، ولكنها حرية يجب أن تنسجم مع حريات الآخرين . والمخترعات العلمية خير كلها ، وليس الشر إلا فى استعمالها كذلك . وكذا الديمقراطية ، إذ يمكن التغلب على الشر الذى يصاحبها بتعليم الجهال وتثقيفهم ، فيحكم الشعب بشعب مثقف يعرف الأغراض ويحسن التنفيذ . فالتقدم حق لامراء فيه ، والعالم متطور من حال إلى حال ؛ بيد أن هذا لا يعنى انعدام وجود تأخر فى بعض نواحي الحياة الآن ، أو فى جماعة من الجماعات ، أو أن الحاضر قد بلغ الغاية القصوى ، أو غاية

قضى من التقدم ، فلا تزال هناك مراحل عليا من التقدم نتصورها ، ونرجو تحقيقها ، ولكنها لا تزال أملا من الآمال .

وأما عن معيار التطور ونواحيه ، فعلى الرغم من أن معيار القيم يختلف باختلاف الجماعات ، وباختلاف ثقافتهم واتجاههم إلى الحياة ، فإن الناس يكادون يجمعون على غرض رئيسي يرمون إليه جميعا ، ويعملون على تحقيقه ، ولا يختلفون إلا في نوع الطريق أو الوسيلة التي تؤدي إلى تلك الغاية النبيلة . ان الجماعة ، كما رأينا ، ضرورة من ضروريات الحياة الإنسانية ؛ فهي غاية في نفسها ، أو أنها وسيلة الحياة ، ولكنها الوسيلة الوحيدة ، التي تساعد الإنسان على ان يحيا وتكمل إنسانيته . فالجماعة ضرورة تدعو إليها الحاجة ؛ وبقاؤها ضرورة تدعو إليه الحاجة ؛ والإنسجام بين أفرادها ضرورة يتوقف عليها بقاؤها ؛ ومدى هذا الإنسجام هو الذى يحدد مدة بقاء الجماعة جماعة ومدى قوتها ؛ وكما ان الإنسجام بين الأفراد هو الغاية . بيد أنه لا يكون غاية إلا إذا كان إنسجاما لا يطغى على الفردية . وذلك هو المثل الأعلى للجماعة الذى تبغى تحقيقه الجماعات .

فعندما تختلف الأمم اليوم ، مثلا ، في أشكال أنظمة الحكم : فتفضل واحدة النظام الديمقراطي ، وتفضل أخرى النظام الفردى ، أو فى الأساليب الاقتصادية : فتفضل واحدة النظام الاشتراكي ، وأخرى النظام الشيوعى ، وتفضل ثالثة المنافسة الحرة ، فانها انما تختلف فى الوسائل لافى الغايات . وأما الغاية فواحدة ، وهى تحقيق مصلحة الجماعة العامة ، وإيجاد أرقى نوع من أنواع الحياة لها . فيرى الأولون أن النظام الديمقراطى هو الذى يحقق لهم الهدف المرجو . ويرى الآخرون غير ذلك .

ومن هذا يمكن القول بأن هناك غرضا واحدا ومقصدا عاما ترجو تحقيقه الجماعات المختلفة في كفاحها في الحياة . وهو المعيار الذي يقاس به مقدار تقدم الجماعة ومقدار انحطاطها . وهو الذي يبين نواحي التقدم كذلك . وذلك الهدف هو إيجاد نوع من « التعدد في الواحد ، والوحدة في المتعدد » . وأعني بذلك إيجاد نظام عام للجماعة تسكمل فيه شخصية الفرد ضمن كمال شخصية الجماعة . فتكون الجماعة وحدة منسجمة تمام الانسجام ، ومكونة من أفراد قد كملت شخصياتهم ، وآمنوا بحقوقهم وفرديتهم ، وشعروا مع ذلك بحقوق الأفراد الآخرين وبشخصياتهم . أو آمنوا بما لهم من حقوق وبما عليهم من تبعات ، وأحب كل فرد منهم « لأخيه ما يحب لنفسه » (١) وكانوا جميعا « كالبنيان يشد بعضه بعضا » (٢) لاتعز فيه لبنة على أخرى بمرکزها أو بطبيعتها ، بل شعروا جميعا بأنهم في الحقوق والتبعات سواء « كأسنان المشط » (٣) فكانوا ، لذلك ، « كالجسد الواحد إذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر » (٤) .

ذلك هو الغرض الأسمى الذي تسعى النظم الاجتماعية إلى تحقيقه ، وهو الهدف الذي تسعى إليه الجماعات الإنسانية . وكل سلوك للفرد أو للجماعة اتجه نحو هذا الهدف ، أو أوجده ، فهو عمل يستتبع تقدما . أما دواعي التفرقة ، وتقسيم الجماعات إلى طبقات وطوائف يناهذ بعضها بعضا العداء ، ويقف له بالمرصاد ، فهي دواعي السقوط والضعف ، وعوامل الانحلال والفناء . وبقدر قرب حياة الجماعة من هذا المثل الأعلى ، وبقدر قربها من تحقيق وحدة كاملة لا تقتل فيها الميول الفردية ، ولا تطغى على شخصيات الأفراد ، يكون تقدم

الجماعة وتطورها . فتكون الحياة المشتركة متطورة أو غير متطورة بقدر ما تشبع من رغباتهم ، وتحقق من شخصياتهم وآمالهم ، وبقدر ما تسمح من الاختلافات التي تظهر من الأفراد نتيجة لما بينهم من فروق فردية ، وتنظم منها ، فتجعلها اختلافات ضمن وحدة ، وليست معولا يهدم كيان الوحدة ، وبقدر بعدها عن ذلك الهدف يكون جمودها أو انحطاطها ثم انحلالها .

وبما أن الجماعة ، كما رأينا ، ليست شيئا زائدا عن الأفراد الذين تتألف منهم ، وبما أن حياتها هي حياة هؤلاء الأفراد ، فإن تطورها هو كذلك تطورهم ، وتقدمها هو تقدمهم . فإذا ما أردنا أن نعرف مقدار تطور الجماعة أمكننا أن نبحث عنه في الحياة العقلية لأفرادها . فنبعث عنه في مقدرتهم العقلية على البرهنة وعمليات التحليل والتركيب ، وفي مقدرتهم على التوفيق بين أنفسهم وبين ما يجد عليهم من طوارئ ومفاجآت ، وفي مقدرتهم على التحكم في انفعالاتهم تحكما ناشئا عن علم وشجاعة لا عن جهل وخوف ، وفي مقدرتهم على مجابهة الحياة العملية وتحكيمها في أحلامهم وفي خيالاتهم وتصرفهم ، وفي مقدرتهم على فهم وجهات نظر الآخرين ، وتقدير حقوقهم ، عند ما يقارنونها بوجهات نظرهم وبحقوقهم ، وفي مقدرتهم على أن يكونوا علاقات دائمة مع كل ما يجد من جماعات ، أو مع من يطرأ عليهم من أفراد ، سواء أكانوا من أبناء جلدتهم وعشيرتهم ، أم كانوا من جماعات أخرى ، وفي مقدار استقلالهم في تكوين صلاتهم بعضهم ببعض ، وأخيرا في مقدار شعورهم بالمسؤولية نحو من يتصلون به من الأفراد . كل هذه صفات فردية واجتماعية من شأنها أن تساعد على تحقيق الغرض الأسمى للجماعة ، وهو إيجاد كتلة واحدة اختيارية من المتعدد ،

والاحتفاظ بالتعدد ضمن نطاق الوحدة . فهي ، إذن ، المعيار التفصيلي لتطور الأفراد في الجماعة ؛ وهي ، لهذا ، المعيار التفصيلي لتطور الجماعة .

فالجماعة المتطورة هي الجماعة التي يعتبر أفرادها متطورين عندما تقاس أعمالهم واتجاهاتهم بهذه الموازين . وهي الجماعة التي تعتبر الفرد غرضا في نفسه : فتحترم الأفراد على السواء ، وتحمي الضعفاء والمساكين ، وتهيء لهم ما به يعيشون ، وترحم الرعايا ، وتعطف على الغرباء ، وتحترم النساء . وهي الجماعة التي لا يوجد فيها الحكم الجائر ، أو الحكم المرتجل والسياسة المستبدة ، والتعصب الأعمى ، وتفضيل بعض على بعض للأحساب والأنساب ، أو لإرضاء بعض ذوى السلطان . وهي الجماعة التي لا تموت فيها روح التجديد والابتكار بين الأفراد ، ولا تتربى فيهم روح الذل والخضوع . وهي الجماعة التي لا يوجد ضمنها أفراد ، أو جماعات ، أو طبقات ، متنايزة متحاسدة ، يهدم بعضها بعضا ، ولا يرجو أحدها نفعا إلا باستئصال شأفة المخالفين . وهي الجماعة التي تنظم المنافسة ، وتقوى الشخصية الفردية ، ولكن ضمن نطاق الوحدة والانسجام . وهي الجماعة التي عمت عاداتها ، فشملت كل أفرادها ، وخفّت قوانينها ، فأحبها الأفراد ، وخضعوا لها طائعين . وهي الجماعة التي لا يحس الفرد فيها بالسلطان إلا قليلا ، ولا يجد نفسه مضطرا لذلك ، لأن كل فرد فيها يعرف واجباته وتبعاته ، فيقف عندها ولا يتجاوزها .

وهي الجماعة التي لم تنقسم إلى وحدات ، ولم تنقسم عرى ائتلافها إلى طوائف وطبقات ، لكل منها تقاليد وعادات ، وتزدري من أجلها عادات الآخرين . فليس أضر على وحدة الأمة من مثل هذا الانقسام والتفرق ، وهو

رأس كل البلايا الاجتماعية ، وسبب تصدع أركان الجماعة . فليت شعري كيف
يرجو أقوام صلاحاً لبيئتهم ، ونهوضاً لمجتمعهم ، إذا كانت معاول الهدم دائية
الحركة فيما بينهم ، وكانوا هم أنفسهم من الشاحدين لتلك المعاول أو الموجدين لها
باختيارهم ، وبما يسنون من قوانين من شأنها أن تفرق وحدة الجماعة ،
بسبب إيجاد أنواع من الثقافات متباينة لا يمكن أن تلتقى أو يفهم بعضها بعضاً ؟
فلا مرأى في أن ذلك يوجد أنواعاً من العادات متضاربة ، وشخصيات لا يمكن أن
تفسج الانسجام الضروري لوحدة الجماعة . والعجيب أنهم يعملون بعد ذلك
لمضاعفة الهوة بتغذية تلك المفارقات وتشجيع بعض الطوائف على حساب البعض
الآخر ، والإغداق على البعض وحرمان الآخرين . فهم في رجائهم غير مخلصين ، أو
أنهم قد بذلوا الطريق ، وبعثوا عن سواء السبيل حين رسموا خطط السير للجماعة .
فليست وحدة الجماعة ، كما رأينا ، وحدة عضوية أو جغرافية ، ولكنها وحدة
نفسية ، تنشأ عن وحدة التقاليد والأهداف . وكثيراً ما نرى أشخاصاً لا يعيشون
في بعض المناطق الجغرافية أو بين جماعة من الجماعات إلا بأجسامهم فحسب ،
وأما أرواحهم فهناك في مكان آخر حيث توجد أهدافهم ويرجى أن تتحقق
أغراضهم . فهم غرباء في المواطن التي ولدوا فيها . وهم أقرباء في المواطن التي
يتخيلونها أما كن لتحقيق أهدافهم ، وإن لم يروها بعد . وهناك وطن تحن إليه ،
وآخر تحمد الله أن فارقت . وليس لذلك من سبب إلا أن الأول حقق الآمال
والرغبات ، أو كان جديراً بذلك .

تلك هي آمال الجماعات ومثلها العليا التي يجب أن تهدف نحوها . وأكبر
محقق لها ، وخير مظاهرها ، هو الاعتراف بالشخصيات ، والشعور بالمسؤوليات .

فما دام كل فرد في الجماعة يشعر بمسئوليته فيها ، ويقدر من شخصية غيره ويحترمها ، كما يحترم من شخصية نفسه ، وما دامت الجماعات تحترم شخصيات أفرادها ، فهي جماعة آخذة في سبيل الارتقاء ، ومتجهة نحو تحقيق ما ينبغي من كمال الوحدة والانسجام . وبقدر قرب الجماعة من هذه الأهداف يكون تطورها وارتقاؤها ، وبقدر بعدها عنها يكون انحطاطها وتأخرها . ومن ثم أمكن وجود مراتب شتى لكل جماعة من الجماعات ، تبدأ من مجرد اجتماع يكاد يكون عضويا ، وتتدرج في مدارج الكمال متجهة نحو المثل الأعلى ، حتى تبلغ القمة منه . بيد أنه ينبغي أن نلاحظ أن كمال الوحدة في الجماعة ليس إلا مثالا من الأمثلة العليا التي لا بد أن تظل دائما هكذا مثالا عليا ، فتقرب الجماعات منها شيئا فشيئا ، من غير أن تبلغ غايتها وتحققها كلها . فليس هناك مرحلة من مراحل الكمال الإنساني إلا وفوقها مرحلة أخرى منه يدركها الإنسان بعقله ، وينبغي تحقيقها لنفسه . فتقدم الجماعات ، كستقدم الأفراد ، لا بد أن يظل أمرا نسبيا . وما دام الإنسان ليس الموجود النهائي ، والحق المطلق الذي يرجع إليه كل وجود ، فلا بد أن يظل كماله نسبيا ، فيرقى في مدارج الكمال بقدر ما تسمح به مواهبه العقلية ومقدرته الجسمية ، من غير أن يكون له الكمال المطلق ، ومن غير أن يشعر بأنه قد بلغ الكمال المطلق إلا أن يكون به مس من جنون .

وما دامت الجماعات قابلة للتغير من طور إلى طور ، وكما أنها قابلة للنماء والتقدم ، فهي كذلك قابلة للضعف والانحلال ، والسقوط والفناء ؛ وقد توصف بالجمود كذلك .

وقد يبدو غريباً ، بل تناقضاً أن توصف الجماعة بالجمود ؛ إذ أن الحياة حركة ،
والحي هو المتحرك ، فما دامت الجماعة ذات حياة ، وما دام الجمود عدم الحركة ،
فكيف توصف الجماعة بالجمود ؟ بيد أننا لا نغنى بالجمود هنا الجمود المادى
الذى ينافى الحركة ، ولكننا نقصد الجمود النفسى ، والجمود المعنوى فى النظم
التي تخضع لها الجماعة ، أو ذلك الجمود فى النظم الذى يمنعها عن النظر فى الحياة
الحاضرة واعتبارها ؛ وتلك قد توصف بالجمود ، إذا كانت لا تسمح بالتجديد ،
وإذا كانت تقتل روح الابتكار فى الأفراد ، لأنها ، والحالة هذه تكون عاجزة
عن مسايرة الزمن الذى يسير بالضرورة ، وهى واقفة لا تتحرك ، ولذا كانت
جامدة . هذا ، ولا شك فى أن مطالب الجماعات وحاجياتها تتجدد وتزيد على
مر الأيام ، بسبب ازدياد تجاربها ، وازدياد عدد أفرادها ، وبسبب اختلاطها
بالثقافات الأجنبية ، أو باتساع بقعتها الجغرافية أو تغييرها . وكل ذلك يقتضى ،
ولاشك ، نظماً جديدة وعادات جديدة . فإذا لم تسير القوانين هذا الوضع الطارىء
بأن تجاهلته أو أنكرته ، ووقفت فى سبيله ، كان ذلك إنكاراً للتقدم ، ومستلزماً
إما ثورة على تلك القوانين وإما ضعفاً وسقوطاً للجماعة . فالحاضر دائماً جديد ،
ولا يمكن بحال ما أن يكون صورة للماضى ، إلا إذا فقد روحه وجدته ، وبذا
يفارق الماضى ، لأنه كان جديداً ، وكان ذا حيوية . فالجماعة التى تتجاهل
الحاضر لا يمكن بحال ما أن تعيش كما عاش أسلافها الأولون الذين اتخذتهم مثلاً
عليها . وذلك لأن الأولين عاشوا عيشة تتناسب مع حاجاتهم وبيئتهم ، وكان لهم
من العادات ما يتناسب مع ذلك ، فكيفوا أنفسهم بالحاضر . ولذا عاشوا
ونجحوا . وأما الحاضر فهو الماضى وزيادة ، أو هو غيره ، فإذا أراد من يعيش

فيه أن ينجح كما نجح أسلافه الأولون كان عليه أن ينتفع بتجار بهم، ويتكيف مع ذلك بما يجد في ذلك الحاضر، وإن عجز عن ذلك التكيف عجز عن مواجهة الحاضر، وقد فاته أن يعيش في الماضي، فلا يلبث أن تطأه عجلة الزمن الذي لا يقف منتظرا حركة هؤلاء الذين لا يعملون. فهؤلاء الذين ينظرون إلى الماضي فحسب لا بد أن يعجزوا عن الانتفاع بالحاضر والعيش فيه وعن الانتفاع بالماضي كذلك.

وذلك أحد أسباب إخفاق الجماعة. ولا شك أن هنالك أسبابا جمة لإخفاق الجماعات ولسقوطها. ولست هنا بمحاول بحثها، غير أنني أحب أن أشير فقط إلى أنها أسباب نفسية أكثر منها أي شيء آخر. فكما أن الأسباب التي تجعل من الأفراد جماعة، وتبقيهم كذلك جماعة، أسباب نفسية، فكذا الأسباب التي تزيل من الجماعة وحدتها، وتفك عرى ائتلافها، وتدفع بها إلى الهاوية أسباب نفسية. فالمصائب والإحن التي تقع فيها الجماعات قد تصقلها، وتصفى نفوسها، وتجمع شتاتها، وتدفعها إلى العمل، لتعوض مافات، فتجد وتجاهد، وتنجح في الحياة. وكثيرا ما تدفع الهزيمة إلى التكتل والجد في العمل؛ وكثيرا ما تساعد الحروب على الزيادة في الانتاج وعلى الاكثار من الأولاد، فتضاعف الغرائز الجنسية عملها في تلك الأيام، وتكون « بقية السيف أكثر عددا وأنجب ولدا »^(١)؛ والنزاع الداخلي، وجور الحكم، والجماعات، والأمراض، كل هذه قد تضعف بنية الجماعة، ولاكنها يمكن التغلب عليها، فتنهض الجماعة، وتكون أشد بأسا من ذي قبل. ولكن الذي يقتل الجماعة ولا تجد له علاجا هو انعدام الروح المعنوية فيها؛ وهو انعدام تلك الروح التي صارت بها الجماعة جماعة. فإذا ما قويت

(١) من كلام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه

الروح الفردية ، وضعفت الروح القومية ، ولم يكن هناك جامع يجمع الأفراد من روح العصبية ، أو من العقيدة الدينية ، بدأت الجماعة تتدهور شيئا فشيئا ، حتى تصبح لقمة سائغة لمن توجد عندهم هذه الروح . وذلك هو سقوطها ، وذلك هو أفولها . فهو فناء أدبي ، وهو أسوأ في تقدير الانسان من الفناء المادى . لذلك احتاجت الجماعات التى عمرت طويلا وضعفت فيها روح العصبية القومية إلى أن يظهر فيها ، من حين إلى حين ، من يقوى فيها روح النعرة القومية أو روح العصبية الدينية ، أو احتاجت ، بعبارة أخرى ، إلى تقوية روح الشعور بالهدف الجامع لكل الأفراد . وهنا تظهر قيمة العقيدة الدينية فى الجماعة وفى حياتها .

الجماعة والعقيدة الدينية

تعتمد الجماعات البسيطة ، فى وحدتها وقوتها ، على روح العصبية الموجودة بين أفراد الأسرة الواحدة ، أو القبيلة الواحدة ، أو القبائل التى ارتبطت بروابط النسب والمصاهرة . فتشير القرابة بين الأفراد نعمة فيهم على ذوى القربى أن ينالهم ضيم أو يصيبهم ضرر ، وتوجد عندهم غضاضة عند ما يظالمون أو يعتدى عليهم ، وتدفعهم لأن يحاولوا أن يدفعوا عنهم كل ما سيصلهم من أخطار . وتلك النزعة طبيعية ، لا يجد المرء لها مردا ، ولا تحتاج إلى كسب أو تعليم . وتلك النزعة من العوامل الهامة التى يبتنى عليها بأس هذه الجماعات الصغيرة وشدتها ، بل كيانها وبقاؤها كذلك . فهم يعتمدون فى اجتماعهم على عصبيتهم . بيد أن ذلك وحده لا يسمح لهم بالبقاء إلا قليلا ؛ وذلك لأنه قد توجد قريبا من ديارهم أو مضارب

خيامهم عصبية أخرى أشد منهم بأسا وأكثر عددا ، فتسدفعهم غرائزهم إلى منازلهم وضم ديارهم إلى ديارهم ، « فالظلم من شيم النفوس » ، وتكون الغلبة لمن هو أشد ساعدا وأشد سهما . وهكذا ، أو بأي أسلوب آخر ، توجد الجماعات الكبرى التي لا تربطها روابط القرابة والمصاهرة ، أو التي لا تربطها عصبية النسب والمصاهرة . ففي حالات القهر والغلبة تكون القوة والسيادة من جانب ، والخضوع والضعف من جانب آخر . ولكن ذلك أيضا لا يمكن أن يستمر طويلا ؛ ولا يمكن أن تنهض به جماعة ، أو تحيا به أمة ؛ لأن قواها ، حينئذ ، تكون ضائعة بين ضغط ومقاومة : ضغط من الجانب القوى ، ومقاومة سافرة أو مقاومة سلبية من الجانب الآخر ؛ فلا تجد فضل قوة يسمح لها بأن توجد ما يساعدها على النهوض والاحتفاظ بمستواها في الحياة من ناحية ، وتكون عوامل الفناء فيها عوامل داخلية ، من ناحية أخرى ؛ وهي أعدى عوامل الفناء وأشدّها فتكا بالأمة . فلا بد أن تضعف القوة ، بعد حين ، أو يخف ضغطها قصداً ، ولا تلبث المقاومة أن تخف قليلا ، ولا يلبث الطرفان أن يتقاربا ، فينزل هذا من عليائه قليلا ، ويرتفع ذاك قليلا ، ويوجد بينهما شيء من الانسجام ، ويتكون بينهما شيء من العادات المشتركة والتقاليد العامة ، ويخضعون لسلطان واحد ، ويكونون أمة واحدة ذات هدف واحد ، يدافعون جميعا عنه ، ويقاتلون في سبيله .

بيد أن وحدة الهدف والمصالح وحدها غير كافية لتحقيق أغراض الجماعة وبحفظ كيائها ، كما هو الشأن بالنسبة لوحدة القرابة والمصاهرة . وذلك لأن الفرد قد يرى أن قوانين الجماعة غير عادلة وأن سلطانها جائر ، وأنها تأخذ منه أكثر مما تعطيه ، ويرى أن عقاب المجتمع كثيرا ما ينزل بالبريء ، وينجو منه المجرم ،

وأن ثوابه لا يعطى إلا للمهرجين الذين يقولون كثيرا ولا يفعلون إلا القليل ،
وأما المخلصون ، والمتفانون حقا في خدمة مجتمعهم ، فهم المحرومون الذين تحل
بهم كارثات المجتمع . قد يرى الفرد كل ذلك ، ويعجب لماذا يضحي بنفسه
و بمقدرته ومصلحته في سبيل أقوام يتناهبون أموال الدولة ، ويشبعون ، وهو
محروم ، فتسول له نفسه أن يتصرف كما يتصرفون ، ويعمل كما يعملون . وقد
يكون مخطئا في تقديره وأحكامه على الآخرين ، ولكن هيات أن يرده شيء ،
فقد ندم على ما فات ، وقرر أن يكون أنانيا ومجرما اجتماعيا ، وإذا عمت هذه
النزعة ، فعلى الجماعة وعلى أفرادها السلام . وهنا تأتي مهمة العقيدة الدينية من
ناحياتها الاجتماعية فهي المنقذة للإنسانية من أمثال هذه المخاطر ، وهى الزواجر
حين لا تنفع كل النذر الأخرى . ولم تبين الجماعات الإنسانية إلا على أساسها . فهى
التي تجعل التضحية الفردية ذات مغزى ، وتدفع إليها أحيانا ؛ وهى التى تجعل
المرء يراعى القوانين والعادات ؛ وهى التى تحفظ روابط الأسرة ؛ وهى التى تحفظ
للمجتمع قدسيته وتطلب من الفرد أن يراعى حرمة . - والعقائد الخرافية نفسها
ذات أثر فعال في تكوين المجتمعات البدائية . فلولا نظام « التابو » بين الجماعات
البدائية ، وهو تحريم بعض الموضوعات أو العلاقات تحريما دينيا ، لانهارت
الجماعات البدائية انهيارا ، لانهايار كل ما فيها من روابط اجتماعية وقوانين خلقية .
ولقد سمعت كثيرا من الوطنيين غير المسلمين في شرق أفريقيا يشكون مر
الشكوى من السلطة هناك ، لتدخلها في نظام « التابو » هناك ، ويرون أن ذلك
هو سبب المصائب والشدائد التى تحل بهم ، ويكره آخرون هذا التدخل ، لأنه
يجر معه تحلل الوطنيين من كل الزام خلقى ودينى ، واستجابتهم بعد ذلك لدوافع

الغرائز والميول النفسية فحسب . ولولا العقائد الدينية العليا ما تكونت هذه الدول والممالك التي نراها اليوم . ولا يزال الدين ، على الرغم من كل ما يقال من تحرر بعض الأمم عنه ، من العوامل القوية التي تربط شعور الناس بعضهم ببعض ، مهما تباعدت أوطانهم وتباينت ديارهم .

ولما كانت العقائد الدينية مرتبطة أشد الارتباط بتكوين المجتمعات وبقائهما ، وكانت مع ذلك وثيقة الاتصال بكثير من الغرائز النفسية ، ومشبعة لكثير من الميول الفطرية ، كما سيتضح في فصل العقيدة ، كانت الجماعات أشد تمسكاً بها عن غيرها من العقائد والعادات . وإذا كانت الجماعات محافظة على تقاليدها ومحافظتها على كيانها ، وكانت لا تقبل الجديد إلا مرغمة ، كان تمسكها بعقائدها ومحافظتها عليه أشد وأقوى ، وتعصبها لها لا يقل عن تعصبها لنوى القربى . وتلك ولا شك فضيلة اجتماعية . بيد أنها قد تكون وخيمة العواقب إذا لم يكن الأسلاف على حق فيما اعتقدوا ، فتحجب الجماعة عن ابصار الحقائق . وهذا النوع من المحافظة هو الذى عابه القرآن الكريم حين يقول « أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون » . فالمحافظة فضيلة ، مادامت لا تمنع المرء عن التبصر والتأمل والمقارنة واتباع ما هو خير اتباعاً ناشئاً عن بحث لا عن هوى . وأما المحافظة العمياء ، والتقليد الذى لا يميز بين الغث والسمين ، والتمسك من غير فهم أو نظر ، فذلك قتال لروح الفرد ولروح الجماعة .

وإذا كان هذا هو شأن العقيدة فى الجماعة ، وإذا كانت هى القوى المنظمة للاتجاه فيها ، والدوافع التى تدفعها إلى الحركة ، والعوامل التى تبقئها متضامنة ، لم تكن من ضروريات المجتمعات فحسب ، بل كان لزاماً على هؤلاء الذين

يتولون قيادة زمام الجماعة أن يربوا فيها كثيرا من المعتقدات نحو الموضوعات التي يريدون تحقيقها . فلا ينهض الشعب ويطالب بالاستقلال ، مثلا ، وينجح في طلبه ، إلا إذا آمن بأنه ذو حق ، وبأنه جدير باستخلاصه ، وقادر على أن يعيش وحده كذلك . ولم يتمكن المسلمون في صدر الإسلام ، على قلتهم ، من الصمود أمام من هم أكثر منهم عددا وعدة ، إلا بقوة الإيمان وبالاعتقاد بأنهم لن يصابوا إلا بأحدى الحسنيين . فالاعتقاد يزيد القوى قوة ؛ وهو للضعيف قوة ؛ ويساعد في الحالين على تحقيق موضوعه . ولم يكن وليم جيمز في قوله : ان الاعتقاد في بعض القضايا التي لا نجد عليها برهانا عقليا هو العامل الوحيد الذي يجعل تلك القضايا صادقة ، إلا معبرا عن الحقيقة الواقعية ؛ فانظر إلى مثالين من أمثلته ، حين يستشهد على ذلك ، تجده يتحدث بما نؤمن به جميعا ، ونحس بأنه واقع ، حين يقول (١) : « كثيرا ما يكون اعتقادنا السابق في غير المبرهن عليه من القضايا هو العامل الوحيد الذي يجعل تلك القضايا قضايا سابقة . فافترض ، مثلا ، أنك كنت تصعد جبلا وأجهدت نفسك في الصعود حتى بلغت مكانا خطرا لا يمكنك أن تنجو منه إلا بقفزة عنيفة . فكيف الخلاص إذن ؟ انه بيدك وفي مقدورك ؛ فاعتقد أنك قادر على أن تقوم بها ، وستجد في قدميك قوة فعلية على تنفيذها . ولكن إذا لم تثق بنفسك وبعقدرك وترددت طويلا ، فستهن أعصابك وستضطرب ، وقد تقع في الهوة نتيجة لهذا الاضطراب ؛ وإذا لم يحدث ذلك فستجد نفسك مضطرا في ساعة من ساعات اليأس إلى أن تقذف بنفسك فتسقط في الهوة . ولكن الحكمة والشجاعة في مثل هذه الحالة في

(١) من كتابه « إرادة الاعتقاد » الذي نقله المؤلف إلى العربية عام ١٩٤٦ .

أن تؤمن وتعتقد ، لأن الاعتقاد هو الذى ينجيك ، وهو الذى يقضى حاجتك .
ويقول : « كثيراً ما يحدث أن ينهب القطار ، وتغتصب أموال مئات من
المسافرين الأشداء ، وأمتعهم بعدد قليل من اللصوص وقطاع الطريق . وليس
لذلك من سبب إلا أن الآخرين يعتقدون بخلاف الأولين . فيعتمد قطاع
الطريق بعضهم على بعض ، ويشق بعضهم ببعض ، ويؤمن كل واحد منهم بأن
الآخرين سينهضون معه ، ويعاونونه ، ويشدون أزره فى جميع الحالات ؛
فتزيدهم تلك العقيدة قوة على قوة ، وتجعلهم أكثر جرأة من ذى قبل . وأما
المسافرون فإنهم يفقدون تلك الميزة من الاعتقاد ، لأن كل امرئ منهم يخشى ، إذا
ما ثار فى وجهه اللصوص ، ودافع عن نفسه وعن الآخرين ، أن يقتل قبل أن
يخف الرفقاء لنجدته . ولكن إذا ما اعتقد كل فرد منهم بأن الآخرين سيخفون
سراعا عند الهجوم ، وسيناصرونه ضد اللصوص ، فسيقوم عند الهجوم ،
وسيقومون جميعا قومة رجل واحد ، وسينجحون فى التغلب على قطاع الطريق ،
وذلك بفضل الاعتقاد . فهناك كثير من الحالات التى لا يمكن أن تقع إلا إذا
سبقها تلك الحالة النفسية من اعتقاد أنها ستقع » . وذلك هو معنى قوله « كثيراً
ما تبرر العقيدة نفسها » . فاعتقاد المرء بأنه فاضل قد يدفعه لأن يترفع عن
الدنايا وعما لا يليق بكرام الرجال ، ولأن يفعل كثيراً من الفضائل الاجتماعية ،
ومن ثم يكون فاضلا . وكثيرا ما يخفق الناشئ بسبب التربية الخاطئة التى تجعله
يعتقد أنه عاجز عن أن ينجح وعن أن ينتج ما هو خير . واعتقاد الجماعة أنها
قادرة على أن تقف وحدها ، وترد كيد الأعداء ، جدير بأن يدفعها إلى المحافظة

على حقوقها ، والاحتفاظ بشرفها . واعتقاد المجاهد أن نتيجة جهاده لا تعدو أن تكون نصرا أو شهادة يجعله لا يبالي بكثرة عدد العدو وقوته ، أو قوة عدته .. فتربية العقائد في نفوس الأفراد من الجماعة ضرورة من الضرورات التي ينبغي أن يتنبه إليها القادة والمصلحون ، إذا ما أرادوا نجاحا فيما يرغبون من حركات اجتماعية . فستدفع العقيدة الجماهير إلى العمل ، بعد قليل من التوجيه . وبقدر قوة الاعتقاد ، وتملك العقيدة لنفوس الأفراد ، تكون قوة الحركة ، ويكون النجاح ؛ وبقدر شيوع العقيدة بين الأفراد ، وعمومها ، يكون مقدار ثبات الجماعة واستقرارها ، ومقدار مافياها من وحدة وانسجام .

بيد أنه ينبغي أن يلاحظ أن تقدم الجماعات لا يتوقف على مقدار مافياها من اعتقادات ، ولكن على كيفية هذه الاعتقادات وعلى نوعها . فكلما كانت الاعتقادات أقرب إلى المنطق ، وغير متعارضة مع عقل الإنسان ، وغير كابثة لميوله الطبيعية ، أو بعبارة أخرى ، كلما كان هناك شيء من الانسجام بين العقائد وبين الميول الطبيعية للإنسان ، فأرضت عقله ووجدانه وغرائزه (المهيمنة طبعا) ، كانت من عوامل النجاح والتقدم ؛ وكلما كانت خرافات لا يقبلها العقل عند الاختبار ، وكانت تهدف نحو كبت الميول في الإنسان ، وقتل روح التجديد والابتكار فيه ، كانت من عوامل الضعف والتأخر في الفرد وفي الجماعة . وذلك نفسه هو مقياس تطور العقيدة ، كما سيتبين بعد .

هذا ، وعلى الرغم من أن تربية العقائد من ضروريات ارتقاء الجماعات ، فإنه ينبغي أن يلاحظ أن الجمهور لا ينقصه الاعتقاد ، ولكن الذي ينقصه هو النقد والحذر في الاعتقاد . وذلك لأن الجمهور مستعد بطبعه لتقبل كثير من

الفكر الساذجة والآراء الفطيرة ، وللايمان بها من غير نقد أو تحليل . وإذا لم يجد من يقدم له هذا النوع من الآراء فسيخترع هو كثيرا من الخرافات والأوهام والآراء التي لا يجد العقل الطليق مبررا لها، وسيؤمن بها إيمانه بنفسه وبحقوقه ، وستكيف تلك العقائد ، بعد ذلك ، أعماله ونظرته إلى الحياة ، وسيكون لها من الآثار النفسية ومن السلطان الروحي ما لغيرها من العقائد العليا التي غيرت معالم وجه التاريخ في العالم . وذلك هو أحد الأخطار التي تترتب على الاعتقاد الساذج الذي لم يسبقه نقد وتفكير ؛ وهو الذي دعا أحد الكتّاب لأن يقول : « إن الإنسان يميل بطبعه إلى الاعتقاد ، وضعفه الجوهري في أنه قد يعتقد ، من غير روية وتبصر ، في بعض النظريات المتألفة ، وخاصة فيما كان منها مدعما بميول غريزية . وإن ما يحتاج إليه هذا النوع من الناس هو أن تقطع أوصال اعتقاداته ، وتعرض عناصرها للهواء الطلق ، حتى تأتي ريح الشمال العالمية ، وحرارة الشمس المنطقية ، فتطهرها من كل ما فيها من أسقام وأمراض وبدائية » .

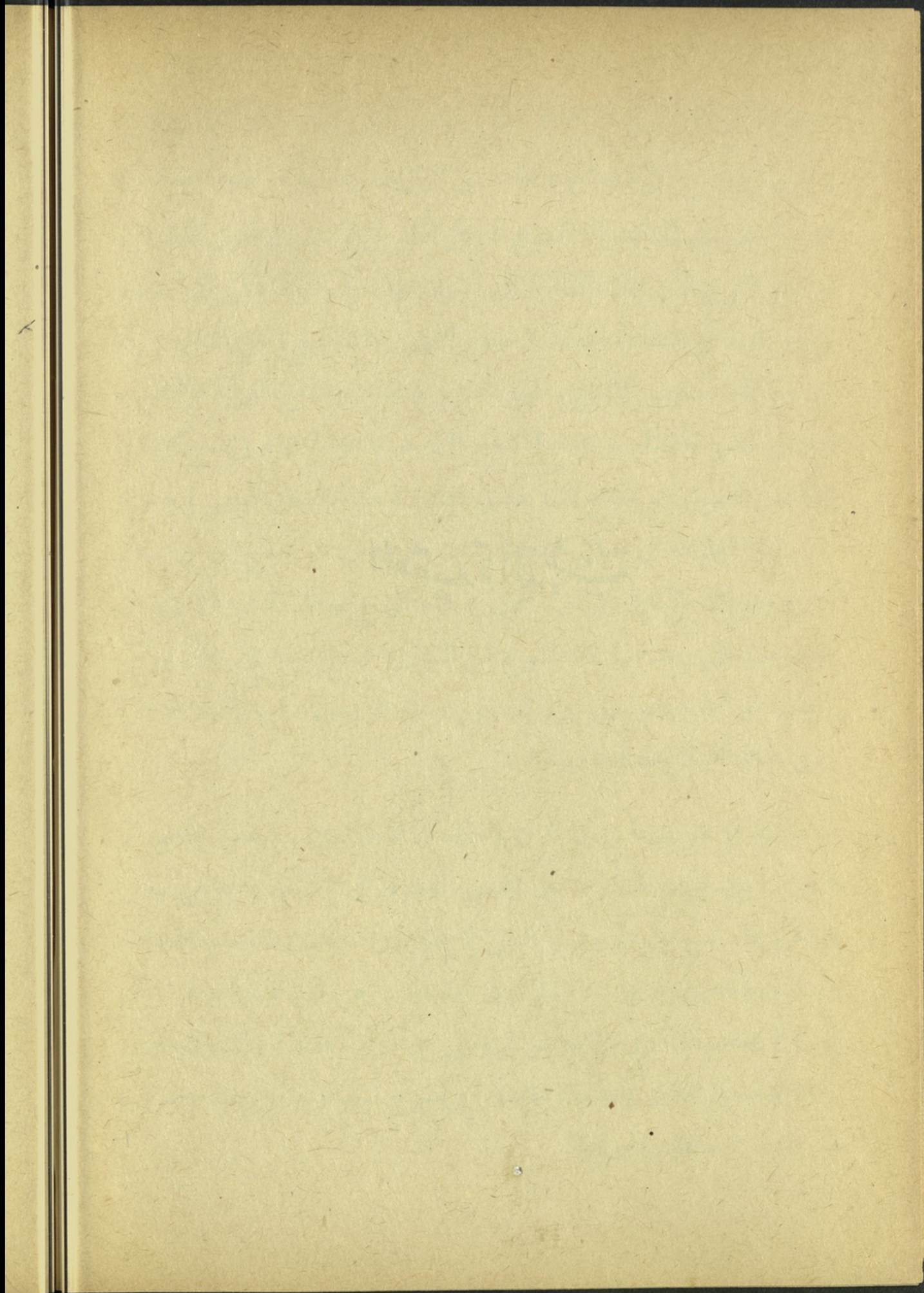
ذلك حق لا مرء فيه ، بيد أنه يوجد ، بجانب هذا النوع من الناس ، آخرون لا ينقصهم النقد والحذر ، بل ينقصهم الاعتدال فيهما ، وضعفهم الجوهري أنهم لا يعتقدون حتى يجدوا البراهين اليقينية . ويأتي جمهور هؤلاء من طبقة العلماء الذين تغدوا بلبان العلوم الطبيعية ، وأشربت قلوبهم بما يسمونه اليقين الواقعي ، والبراهين الواقعية ، فاحتاطوا ، لذلك ، في عقائدهم الدينية وفي آرائهم ، وقالوا لن نؤمن حتى نوقن ، كما نوقن في العلوم ، فذلك أجدى بنا وأجدر .

فهناك ، إذن ، نوعان من الناس : نوع قد يعتقد أكثر مما ينبغي ، وآخر

قد يعتقد أقل مما ينبغي ؛ وكلاهما خطر اجتماعى تنبغى مواجهته بكثير من اللباقة والحزم ؛ ويحتاج كل منهما نوعا خاصا من التهذيب يتناسب مع طبيعته ومقدرته العلمية ، ليهتدى إلى الصراط السوى ؛ وهو الطريق الوسط بين هذين المتطرفين . فيحتاج النوع الأول تلك التنقية التى أشرنا إليها ؛ ولكنها لا يمكن أن تكون تنقية علمية أو منطقية ، فقد لا يهضم الجمهور ذلك النوع من التنقية ، وقد لا ينتفع إلا بأسلوب الإقناع . فهو يحتاج هذا ، ويحتاج التربية والتعليم ، ويحتاج القدوة الحسنة ، ويحتاج الالتجاء إلى وجداناته واثارتها ، ويحتاج كل شيء إلا المنطق العميق ؛ ويحتاج الثانى عكس ذلك ، فيحتاج المنطق العلمى ، ومعرفة مدى امكان انطباقه على منطق العقيدة ومنطق الوجدان ؛ ويحتاج إلى أن يسأل أين يوجد ذلك اليقين الواقعى الذى يفتقده فى موضوعات العقيدة ؟ وما هى للموضوعات التى وجد فيها ذلك النوع من اليقين ؟ وهل طبقه على سائر نواحي الحياة ، أم أنه يعيش من يوم إلى يوم ، على فروض دعت إليها الحاجة ، وعلى عقائد قد لا يجد لها مبررا ؟

ذلك كله هو مهمة رجال الدين والمصلحين الاجتماعيين . وبقدر نجاحهم فى التقريب بين وجهتى النظر - بين الجمهور المتطرف فى الاعتقاد ، فيؤمن بالحق وبالخرافات ، وبين الآخرين الذين لا يعتقدون - يكون انسجام الجماعة ، وتكون وحدتها وقوتها . فالاشتراك فى العقيدة - وهى قوة نفسية - هو الذى يوجد الانسجام الفكرى والتجانس الروحى بين أفراد الجماعة ؛ وذلك التجانس ، وهذا الانسجام هماسر وحدتها وعظمتها ، وينبوع ثباتها واستقرارها ، وضرورة من ضروريات تقدمها ورقمها .

العقيدة الذنبية



العقيدة الدينية

إننا لا نعى ، حين نتحدث عن العقيدة والاعتقاد هنا ، عقيدة بعينها ، أو عقيدة دين خاص ، أو جماعات بأعيانهم ؛ ولكننا لا نريد إلا العقيدة في ذاتها كمعتقد نفسى ، والاعتقاد في ذاته أيضاً كحالة نفسية ، من غير نظر إلى الأشخاص الذين يعتقدون ، وإلى نوع العقيدة وشخصها . ولكن قد يتطلب البحث مناقشة من التخصيص والتحدث عن معتقد خاص ، أو عن اعتقاد أقوام معينين ؛ وعندئذ سوف لا نطلق العقيدة إطلاقاً ، بل نصفها بالتخصص الذى نريد .

وقد يكون من العسير علينا ، فى تلك المرحلة الأولى من البحث ، بل من غير المفيد أيضاً ، أن نعرف العقيدة تعريفاً يشرح ماهيتها شرحاً جامعاً مانعاً ؛ لأن العلماء لم يتفقوا على تعريف واحد لها ، بسبب اختلافهم فى تحديد علاقتها بكل من العقل والإرادة والعاطفة . فيربطها بعض العلماء بالعقل ، ويعتبرها نتيجة له ؛ ويرى آخرون أنها من عمل الإرادة ، ويربطها آخرون بالوجدان . ثم يعرفها كل واحد من هؤلاء بالتعريف الذى يتناسب مع ما ارتبطت به .

فيرى بعض العلماء أنها عمل لا شعورى ، وأنها إيمان ناشئ عن مصدر لا شعورى — سواء أكان ذلك المصدر العقل الباطن أو الإلهام الإلهى والإلقاء فى الروح — يجعل المرء مضطراً لأن يؤمن ببعض المبادئ والآراء ، ويقبله من غير نقد وتحليل ، ولو كان فى ذاته شيئاً لا يقبله العقل العادى عند التحليل . فالاعتقاد إذن نوع من الإلهام اللاشعورى الذى لا يمت لسل من العقل والإرادة بسبب . فهو غير اختياري ، لا يقدر المرء على تكوينه ، ولا يقدر على دفع هذا

التكوين ؛ وهو غير شعورى أيضا ، ليس للعقل فيه مجال ؛ وبذا يخالف العلم والمعرفة ؛ لأنهما شعوريان ، وهما نتيجة العمليات العقلية . وإذا بدأ المرء ينظر فى معتقداته ، ويحللها تحليلًا منطقيًا ، ويختبر مقدماتها وبراهينها ، ثم برهن عليها ، فإنها تنقلب إلى معرفة ، ولا تبقى عقيدة . فمن الممكن إذن أن تعرف العقيدة ، ولكنه من غير الممكن أن تنشأ العقيدة عن المعرفة . بيد أن العقيدة إذا عرفت منطقيًا زال عنها وصف أنها عقيدة ، وأصبحت توصف بأنها معرفة . وعلى هذا الأساس يمكن أن يقال إن العقيدة ، لتظل عقيدة ، لا بد لها من أن تبقى بعيدة عن البرهان المنطقى . فلا تنشأ عن منطق ، ولا يعللها ، بعد تكوينها ، منطق . فالعلم والاعتقاد مختلفان ماصداقًا ، ومفهوماً ، ومصدرًا ، وتكوينًا .

ولست أرى ، فى الواقع ، وجهًا لهذا التخصيص الذى يجعل التصديق المبني على المصدر اللاشعورى اعتقادًا ، والتصديق المبني على هذا المصدر ومصدر شعورى أيضًا معرفة ، اللهم إلا أن يكون اصطلاحًا خاصًا فى فهم لفظى المعرفة والاعتقاد ، وحينئذ لا تكون له قيمة جدلية . فلا مرأى فى أن هناك كثيرًا من أنواع التصديق الجازم الناشئ عن الدليل والبرهان ، ولا مرأى فى أن هذه الأنواع من التصديق لا تختلف فى خصائصها عن التصديق الوجدانى . فتسمية أحد النوعين اعتقادًا والآخر علمًا تحكيم أو اصطلاح خاص . ولا شك فى أن العقيدة غير المعرفة . غير أن القول بأن العقيدة تتحول إلى معرفة حين يبرهن عليها منطقيًا ، ولا يصح أن يطلق عليها ، حينئذ ، اسم العقيدة ، هو ما نازع فيه ، وهو ما لأجدله مبررًا . ويرى آخرون ، ومنهم ديكارت ، ووليام جيمز ، ويظهر أنه رأى الجمهور من علماء الكلام فى الاسلام (١) ، أن العقيدة عمل العقل والارادة معا ، وأنه

(١) راجع ، من كتب علم الكلام ، الفصول المتعلقة بالأسماء والأحكام .

لا يمكن ، بحال ما ، تجريدها عن الاختيار والارادة ، وعن التدبر والتأمل ،
مهما بدت غير مكتسبة بالاختيار . ويصرح علماء الكلام استنادا إلى أدلة قوية ،
بأن الاعتقاد المعتبر في الاسلام هو الاعتقاد الاختياري ، لأن مناط التكليف ،
ومناط الاثابة والمعاقبة ، هو الاختيار . فالمضطر غير مكلف ، ولا يكاف الله
نفسا إلا وسعها . فلو كان الاعتقاد من المسائل التي لا يقدر المرء على تحصيلها
أو تجنبها لم نكلف به . ففي مقدور الانسان أن يعتقد ، وفي مقدوره أن يتجنب
الاعتقاد . وذلك هو ما ذهب إليه وليام جيمز من علماء النفس المحدثين ، حين
يصرح بأن لنا أن نعتقد في كل ما يبدو مستحقا لأن يعتقد فيه ، ولو لم يكن
لدينا من البراهين المنطقية ما يبرر ذلك . فالاعتقاد ، إذن ، أمر كسبي يتبع
الارادة ، أو الدليل المنطقي ، وليس أمراً ملجئاً يغزو قلوبنا من حيث لا ندرى .
أولست استجابتنا لبعض الآراء دون بعض ، وإيماننا ببعضها إيماننا شعوريا
دون بعض ، دليلا على أننا نتخير ؟ أوليس تفكيرنا ، حين نواجه بحديد يطلب
منا الإيمان به ، وترددنا ، وحيرتنا ، ثم إيماننا أو رفضنا ، دليلا بيننا على أن
للعقل دخلا كبيرا في الاعتقاد ، وأنه عمل إرادي ؟ أوليس رفضنا أن نستمع
لكثير من الدعاة دليلا على أننا نقدر ، على أقل تقدير ، أن نباعد بين أنفسنا
وبين مواطن الاعتقاد ، وأنها قادرون ، لذلك ، على الاعتقاد أو على عدمه ؟ إن
الاعتقاد عمل العقل وعمل الارادة ، لا شك في ذلك ، وإن كان للرغبة والوجدان
دخل فيه كذلك .

ويعرب بعض العلماء ، ويقول إن العقيدة أمر كسبي يتعلق به الاختيار ،
في حين أن المعرفة ضرورية وملجئة . وذلك لأن النتائج المنطقية تتبع مقدماتها
بالضرورة ، فليس للعقل من محيص إلا أن يستسلم ويقبل . فمقدمات المنطق

ملجئة وملزمة ، في حين أن أدلة الاعتقاد تعطى المرء مجالاً للاختيار . ذلك ، ولا شك ، نوع من التطرف قد يكون مسبباً عن تطرف الآخرين الذين يرون أن العقيدة أمر لا يمكن اكتسابه . فكما أن الاعتقاد يمكن أن يكون كسبياً واختيارياً فكذلك المعرفة . وقد يلقى في روع المرء بعض الأشياء ، فيعتقد فيه من غير سابق روية وتدبر ، وقد يضطره الخصم ، فيسلم راغماً بما قال . فيمكن أن يوجد الكسب وعدمه في كل من العلم والاعتقاد .

ولكن ليس يلزم من هذا أن تكون المعرفة الاعتقاد ، أو الاعتقاد المعرفة . فقد توجد المعرفة بدون الاعتقاد ، وقد يوجد الاعتقاد بدون المعرفة . ففي الحالة الأولى يعلم المرء يقيناً ، ولكنه لا يعتقد لسبب من الأسباب ، وقد يفهم مثل هذا من القرآن الكريم حين يصف بعض الكفار بأنهم يعلمون الحق من ربهم ، ولكن لا يؤمنون به ولا يعتقدون فيه ، ويقول : « الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون » ، ويقول : « وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً » . وفي الحالة الثانية يعتقد المرء تقليداً ، أو يعتقد اعتقاداً ناشئاً عن تأثير وجداني من غير تدبر وتأمل ، وذلك كثير في الواقع . وليست الاعتقادات الخرافية واعتقادات العوام إلا من هذا القبيل . وقد يكون الاعتقاد نتيجة المعرفة ؛ وقد تعرف العقيدة أو تصبح موضوع البحث والنظر . وكل ذلك يفرق بين المعرفة والاعتقاد . وعلى الرغم من أن في كل من العلم والاعتقاد تصديقاً ، فإن التصديق في الاعتقاد هو تصديق يقابل التكذيب والانكار أو الشك والتردد ، والتصديق في العلم تصديق يقابله الجهل . والاعتقاد ، علاوة على هذا ، مرتبط أشد الارتباط بالعمل ،

بخلاف المعرفة . ولهذا لعبت الرغبات والحاجات النفسية والمادية دوراً مهماً في تحديد المسائل التي يتعلق بها الاعتقاد . ولا يوجد هذا التحديد في العلم والمعرفة . فالاعتقاد غير العلم والمعرفة ، وإن كان في بعض حالاته عمل العقل والارادة مثلهما . وسنرى بعد ذلك بشيء من التفصيل صلة كل من العقل والارادة والوجدان بالعتيدة .

وإذا كان من الضروري أن نذكر تعريفاً للعتيدة في هذه المرحلة من البحث فإنه يكفي أن نقول : إنها اسم للإيمان ببعض الآراء أو المبادئ التي وصلت إلى النفس ، بسبب من الأسباب ، فاستقرت فيها ، وأصبحت جزءاً منها تدافع عنها دفاعاً عن نفسها وعن كل ما يتصل بها . والمعتقدات هي الآراء والأفكار التي اتخذت تلك الأوصاف النفسية . وبما أن حياة الإنسان نواحي شتى كان من الممكن أن يكون عقائد مختلفة باختلاف هذه النواحي ، وباختلاف تجاربه في الحياة . وإن الشأن كذلك ؛ فنجد له اعتقادات علمية ، وأخرى أدبية ، ونجد له اعتقادات خلقية وسياسية واجتماعية ، ونجد له عقائد دينية . وقد يكون لكل واحدة من هذه العقائد ما يبررها ، وقد لا يكون ؛ وقد تكون أوهاماً وخرافات تصادم المبادئ الأولى للعقل ، وقد تتفق والعقل ؛ وقد تكون عقائد خاصة بفرد أو جماعة أو جماعات ، وقد تكون عتيدة الناس أجمعين . ولا يعني هنا سرد هذه المعتقدات ، أو ذكر مثل منها ، فيكفي المرء أن يختبر نفسه ، ليعلم مدى اعتقاداته ، ومدى مشاركة الناس له في هذه الاعتقادات . ولكن المهم هو أن نعلن من الآن ونقول : إن تطور الفرد أو الجماعة ، من ناحية العقائد ، لا يتوقف على كمية العقائد ونوعها بقدر ما يتوقف على ما فيها من عقل

وحكمة . فكلمما كانت العقائد قريبة من المنطق والعقل كانت أمانة التقدم والحضارة ، وكلمما كانت مسائل الاعتقاد مسائل تتجافى مع العقل والمنطق ، ويستسلم لها الفرد من غير روية وتدبر ، كان ذلك أمانة البدائية وضعف النقد والتفكير . ولعل وجود ذلك النوع الأخير من الاعتقاد وذيوعه بين جمهور الناس هو الذى دعى كثيرا من العلماء والباحثين إلى رفض الاعتقاد ومسائله . ولكنه خطأ وتطرف لا يقل ، فى بعده عن محجة الصواب ، عن خطأ الآخرين الذين آمنوا بكل ماسمعوا . فذلك تطرف ، وهذا تطرف ، والخير بينهما ؛ وهو فى الاعتقاد بعد التدبر والبحث .

والعقيدة ، بعد ذلك ، حاجة نفسية مهيمنة ، لا يتمكن الانسان من الحياة النفسية الراضية بدونها ؛ وأما هؤلاء الذين يظنون أنهم قد حرروا أنفسهم من العقائد فلم يفعلوا ذلك إلا فى الظاهر فحسب ، ولكنهم فى قرارة أنفسهم معتقدون بخرافات وبغير خرافات ، كما يعتقد أى فرد آخر من الناس . فلقد شعر الانسان فى الماضى ، كما نشعر نحن الآن ، وكما سيشتعر غالباً رجال المستقبل ، بذلك العناد الكائن بين رغباته وشعوره من ناحية وبين رغبات البيئة التى يعيش فيها ، ومطالبها من ناحية أخرى ، واعتقد بأنه من الممكن التغلب على ذلك العناد بين الرغبات ، وآمن بوجود قوة مؤثرة فى هذين العالمين المتعاندين ، وبأن الاتصال بها يساعد على التغلب على ذلك العناد . وذلك الشعور النفسى هو الذى دعا الانسان للبحث ، من أول الأمر ، ليعرف تلك القوة الخفية ، ويتصل بها ، حتى تساعد على النجاح فى الحياة . والايان بوجود تلك القوة التى تتصل بحياته وبحياة البيئة من حوله ، وتقدر على أن تساعد على تحصيل رغباته ، هو الذى هياً للنوع

الانسانى أن يعيش فى بيئة كلها عناد وتنازع . ولم يشذ عن ذلك من النوع الانسانى ، على الأقل فى العصور الأولى ، على ما يظهر ، أحد . فلقد فكر الانسان منذ عرفه التاريخ فى وجود قوة غير طبيعية مؤثرة فى ذلك العالم المتغير ، واكتشفها ، أوطن أنه وصل إليها ، ولكن فى مظاهر متعددة . فكانت شجرة فى بعض الأحيان ، وكانت حجرا ، أو عقيقا ، أو جوهرًا ، أو نجما ، أو حيوانا ، أو فردا ، فى بعض الأحيان ، وكانت إلها لا يعتريه تغير أو زوال ، ولا يتخذ شكلا معينًا ، بل باق وخالد ، فى بعض الأحيان . ولا يعنيننا الآن أن نعلم السبب الحقيقى الذى بعث الانسان على هذا الاتجاه ، وهل هو العقل أو الغريزة ؛ ولكن الذى يعنيننا هو أن الانسان لم تطمئن نفسه ، ولم يرض قلبه ، فى أى مرحلة من مراحل حياته ، إلا بعد أن فكر فى تلك القوة العليا ، واعتقد أنه وصل إليها ، ثم اتصل بها بأى نوع من أنواع الاتصال ، ثم خضع لها ، ودان لها بالطاعة .

فالعقيدة الدينية حاجة نفسية مهيمنة على عقل المرء وشعوره ووجدانه ؛ فهى مشبعة لميوله الطبيعية - الغريزية والعقلية ، وهى حاجة تطلب ، ولا بد أن تشبع ؛ وإذا لم توجد اخترعت ، ثم تحكمت . ولكن ينبغى أن يلاحظ أن كونها حاجة نفسية لا ينافى أنها ، أو أن بعضها ، قد يكون وحيًا إلهيًا ، أو أنها حق . فإن الوحي الإلهى لم يجيء إلا ليساعد الانسان على قضاء حاجاته النفسية ، ليتمكن من النهوض إلى ما قدر له من كمال كإنسان . ولو لم يكن للعقائد الإلهية أساس فى نفس الانسان لغز تبليغها إليه ، ولغز عليه هضمها واليمان بها . فهى حاجة ، وقد تكون مع ذلك من وحي الاله .

وإذا كانت حاجة نفسية كانت ذا سلطان قوى على النفوس ، فإذا ما حلت

قلب امرئ غزت كل جوارحه ، وتملكت كل مشاعره ، وأصبحت موجهه
الوحيد ، فلا يحس بغيرها ، ولا يرى حياة بدونها . وكلما اشتدت اشتتت في
تحكمها في النفوس ، فأوجدت الشهداء الذين يقابلون الموت بوجوه ضاحكة ،
ونفوس مستبشرة ، وأوجدت القديسين الذين لا يبالون بشظف العيش ،
ولا يهتمون بما ينتابهم من احن ومحن ، ماداموا يلاقون ذلك في سبيل نشر
مبادئهم وعقائدهم ، وأوجدت كل هؤلاء الذي يستعدون للتضحية بأى شيء ،
أو بكل شيء في سبيل تنفيذ عقائدهم ونشرها ، ولو لم ينالهم من جراء ذلك
أجر في الدنيا أو في الآخرة .

ومع أنها قوة تدفع إلى العمل ، فهي قوة تؤدي إلى اليقين كذلك ؛ فتجعل
المرء يحزم بأنه على حق فيما يعتقد ، ولو لم يضع عقيدته تحت الاختبار ، ويوقن
لأنه يعتقد . أو يوقن لأن نفسه راضية بما عندها ، ومطمئنة إليه ، ولا تحتاج
وراءه ، من ناحية الاعتقاد ، شيئا آخر . وذلك خير في نفسه . بيد أنه قد يدفع
المرء إلى الاكتفاء بنفسه وعدم التطلع إلى الجديد ، وذلك نوع من الجلود تأباه
الحياة . وقد يدفعه إلى عدم النظر ، وإلى أن ينكر ، من غير بحث أو نظر ، كل
ما يخالف معتقداته . وذلك تعصب مذموم يأباه العقل المتزن والدين القويم .
حقا ، إن العقيدة تدفع إلى اليقين الذي لا يحتاج إلى دليل ، وإن ظهر الدليل
بعد ذلك فهو دليل مبرر للعقيدة ، وليس ناقدا لها ، أو هو دليل ضمن نطاق
العقيدة . بيد أن المؤمن الحق الذي يقدر على النظر هو المؤمن الذي يستوقفه
النظر ، ولا يفكر ضمن نطاق العقيدة فحسب ، بل في العقيدة أيضا . ولم يكن
مبدأ الشك الذي قال به الغزالي وديكارت ، والتجرد من المعتقدات ، ساعة

النظر فيها ، الذي قال به كثير من العلماء ، إلا اعترافا بأن الطمأنينة إلى المعتقد ليست وحدها كافية ، بل لا بد أن تصحبها طمأنينة عقلية أيضا ، أو طمأنينة ناشئة عن البحث والنظر .

فالعقيدة ، من ناحية نفسية ، حاجة مهيمنة وضرورة ؛ وإنها كذلك من ناحية عملية أيضا . إذ أن العقائد الدينية تقدم نفسها لنا ، على الأقل كما يقول وليم جيمز ، كفروض يمكن أن تكون صحيحة . وهى من الفروض المهمة لنا التي لا يمكننا أن نتجاهلها ، والتي تتصل اتصالا وثيقا بحياتنا العملية . والشك في المسائل العملية محال . « وعلى الرغم من أن الحياد صعب المراس ، من ناحية نفسية ، فانه غير ممكن التحقيق ، من ناحية عملية ، وذلك لأن الاعتقاد والشك ، كما يقول علماء النفس ، من الأمور الحيوية التي تتطلب منا عملا . فطر يقنا الوحيد للشك أو لرفض الاعتقاد في وجود شيء ما ، مثلا ، هو أن نستمر في حركاتنا وتصرفاتنا ، بالنسبة له ، كأنه غير موجود . فإذا رفضت أن أعتقد أن جو الغرفة بارد ، مثلا ، فسأترك النوافذ مفتحة ، وسوف لا أوقد فيها نارا ، كما كنت أفعل لو اعتقدت أن جوها لا يزال دافئا . وإذا شككت في أنك من الأشخاص الذين يوثق بهم ، فسأكتم عنك أسرارى ، كما كنت أفعل حين أعتقد أنك لست موضعاً للثقة . وإذا ترددت في احتياج منزلى إلى أن يؤمن عليه ، فسأدعه من غير تأمين ، كما كنت أفعل لو علمت يقينا أنه ليس هناك من حاجة إلى تأمين . وإذا رفضت أن أعتقد أن لهذا العالم إلها فليس لذلك من مظهر إلا الامتناع عن التصرف نحوه على هذا الأساس ، وليس لهذا من معنى ، ثانيا ، إلا التصرف بالنسبة للأمر الخطيرة المهمة كأنها ليست كذلك ، أو التصرف على نحو غير ديني ، كأننا ننكر فعلا (١) » .

(١) راجع «إرادته الاعتقاد» لوليم جيمز الذى نقله المؤلف إلى العربية ، وخاصة ص ١٣٠

فالحياة التام ، أو الشك في كل الأمور الحيوية للإنسان ، ومنها العقائد الدينية ، محال ، من ناحية عملية . فالعقيدة الدينية ضرورة عملية ، وضرورة نفسية للفرد وللجماعة . ولذا اعتقد الإنسان ؛ ولذا كان عليه أن يعتقد ، ولو لم يصله إلهاء ؛ ولو لم تبرز العقيدة نفسها إليه ، أو تبرزها إليه قوة أخرى ، لبحث عنها في كل مكان .

تطور العقيدة

لا نغنى بالتطور هنا أكثر من الانتقال من طور إلى طور أو حال إلى حال ، سواء أ كان ذلك ارتقاء فيها أم انحطاطاً ، تحولا أم فناء . وذلك يستتبع أيضاً التحدث عن نشأة العقيدة في الإنسان ، وعن الأصل الأول لتلك العقائد التي يدين بها الإنسان الآن ؛ أو بعبارة أخرى ، يستدعى التحدث عن تاريخ العقيدة من يوم ظهور الإنسان إلى يومنا هذا ، أو على الأقل إلى يوم ظهور الأديان السماوية العليا . ولكنني أتفق هنا مع الأستاذ هوفدنج (H. Höffding) (١) في قوله إن فلسفة الأديان لعاجزة كل العجز عن معرفة الأصول التاريخية للأديان ، ولو فرضنا جدلاً قدرتها على ذلك ، مع أنه محال فعلاً ، لما أفادت من تلك المعرفة كثيراً ، إذ ما هي القيمة الحقيقية لمثل هذه المعرفة ، مادامنا نعلم أننا لا نقدر دائماً على أن نعرف نهاية الشيء ومصيره ، أو صفاته الخاصة به من معرفة مبدئه ؟ فان التغيرات والنظم التي يخضع لها الشيء أثناء تطوره قد توجد فيه صفات وخصائص لا نقدر على تبينها فيه في مبدئه أو على ربطها به ؛ ولا توجد صفات

(1) The Philosophy of Religion. Harald Höffding

الشيء الحقيقية إلا في قانون تطوره من مرحلته الأولى إلى مرحلته الأخيرة .
وانه لبعيد كل البعد أن تنجح فلسفة الأديان ، وتحل مشكلة ظهور الأديان في
النوع الإنساني ، فإن كل ما تقدر عليه هو دراسة وملاحظة ، ولكن مواد
الدراسة مفقودة ، ولا يمكن الوصول إليها أبدا ، وليس هناك ما يبشر بذلك .
وكل ما بقي يمكننا هو دراسة أحوال العقيدة بين أقل الناس تطورا ؛ وهم
ما نسميهم اليوم فطريين وبدائيين . بيد أن عقائد هؤلاء أنفسهم قد مرت
بأطوار شتى ؛ والقول بأن واحدة منها هي الأصل هو المشكلة التي يراد حلها .
بيد أن ذلك كله لا يمنعنا من أن نشير إجمالا إلى ما قيل في هذا الموضوع ،
لنخلص منه إلى ما نراه أحق بالاتباع .

يذهب كثير من علماء الأديان إلى أن العقائد الدينية تطورت عن
الأساطير والقصص والخرافات ؛ وهم لا ينكرون بذلك قيمها الاجتماعية والخلقية
والنفسية ، ولكنهم ينكرون فقط أنها وحى إلهي ؛ ويرى آخرون أن تقديس
الأسلاف وجهم أدى إلى عبادتهم ثم إلى فكرة التآليه ؛ ويرى آخرون أن
السحر قد وجد قبل الدين ، وأنه لذلك منشأه ؛ ويذهب آخرون إلى أن
« الفيتشية (١) » (Fetichism) هي أصل العقائد ، وهي أسبقها ؛ ويرى آخرون

(١) الفيتشية اسم للاعتقاد بأن لكل مادة من المواد روحا تحمل بها ، وبأن الاستحواذ
على تلك المادة يمكن الإنسان من استخدام روحها والانتفاع بها . ويقول صاحب قاموس
سعادة : انها لفظة أطلقت أولا على عبادة أهل أفريقيا المواد الأرضية ، ثم أطلقها الفيلسوف
كونت على مذاهب الجاهلية الدينية القائلة بأن للمواد حياة شبيهة بحياة الإنسان ؛ وحددها
تيلور بأنها الاعتقاد بحلول الأرواح في المواد أو بانفصالها عنها ، أو بكون تلك المواد وسطا
للأرواح ؛ وقيل انها الطور الثاني للأديان ، لأنها ليست دينا مستقلا بنفسه ، لأن العبادة
فيها ليست أمرا ضروريا . وجل ما هنالك أن الزنحي الأفريقي يعتقد أنه يتمكن بواسطة
الفيتش من إكراه معبوده للاذعان لما يريد هو .

أن منشأ الاعتقاد هو إحساس المرء بروعة المجهول وجلاله ؛ ويرى آخرون أن الشعور بالضعف وبال الحاجة إلى ظهير هو الذى دعا الإنسان إلى الاعتقاد فى ذلك الظهير . بيد أن ذلك كله لا يعدو أن يكون فروضا قد يكون هناك ما يسمح بافتراضها ؛ فلا شك أن هناك حالات كثيرة ، ذكرها هؤلاء العلماء ، قد تشهد لهذا النوع من التطور الذى ذكره بالنسبة لبعض العقائد ؛ ولكن ليس هناك ما يمكن أن يدل على صحة التعميم ، أو على أن أحد هذه المظاهر أقدم من المظاهر الأخرى . فهى كلها فروض ، ولا بد أن تظل كذلك ؛ وهى ، على الرغم من هذا ، فروض غير حاصرة ؛ إذ قدبقى أن يقال ان العقيدة وحي إلهى .

ولست أدرى ما الذى يمنعنا من وجهة منطقية محضة ، أو من وجهة البحث العلمى ، أو من وجهة تاريخية محضة ، وبغض النظر عن مقالاته الأديان أيضا - من قبول هذا الفرض الأخير ، والقول بأن العقائد الدينية الصحيحة - كوجود الله ووحدته الخ - كانت وحيًا إلهيًا من أول الأمر ، جاء الإنسان منذ وجوده ، فوافق ميوله النفسية ، فقبله ، وآمن به ؟

يقول بعض العلماء المعنيين بهذه البحوث ان افتراض « الفيتشية » أصلا للأديان أولى من هذا الفرض الأخير . وذلك لأنها أقرب إلى العقل وأقرب للمألوف منه . فانظر إلى « هو فدينج (١) » ، مثلا ، حين يقول : افترض علماء الكلام أنه أوحى للإنسان الأول بدين كامل لا ينقصه شيء ، ولكن الإنسان عصى وغوى بعد ذلك ، فجاءت الأساطير والأوهام وعبادة الأسلاف الأصنام الخ ؛ وأما الفيتشية فتري أن الأوهام أو النقص أو الضعف كان سابقا للحق وللقوة والكمال . « ولكنه من الهين علينا أن نفهم تطور الكامل عن الناقص ، دون العكس .

(١) المرجع السابق لـ (Höfding)

فإذا كان الكامل يضم بين جوانحه عوامل النقص ، أو بذور الناقص ، فانه لا يكون كاملا (وذلك مسلم به بالنسبة للإله دون الإنسان) ؛ ولكن الناقص قد يتطور إلى الكمال بالحركة وبالتغير . فافترض رجال الدين مرجوح عندهم ، لأن المؤلف في التطور هو التطور من الأدنى إلى الأعلى ، لا العكس ؛ ولا شك أن عقيدة التوحيد ، مثلا ، أرقى من عقائد التثنية ، وعقائد التنزيه أرقى من عقائد التشبيه ، والعقائد الدينية العليا أرقى من عبادة الأسلاف وغيرها ، فهي ، إذن ، حركات متأخرة لابد أن تكون مسبقة بحركات أخرى .

ولست أدري لماذا كان التطور من النقص إلى الكمال تطورا طبيعيا ومعقولا ، وكان العكس غير طبيعي وبعيدا عن العقل ، فإن العقل يألف انحطاط الكامل ، مادام الكمال ليس ذاتيا له ، كما يألف التقدم والارتقاء . وما قيل في الكمال ووجود بذور النقص فيه يمكن أن يعارض بمثله في النقص ، فيقال إذا كان ما هو ناقص يحوى بذور الكمال فيه ، أو يضم بين جوانبه عوامل الكمال ، فانه لا يكون ناقصا . على أن المسألة وجها آخر يتناسب مع ما أسموه تطورا طبيعيا ؛ وهو الذى يعينى هنا ، وأحب أن أوكدّه . وذلك أن العقائد الدينية الصحيحة ليست إلا وحيا إلهيا ، جاء بما يتفق وميول الإنسان وحاجياته . بيد أن تجارب الانسان كانت في المبدأ محدودة ، وكانت حاجياته محدودة ، فأوحى إليه من الحقائق الالهية بما يكفى حاجته ، وبما يتناسب مع ثقافته . ولما زادت تجاربه ، ونما عقله ، وتعددت حاجاته ، احتاج إلى معلومات أكثر لتتناسب مع حاجياته المتطورة ، وهكذا حتى اكتملت الانسانية ، فجاءها الوحي كاملا على يدي خاتم الأنبياء سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم . فهناك تطور وتدرج في تعليم

الإنسان العقائد الإلهية، فنزلت منجمة على مراحل عدة، حتى بلغت الكمال، على
يدى خاتم النبيين؛ وكل مرحلة من المراحل حق؛ وكلها حق؛ فالعقيدة الحقّة
متطورة. ولكن هناك تطورا آخر غير هذا يتصل بتلك العقيدة الحقّة أيضا،
وهو أحد الأسباب التي كانت تدعو إلى بعثة الرسل. وأعني به التطور في العقيدة
الذي ينشأ عن طول العهد بها، أو عن سبب آخر من الأسباب الشخصية
أو الاجتماعية. فكثيراً ما كانت تختلط العقائد المنزلة بكثير من الخرافات،
أو تتبدل عن تحريف مقصود، أو غير مقصود، فتصبح وهما من الأوهام،
وتبقى منسوبة إلى الإله، أو إلى القوة الروحية العليا الموجودة وراء هذا العالم
المتغير. وكان ذلك من مدعاة إرسال الرسل ليظهروا العقائد الصحيحة مما اختلط
بها من أباطيل وأوهام، وليزيدوا عليها ما يناسب عصورهم التي عاشوا فيها. ولست
أدرى ما الذي يمنع من قبول هذا الرأي، مادامت الآراء الأخرى لا تزيد على
افتراضات، ومادام هذا الرأي مستعداً لفهمها كلها على أنها تطور أيضاً في العقيدة،
ولكنه تطور مسبق بطور آخر، ومادامت الفلسفة عاجزة عن أن ترشدنا
إلى أصل إنساني للأديان، ومادامنا نجد ما يدعمه - هذا الرأي - من التعاليم
الإلهية، التي أثبت العقل أنها لا يمكن أن تكون من وضع البشر؟

إن مثل النوع الإنساني، في تعلمه، كمثل الطفل سواء بسواء، في أنه
ينبغي أن يكون تعلمه تعلماً تدرجياً، وعلى مراحل يعلم في كل مرحلة منها ما يتناسب
مع قوة إدراكه وما يهضمه عقله، وإلا كان نصيبه الإخفاق من المعلم والمتعلم
على السواء. فلو تحدث إنسان عن المخترعات العلمية التي ننعم بها اليوم، مثلاً،
قبل اختراعها، وقبل أن توجد الارهاصات العلمية والمنطقية التي تشير إليها،

لرماه الناس بالجنون ، ولم يجد له من مجيب . فالتعليم الناجح ينبغي أن يكون دائماً بما تسمح به المقدمات الموجودة وبما يتناسب مع مقدرة المتعلمين . وذلك هو الأسلوب الذى نعلم به أبناءنا ؛ وهو أسلوب التدرج فى التربية والتعليم ؛ فلا تقدم لهم إلا ما يقدرّون على إدراكه من المسائل الحسية البسيطة ، ونباعد بقدر الإمكان ، بينهم وبين القضايا الذهنية ، والمبادئ العامة التى لا يقدرّون على فهمها ، وكلما زادت تجاربهم ، وتقدمت عقولهم ، زاد التعليم كما وكيفاً ؛ وكلما اتسع أفق تفكيرهم ، وقويت عقولهم ، زادت التعاليم ، وأصبحت أكثر دقة وتركيباً ، وأصبحت نظرية أكثر منها عملية ، وأقرب إلى العموم منها إلى المسائل الخاصة . فيبدأ الطفل بالمسائل الخاصة المحسوسة ، وينتهى بالقضايا الكلية التى تنطبق على مسائل الماضى والحاضر والمستقبل . بيد أنه يجب على المعلم الحكيم ألاّ يلحق الأطفال ، كما قال افلاطون ، من أول الأمر ، إلا ما هو حق ؛ فلا يلقيهم اليوم بعض الأشياء التى سوف يتطلب هو منهم أن يتركوها فى الغد ، أو التى سيحكم هو عليها فى المستقبل بأنها كذب أو خرافة ؛ فإنه إن فعل ذلك أوقع الأطفال فى حيرة وارتباك ؛ وقد يرمونه بالغش والخداع . وعلى هذا الأساس ، يمكن أن يقال إن حياة الأطفال التعليمية تقع فى مرحلتين : مرحلة ما قبل النضوج الفكرى ، وهى مرحلة التخزين التى يختزن الطفل فيها كثيراً من المسائل الجزئية ، لينتفع بها فى المستقبل ؛ وهى مرحلة الاعداد . ومرحلة النضوج الفكرى ؛ وفيها ينتفع بما اختزن ، ويزيد عليه ما يتناسب مع هذا النضوج . والمرحلتان ضروريتان له ؛ والمعارف التى يحصلها فىهما ضرورية وحق ؛ ولا يمكن أن يكون ما هو عليه من غير هذه أو تلك . وإن الشأن كذلك بالنسبة لتعليم النوع الإنسانى مسائل العقيدة .

فالإنسان في حاجة إلى أن يتعلم وإلى أن يعرف مسائل العقيدة - في حاجة نفسية إلى ذلك ، كما أشرنا آنفا ، وفي حاجة اجتماعية إليه أيضا ، يتوقف عليها بقاؤه وتقدمه في الحياة ؛ دعنا نفترض تلك الحاجة الثانية الآن افتراضا ، وخاصة لأنه ليس هناك من ينازع فيها كثيرا ؛ وقد تدعونا الحاجة إلى التحدث عنها بإيجاز. والأسلوب الحكيم الذي يتعلم به الفرد هو الأسلوب الذي يتعلم به النوع الانساني أيضا . لأن قوانين الاله التي سنها لواحد من خلقه تنطبق على الجميع ، لأنهم عنده من تلك الناحية سواء ؛ والناس جميعا بالنسبة له ، كأطفال في تلك الناحية ، بل في جميع النواحي كذلك . فيتعلم الانسان مسائل الاعتقاد تعلمًا تدرجيا : فيوحي إليه أولا بما يتناسب مع حاجاته ومع تطور عقله ، وهكذا حتى زمن النضوج ، فيعلم ما يتناسب مع تلك المرحلة أيضا . فيكون الوحي سلسلة تبدأ وتنتهي على النحو الآتي : يوحى إلى الانسان أولا من المعارف الصحيحة ما يكفيه هاديا في حياته الضيقة المحدودة ، وما يتناسب مع مقدرته العقلية . وعند ما تزيد حاجياته ، ويكثر الكون عمرانا ، وتتقدم عقلية الإنسان ، لتقدم تجاربه وكثرتها ، يزيد الأيحاء أيضا من غير أن يلغى ما سبق . وعند نضوج الانسانية يكمل الأيحاء ، ولا تكون هناك حاجة لتجده . فالمراحل المختلفة مراحل يكمل بعضها بعضا ، وليست مراحل يناقض بعضها بعضا . والمرحلة الأولى حق ومحتاج إليها ؛ والمرحلة الثانية حق ومحتاج إليها ؛ وكذا المرحلة الأخيرة ؛ وهي مرحلة الكمال ؛ وهي المرحلة المكملة للمراحل السابقة جميعا . وهي كلها متضمنة فيها . وهذا هو ما اعترف به الرسل . فيقول عيسى عليه السلام إنه جاء مكملا لتعاليم موسى عليه السلام ، ويقول محمد صلى الله عليه وسلم إنه جاء مكملا

لما لم يكن كاملاً من قبل ؛ وهو تلك « اللبنة » (١) التي كانت ضرورية ليكمل بها البناء . وفي القرآن الكريم « ألم ، الله لا إله إلا هو الحي القيوم ، نزل عليك الكتب بالحق مصداقاً لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل ، من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان » ، و « اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً » . والخطاب هنا على ما يظهر لكافة الناس المخاطبين بالإسلام ، وليس للمسلمين فقط ، كما قيل . فالיום الذي تمت فيه التعاليم الإسلامية هو اليوم الذي كمل فيه دين العالم الذي بدأ بأول الرسل وانتهى بنخاتم سلسلة الرسالة محمد صلى الله عليه وسلم .

وذلك هو التطور الذي عنيته بقولي آنفأ تطوار ارتقائى فى العقيدة . وهو أقرب إلى العقل من التطور الذى ذكره الباساؤون فى تاريخ الأديان ؛ لأنه تطوار لا تتناقض مراحلها ، ولا يلغى بعضها بعضاً ؛ وذلك هو التطور فى العادة الذى نلاحظه فيما نشاهده من تطورات . وأما التطور الذى ذهبوا إليه فهو تطوار ذو مراحل متباينة يلغى بعضها بعضاً ، ولا نكاد نجد فى مراحلها ما يدل على الاستمرار والانسجام . فأى تشابه هناك بين الإيمان بالله واحد فرد صمد لا يشبه شيئاً من المواد ولا يعتريه تغير ، وبين أى نوع آخر مما ذكرناه أصلاً لتلك العقيدة ؟

وأما التطور الآخر - التطور النزولى الذى ألمعت إليه سابقاً ، فهو ذلك التطور الإنسانى الذى نشأ عن اتجاه الإنسان وميله ، أما فى العقائد التى جاءتة وحياتاً سماوياً ، أو فى العقائد التى كانت نتيجة ميوله واتجاهاته . فإذا تركنا العقائد

(١) يشير إلى الحديث النبوى : مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى داراً ، فأكملها وأحسنها . إلا موضع لبنة ؛ فجعل الناس يدخلونها ، ويتعجبون ، ويقولون : لولا موضع اللبنة ، فأنا اللبنة ، وأنا خاتم النبيين .

اللا دينية جانباً ، لأن الأمر فيها واضح ، ولا نخالف فيها مذهب إليه الآخرون ،
أمكننا أن نشرح التطور في العقائد الدينية شرحاً يقبله العقل أيضاً ، ونجد ما يشهد
له في حياتنا اليومية . وذلك أن العقائد الإلهية قد يدخلها بعض التغيير بفعل الإنسان ،
فتزيد أو تنقص ، وتبديل بطول العهد وكثرة التغيير ، وبذا تنحط في الكمال
عن وضعها الأول . وذلك تطور ، ولكنه من الكمال إلى النقصان . فقد تنسى
العقائد ، بطول العهد ، وتحل مكانها أخرى شبيهة بها ؛ وقد يساء استعمالها أو فهمها ،
ثم يعتبر هذا الفهم الخاطئ مدلولاً حقيقياً لها ؛ وقد تختلط بكثير من الأوهام
والخرافات لبعض الأغراض الشخصية ، أو من غير قصد على الإطلاق . وليس
على المرء منا إلا أن ينظر لما حوله ليرى كيف تنتشر الإشاعات الكاذبة ، وتأخذ
بسرعة ثوب الحقيقة ، وتصبح بعد قليل جزءاً مكملًا للحقيقة ؛ وكيف تختلط
الأوهام بالحقائق ، وتصبح جزءاً منها بعد قليل من الزمن . وهذا النوع من
التطور في العقيدة هو أحد الأسباب التي اقتضت بعثة الرسل ؛ ولقد جاء الرسل
كلهم مطهرين للعقائد القديمة مما علق بها من أوهام ، ومجددين كذلك . وإن
دراسة التاريخ لكفيلة بأن تبين لنا كيف أن الرسل جميعاً كانوا مطهرين قبل
أن يكونوا مجددين ؛ وما رسالة محمد عليه الصلاة والسلام إلا مثل لذلك ؛ وهي
لاتشذ عن رسالة الرسل من قبل . وإن نظرة قصيرة لحال الناس كافة ، من وثنيين
ومسيحيين ويهود ، قبل بعثته صلى الله عليه وسلم ، لتبين لنا كيف أن بعثته
كانت ضرورية ، لإنقاذ البشرية جمعاء من حالات السقوط الروحي والأدبي
التي حلت بها ، ولتطهير العقيدة الدينية من الأوهام التي علقت بها ، وللاتيان
بقواعد جديدة تتناسب مع ما جد في العالم من مدينيات وحضارة .

فهناك ، إذن ، في العقائد الدينية نوعان من التطور ؛ ولكنها نفسها ، وفي

أصلها ، وحى من الله . وذلك هو أصلها الحقيقي ؛ وإن كان لها أصل في نفس الإنسان كذلك ، وكان هو قادراً على الوصول إلى بعضها ، وقد وصل إلى ذلك فعلاً ، كما سيتبين في فصل العقيدة والفلسفة .

ولست أرى مانعاً يمنع من قبول هذا الرأي ، اللهم إلا أن ينكر الأصل كله ، ويقال هل هناك إله ؟ وهل يحتاج الإنسان إلى توجيهه وهدايته ؛ ولكن التحدث في هذين الموضوعين قد يخرجنا عن موضوعنا الضيق ، لما يقتضيه من بحث طويل ، لذلك نجد أنفسنا مضطرين للاكتفاء بالإشارة إليهما بإيجاز . أما فيما يتعلق بوجود الله فإن لنا أن نؤجل النظر فيه الآن ، لأننا سنتعرض له بعد ذلك بما فيه الكفاية ، وأما حاجة الإنسان إلى التوجيه الإلهي فهي التي سنتحدث عنها الآن .

إن طبيعة الإنسان طبيعة ، ولا شك ، معقدة ؛ لأنه مؤلف من عناصر متعددة ، وقوى مختلفة ؛ ولكل واحدة من هذه القوى ، ومن تلك العناصر ، حاجات ومطالب . فليس الإنسان حيواناً خصب ، ولكنه حيوان مفكر ؛ فله جميع مآل الحيوانات من عناصر وغرائز ، ويزيد عليها العقل ، وما قد نسميه الضمير ، وكذا بعض ميول طبيعية قد يحلو لنا أن نسميها غرائز دينية ، والغريزة الاجتماعية كذلك ، وإن كان يشاركه فيها بعض الحيوانات .

وتلك المواهب الطبيعية هي قائد الطبيعة الذي يهيء له فرصة البقاء والمحافظة على كيانه . فتساعده قواه الغريزية والوجدانية على أن يحصل الحاجات الضرورية للمحافظة على الذات ؛ ويساعده تفكيره على تنظيم تلك الحاجات وتنظيم طرق تحصيلها ، وعلى العمل للمستقبل كذلك . فالإنسان لا ينظر ، بطبيعته ، إلى اللحظة الحاضرة من حياته خصب ، ولكنه ينظر إلى المستقبل

كذلك ، ويحاول أن يربط الحاضر به . بيد أن تلك المواهب الطبيعية ليست دائماً
في انسجام ؛ فكثيراً ما يظهر التنازع بين العقل والقوى النفسية الأخرى . وأفراد
الوجدان نفسه قد لا ينسجم بعضها مع بعض . فقد تتغلب بعض الانفعالات على بعض
ويضر أشباعها الجسم كله . والسبب في هذا هو ، كما يقول افلاطون ، أن الانفعالات
والوجدانات أمور فردية مستقل بعضها عن بعض ولا تكون كلاً ؛ وكل واحد منها لا
يهدف إلا نحو إشباع نفسه فحسب ، من غير اعتبار لمصلحة الجميع ؛ وكثيراً ما
تتناقض تلك الذات الجزئية مع مصلحة الكل وسعادته . ومن هنا كان لزاماً على
المرء أن يتحكم في انفعالاته وفي وجداناته ، ليحقق مصلحة الجسم كله . ولكن من
ذا الذي يقدر على أن يتحكم فيها ، وينظمها فيجعل إشباعها إشباعاً لا يؤذي محلها
ولا المجموع كله ؟ قد يقال إنه العقل ، ولقد قال بذلك افلاطون من قبل ، فيتحكم
العقل بما له من مثل عليا ومبادئ سامية . ولكن سؤالاً يفرض في الحال نفسه ،
وهو : هل للعقل من القوة ما يساعده على أن يفرض نفسه ومثله العليا على قوى
الإنسان الوجدانية ؟ والجواب ، من سوء الطالع ، لا بد أن يكون بالسلب ؛ فكثيراً
ما يغلب العقل على أمره بالانفعالات والوجدانات ، ولا تكون له الغلبة المطلقة
إلا نادراً . وهذا هو السر في أن الحكماء قلائل في التاريخ . هذا من ناحية ،
ومن ناحية أخرى ، كيف للعقل وحده ، وهو الملون إلى حد كبير بالنزعات الفردية
والأنهواء الشخصية ، أن يعرف الحد الذي يجب أن يقف عنده في تحكمه في
المرء ووجداناته ؟ فإنه إذا قدر له أن يتحكم فقد يتطرف في ذلك ، وقد يقصر .
لهذا كان الإنسان ، في خاصة نفسه ، في حاجة ملحة إلى قوة غير قواه الطبيعية ،
لتنظم له كلاً من حياته العقلية والوجدانية ، ولتضع كلاً منها في مكانه اللائق به ،
فلا يطغى ولا يطغى عليه .

وليس الانسان في الجماعة بأحسن حالا من ذلك ، فعلى الرغم من أن الجماعة ضرورة من ضروريات حياة الفرد ، وأن الشعور بذلك ينبغي أن يؤدي إلى وئام وانسجام ، فإن الأمر بخلاف ذلك ، وإن حالات التنازع لأكثر من حالات الوئام بين الجماعات وبين الأفراد. وذلك لأن الناس يختلفون ، بطبائعهم ، في كثير من النواحي . فهم يختلفون في العقل وفي الاتجاه ، ويختلفون في الشعور وفي الوجدان ، ويختلفون ، نتيجة لكل ذلك ، في أخلاقهم وسلوكهم ؛ فتجد بعضهم أرجح عقلا من بعض ، وتجد رجالا منهم يتوجهون ، بطبعهم ، نحو النظريات ، وآخرين نحو النواحي العملية ؛ وبينما تجد رجالا يحبون الحركة والعمل ، ولهم قدرة على التنفيذ ، تجد آخرين لا يرغبون في ذلك ، أو لا يقدرّون على التنفيذ ، وتجد رجالا امتلأت قلوبهم بالأطماع والشهوات ، وأصبحوا أنانيين يركزون كل جهودهم ، وجهود البيئة أيضا ، إن استطاعوا ، حول أشخاصهم ومطامعهم ، من غير اعتبار لمن سواهم إلا كوسائل لتحقيق أغراضهم الشخصية. كل ذلك ، وما إليه من الاختلاف في الطبائع الذي قد يزداد حدة كلما تقدم به الزمن ، جدير بأن يوجد الشحنة والبغضاء بين الجماعات ، بل بين أفراد الجماعة الواحدة . وبعبارة أخرى ، لو ترك الناس وشأنهم لم يوجد بينهم من العلاقات إلا ما سماه ميل (J. S. Mill) « الحالة الطبيعية » ، ومعنى ذلك أنهم يكونون في حالة شحنة وتباغض وحروب يحاول القوي فيها أن يستبد بالضعيف ، ويحاول الضعيف أن يستأصل شأفة القوي بكل ما يقدر عليه من حيل ودهاء. ولا شك أن الانسان يعجز عن البقاء في مثل هذه الحالات ، فإذا ما قدر له البقاء فلا بد أن تأتي قوة محايدة لتنظم تلك القوى المتعادية ، وتجعلها أسلحة يخدم بعضها بعضا ، بدل أن تكون معاول يهدم بعضها بعضا .

ولكن ماهى تلك القوة ، ولمن تكون ؟ أهى العقل أو هى شىء آخر وراءه ؟ ولكن إذا عجز العقل عن تنظيم حياة الفرد الواحد فهو عن تنظيم حياة الجماعة أكثر عجزا . وعلى الرغم من أن التاريخ قد حدثنا عن وجود كثير من الحكماء الذى تمكنوا بعقولهم من تعرف أصول الفضائل والردائل ، والذين يمكن أن يقال فيهم انهم عقول الجماعات الذين ينظمون لها الحياة ، فانهم لا يمكن أن يقوموا بأنفسهم بتلك القيادة المطلوبة ، وذلك لأنه لا يزال يقال : من ذا الذى أعطى هؤلاء سلطان التنفيذ ؟ وهل حدث يوما ما أن تنازل الناس عن عقولهم وحررياتهم ، وتركوا رغباتهم ، استجابة لرأى فرد من الأفراد ، ونزولا عند رغبته ؟ وإذا ما حدث مثل هذا فكم من مرة كان ذلك ؟ ان الحريات الفردية والرغبات الشخصية أمور ذاتية تعدل النفس عند الانسان ، فلا يتنازل عنها لانسان مثله إلا تحت سلطان قاهر - إلا لدفع العوادي ، أو ابتغاء الانابة . ولم يذكر التاريخ شيئا عن النفوذ العام لمثل هؤلاء الحكماء ، ولم يكن نفوذهم فى الواقع إلا بين مريديهم وأتباعهم ، وكان هؤلاء دائما من القلة بمكان . ولقد كان وليم مكدوجل (W. McDougall) هنا على حق ، حين صرح بعدم كفاية القوانين الوضعية بنفسها رادعا يمنع عن ارتكاب مالا ينبغى ، أو باعثا على فعل ما يستحق الفعل ، اللهم إلا أن يقبلها الفرد بنفسه راضية وضمير مطمئن ، أو أن تكون مدعمة بقوة أخرى ، بقوة عليا ، تعلم السر والنجوى . فإنها إن لم يكن لها هذا الظهير ولم يقبلها الفرد ، فإنه قد يخالفها ، حين يأمن طائلة العقاب ، ويعلم أنه سيفعل

دون أن يحس به أحد . ومن هنا مست الحاجة إلى قوة منظمة ذات صفات خاصة ؛ فلا بد أن تكون ذات علم شامل لا يعزب عنه سر ولا نجوى ، وأن تكون قوة عادلة تنظر إلى الجميع على السواء ؛ فلا تحابي فردا لسلطانه وقدرته ولا لعصبيته وقبيلته ، بل لعمله فحسب . وذلك هو الله تعالى .

فهو المحتاج إليه عقلا ، لوجود شيئا من الانسجام بين الأفراد يسمح لهم بالبقاء وبتعمير الكون ؛ وهو مع ذلك ليس غريبا عن نفوسهم ، لأن كل امرئ يحس من قرارة نفسه بوجوده ، أو بوجود تلك القوة التي لا تنبغى لأحد غيره . ولا يتسنى لامرئ ، مهما حاول ، وكان قوى الإرادة ، أن يتغلب على ذلك الشعور النفسى ، ويزيله من نفسه ، أو لا يفكر فيه . وليس تاريخ الإنسانية جمعاء إلا سلسلة من المحاولات العقلية التي تهدف نحو تعرف ذلك الإله ، ونحو الاتصال به . غير أن تلك المحاولات كثيرا ما أخفقت ، وأدت بالأنظار المختلفة إلى تصور مظاهر شتى للإله ، وإلى القيام بأشكال مختلفة من العبادات ، أو إلى اختلاف روى بين الناس أيضا . فزادت عوامل الشحنة بين الناس ، واشتدت حاجتهم إلى من يزيل هذا العامل الجديد من عوامل التفرقة ، أو يوضحه لهم ، واحتاجوا إلى من يهديهم إلى تلك القوة التي تعلق بها شعورهم ، ويشرحها شرحا تقبله العقول جميعا ويرضى به الشعور . وكلما فهم الإله على هذا الوجه اطمأنت نفس المرء إليه ، وقبله عقله ، ثم خضع بعد ذلك ، إن رغبة وإن رهبة ، لأحكامه .

ولكن من ذا الذى يعرف حاجات الإنسان ، فى جميع العصور ، غير خالق الإنسان ؟ ومن ذا الذى يعرف قلبه وظواهره إلا الذى هو أقرب إليه من حبل

الوريد؟ ومن ذا الذى يحق له أن ينظم حياة الانسان ، ويخضع لأحكامه الانسان ، غير من خلق الانسان وجعله إنسانا؟

فالإله، فى النهاية ، هو وحده الذى يهذى الإنسان إلى سواء السبيل، وبتوجيهه تمكن الإنسان من البقاء على ظهر البسيطة ، ومن البقاء فى مجتمع، ومن الوصول إلى ما هو عليه من مدنية وحضارة . ولكن كيف تمت تلك الهداية الإلهية؟ وكيف اتصل الإله بالانسان ، فوجهه إلى ما يليق به من كمال؟ ذلك سؤال ليس له إلا جواب واحد . فما دامت القيادة الطبيعية فى الانسان - عقله وشهوته - غير كافية فى توجيهه إلى سبيل الرشاد ، وما دام العقل وحده غير كاف فى تعرف كثير من الأسرار الإلهية ، فإن التوجيه كان لابد أن يأتى من الله، وعن طريق آخر غير العقل ، ولكن يظاھرہ ، وذلك بالوحى ؛ فهو الذى عرف الانسان بنفسه ، وهو الذى أرسل أوامره للانسان عن طريق من اصطفى من عباده .

فحاجة الانسان إلى الإله حاجة نفسية واجتماعية ، وحاجة الانسان إلى توجيه الإله حاجة نفسية واجتماعية . وذلك هو أصل العقيدة : تعطش من ناحية وبذل من ناحية أخرى ، فجاءت العقائد مشبعة لما فى العالم من حاجات ؛ وتلك متطورة، فجاء التنزيل على أطوار . بيد أن الرسل - من نعرف ومن لانعرف ممن لم يقص علينا - كانوا لا يرسلون فى سلسلة متتابعة فى الزمن ، ومن غير فواصل ؛ بل كانت هناك فترات ، تطول أو تقصر ، حسبما يرى المرسل من حكمة ، بين الرسول ومن يليه ؛ وكانت تلك الفترات كافية فى إيجاد التعديل الانسانى فى العقيدة . وذلك تطور آخر فيها .

ذلك هو أصل العقائد الدينية ، وذلك هو تطورها ؛ وهو ، من ناحية نظرية أقرب كل ما قيل في شرح أصل العقيدة للعقل . ولست أدري ما الذى يمنع هؤلاء الذين يدعون أن العلوم الطبيعية وغيرها من الدراسات قد حررت عقولهم من ربة الاعتقاد والتقليد ، من النظر فيه ، ومن اعتباره ، اللهم إلا أن يكون لأنه يشهد للدين ويبرره ، ويجعل له أساسا من الحقيقة ، وليس نتيجة لوهم الانسان وخياله ، أو اختراعا منه ليرضى رغباته وميوله ، فى حين أنهم - كما يقول وليم جيمز - يخشون الدين ويخافونه ، ويعتقدون فى كل شىء ويؤمنون بكل شىء ، إلا فى المسائل الدينية ، لأن الدين ، فى نظرهم ، فرض باطل من أول الأمر ، فلا يستحق شيئا من الاعتبار . أفهذا هو التحرر ؟ أم أنه التعصب بعينه ؟

فالعقيدة الدينية وحي إلهى فى أصلها ؛ ولكنه وحي موجه للانسان ؛ والانسان مستعد بطبيعته لقبول هذا النحو من الاعتقاد ؛ إذ أن كلا من عقله ووجدانه يدفعه إليه ؛ فهو مدفوع لأن يعتقد ؛ وهو يريد أن يعتقد ؛ وهو يسعى لتحقيق ما يريد . وذلك الأصل الانسانى للاعتقاد ، أو ذلك الاتجاه الانسانى نحو الاعتقاد ، أو ذلك العمل الانسانى فى العقيدة ، هو الذى صحح لنا ، كما بينا آنفا ، أن نتحدث عن عقائد صحيحة ، وعن أخرى زائفة ، أو خرافات فى الدين وأوهام فيه . فالعقيدة الدينية ، فى أصلها ، وعندما وصلت الانسان ، كانت حقا كلها ، حتى لعبت فيها الأهواء الانسانية ، ودخلها كثير من التفكير الانسانى الذى لم يكن ناضجا ، والذى كان ملونا بكثير من الاتجاهات الفردية والاعتبارات الشخصية ، فتغيرت ، وتحولت ، حتى غدت كأنها لا تمت إلى الأصل الأول بسبب .

العقيدة والفلسفة^(١)

يرى كثير من الفلاسفة ومن رجال الدين ، وخاصة من غير المسلمين منهم ، أن الحقائق الخفية ، والأسرار الإلهية ، والعقائد الدينية ، لا تخضع لسلطان العقل ولا تدخل في دائرة مدركاته ، وأنها لا تدرك إلا بالقلب والوجدان ، عند اخبار من يوثق به من الناس ، أو عندما تطهر الروح وتزكو وتقدر المرء على أن يرى ببصيرته ما لم ير ببصره ، وما لم يتمكن العقل من إدراكه أو من البرهنة عليه . وهكذا تكون الهوة بين مسائل الفلسفة والمسائل الدينية سحيقة . فمسائل الفلسفة مسائل عقلية ، نصل إليها بالمقدمات والنتائج ، والأقيسة والبراهين ، وأما الموضوعات الأساسية في الدين فمعرفتها معرفة قلبية وجدانية فحسب . وهى إما مشاهدة كأنها ملموسة وحاضرة فعلا عند من أدركها ، أو غير موجودة على الإطلاق . أو بعبارة أخرى ، ان المعرفة في الفلسفة معرفة عقلية ، وأما معرفة العقيدة والمسائل الدينية فمعرفة وجدانية ، وشتان ما بين المعرفتين .

ويخيل إلى ، من أول الأمر ، أن التفرقة بين المعرفة العقلية والشعور النفسى الذى يمكن أن يسمى معرفة وجدانية ، أو معرفة قلبية ، ليست تفرقة حادة ، بالنسبة للانسان ، بحيث تجعلهما ضدّين ، كما يتصور هؤلاء المفرقون . وذلك لأن هذا الشعور الوجدانى ، فى الانسان ، ليس مجرد شعور غرزى ، مثل شعور الحيوان والأطفال ، ولكنه شعور إدراكى ، فهو يتضمن مقدارا من المعرفة الارادية ، وإن كان ضئيلا ، وهو حالة دنيا من حالات التفكير والتدبر ، وليس حالة نفسية عمياء غير حاضرة فى الذهن وغير معقولة . فكل شعور وجدانى

(١) من محاضرة ألقاها المؤلف بالنادى المصرى الملكى بلندن عام ١٩٤٣

فى الإنسان ىتضمن نوعاً من المعرفة العقلية ، بيد أننا لانعطيه ، عادة ، اسم المعرفة حتى يرتفع عن ذلك المستوى ، ويصبح فهماً صريحاً ، وليس فهماً ضمناً فحسب . فليس التقابل بين معرفتين ، إذن ، تقابل التضاد ، ولكنه ذلك التقابل الذى يوجد بين العام والخاص .

وعلى الرغم من أن هذا حق لامراء فيه ، فسوف لأعتمد عليه هنا كثيراً وسوف لأعيره شيئاً من الاهتمام . وذلك لأننى أرى أن المعرفة المتضمنة فى الشعور الوجدانى لاتسكى فى باب الاعتقاد ، وأنها ليست الطريق الوحيد الذى وصلنا به إلى العقائد الدينية ، أو الذى نصل به إليها . وكذا الشأن بالنسبة للشعور نفسه . فالعقائد الدينية ، كما سيتضح بعد ، يتمكن العقل من النظر فيها ومن بحثها ، ومن الوصول إليها بنفسه ؛ ولابد له من النظر فيها ، بقدر المستطاع ، حتى يكون المرء معتقداً اعتقاداً معتبراً . وذلك هو الطريق الوحيد لخطاب التكليف ، وذلك هو معناه ، كما ظهر جلياً فى الإسلام .

تطلق كلمة الفلسفة ، ويراد بها البحث العقلى المنظم حول كل موجود ، سواء أ كان ذلك الموجود روحاً أم مادة ، حيواناً أم نباتاً أم جماداً . وهى تبحث فى طبيعة الموجود فى نفسه ، وفى علاقاته بالغير ، فانياً كان ذلك الموجود أم باقياً . فالفلسفة بهذا المعنى العام تشمل كل البحوث العقلية ، ومن بينها علم الإلهيات أو البحوث الميتافيزيقية ؛ وبذا يكون موضوعها كل معقول ، أو كل حقيقة ، لأن الحقيقة لابد أن تدخل ضمن دائرة المعقول . فليس موضوعها الفانيات أو المحسوسات فحسب ، ولكن كل الوجود ، أو كل موجود ، أو كل ما يمكن أن يتصوره العقل .

وهى تلك الحركة العقلية التى ترتفع بها عن الدائرة الضيقة التى يضعنا فيها إحساسنا المتعلق بشخصياتنا وبكل ما يتصل بها ، والتى تمكننا من النظر إلى الحقيقة فى نفسها بقطع النظر عن الزمان والمكان ، وعن ما تأخذه من أشكال ، أو إلى الحقيقة فى خلودها التى يؤمن بها كل عاقل ، حينما يتحكم فيه عقله فحسب . فهى تبحث ، إذن ، فى كل « ماهو » ، وفى « لماذا هو هو » ، وفى علاقته بكل مغاير . وبما أن العقل يميل بطبعه نحو التركيب والتعميم ، ونحو القانون العام ، ولا يستريح حتى يرى كل ما يتصوره خاضعاً لقوانينه العامة ، ومرتبطة جزئياته برباط واحد ، فإنه يحاول ، بالضرورة ، ربط الموجودات بعضها ببعض وإرجاعها إلى سبب واحد وقانون عام يخضع له الجميع ، ولا يخضع هو لأحد ؛ وذلك من الفلسفة أيضاً .

فمباحث الإلهيات ، حينئذ ، من المباحث التى تتناولها الفلسفة ؛ ولهذا يمكن أن يقال ان موضوع الفلسفة وموضوع العقيدة الدينية موضوعان غير متباينين . فسواء أردنا بالدين تلكم التعاليم التى تتعلق بتنظيم حياة الفرد فى علاقته بالجماعة ، والجماعة فى علاقتها بجماعات أخرى ، وتنظيم علاقة كل هؤلاء بالإله ، أم أردنا به تلكم التعاليم الروحية فقط التى تتعلق بعلاقة الفرد بالإله ، فانا نجد أن علاقتهما ببعضهما ، من حيث الموضوع ، علاقة المتساويين ، إذا أردنا المعنى الأول للدين ، وعلاقة العام بالخاص ، إذا أردنا المعنى الثانى له . وبما أن الدين الإسلامى ليس قاصراً فى تعاليمه على هذا النوع الأخير من التعاليم ، بل ينظم نواحي الحياة الإنسانية كلها ، ويدعو إلى النظر فى الكون وإلى الدراسات الكونية ، صح لنا أن نقول ان موضوعاته هى موضوعات الفلسفة بعينها .

بيد أننى لأقصد أن أتحدث هنا عن الدين في عمومته وعن الفلسفة في عمومها، ولكن أريد أن أتحدث عن ناحية واحدة منهما فحسب، وهى تلك الناحية المتعلقة بالاله وبصفاته. وتلك، ولاشك، أم العقائد، فإذا ما تبين أنها من المسائل التى يتمكن العقل من ادراكها، ومن بحثها، كان ما يتبعها ممكن الإدراك عقلا كذلك.

وقبل أن نخوض فى الموضوع، نحب أن نشير إلى مشكلة قد تعرض لبعض الأفكار، فتسبب لها كثير من القلق والاضطراب. ألا وهى، أنه قد يقال، وقد قيل فعلا، أنه من الضروري لنا قبل التحدث فى هذه الموضوعات أن نعرف مقدرة العقل على بحثها والنظر فيها. فكما أننا لانحاول القطع بالآلة حتى نعرف أنها من الآلات التى يمكن أن تقطع، فكذلك لا ينبغي لنا أن نتحدث عن الباقي غير المحدود وعن معرفة العقل له قبل أن نعرف صلاحية العقل، وهو محدود، لتعرف غير المحدود. ذلك إشكال قد يرد، ولكنه يحمل معه ما يدفعه، فإن العقل هو الذى نلجأ إليه، إذا أردنا ذلك، لنختبر به الصلاحية أو عدمها؛ فهو الذى يبين لنا أنه قادر على بحث هذه الموضوعات أو غير قادر على ذلك؛ وليس لنا من آلة نستعملها غير العقل. وإذا كانت قدرتنا على بحث الالهيات قد سمعت، وجاءت عن طريق اخبار أحد الناس، فإن العقل هو الذى سيبحث صحة قول هذا المخبر، وعمّا إذا كان من شأنه أن يخبر، أو أن يقبل خبره. ولكن إذا عرف ذلك بالعقل فإن العقل يكون هو الذى قد برهن على المقدرة أو عدمها؛ وذلك يستدعى، حسبما يتطلب الاشكال، بحثا آخر ليبين مقدرة العقل على القيام بهذه الأبحاث الثانية، وهلم جرا. وأنه لمن المستحيل، فى الواقع، أن تبدأ بحثا عقليا من غير افتراض أن العقل قادر على أن ينقد نفسه، ويعلم إذا كان قد سلك الصراط السوى فى بحثه،

أو كان قد حاد عن الجادة . وإذا كان ذلك هو شأن العقل في جميع حالات تفكيره لم يكن هناك ما يبرر إيراد هذا الاشكال . على أن نقد العقل لنفسه ، كآلة للفهم والإدراك ، لا يمكن فصله ، في الواقع ، عن الفهم نفسه ، واختبار العقل اختبار للموضوع الخاص الذي يفكر فيه العقل . فاختبارك قدرة العقل على البحث في المسائل الإلهية هو نفسه بحث في تلك المسائل ؛ وإذا قمت باختبارك هذا إلى النهاية فقد قمت بعمل فلسفي جليل بحثت فيه هذه المسائل ، وبرهنت به على قدرة العقل على بحثها . وباختصار ، أن مجرد التفكير في هذه المسائل كاف لتعرف أن العقل قادر على النظر فيها ، وعلى بحثها .

ويحق لنا الآن أن ننتقل إلى مسألة أخرى ، ونسأل : إذا كان موضوع البحوث الفلسفية والدينية واحداً ، فهل طريق البحث فيهما واحد كذلك ، أم أن لكل منهما طريقه الخاص ؟ يجيب بعض العلماء عن هذا السؤال بأن طرائق البحث فيهما مختلفة ، وبأن الملكية التي نتوصل بها إلى العقيدة الدينية تختلف كل الاختلاف عن الملكية التي يستعملها الفيلسوف أو العالم في بحثه ، ويقول إن العقل ، إذا خلى ونفسه ، لا يستطيع الوصول إلى شيء من الأسرار الإلهية ، وإن محاولته الوصول إليها لمحاولة عابثة ، قد كتبت عليها من أول الأمر الإخفاق . وذلك لأن الإنسان ، بكل قواه العقلية وغيرها ، حادث ، وفان ، ومحدود في قوته الجسمية ، ومحدودة مداركه العقلية بما يأتي به الحس ؛ فكيف لمن حصرته الحدود أن يتخطاها ويدرك غير المحدود ؟ وإذا ما عجز الإنسان عن فهم المادة التي يدركها حسه ، وعن إدراك كنهها ومعرفة أسرارها ، فهو أكثر عجزاً عن أن يدرك ما لا يصل إليه الحس ولا تحيط به الأبصار . وعلى

الرغم من أننا ، في كل بحوثنا العلمية ، نكون كثيراً من القضايا الكلية التي لا ندرك بالحس ، فإننا لا نزال ، مع ذلك ، في حيز الحادثات . فنحن نشاهد حوادث متغيرة ، وندرك كثيراً من القضايا الكلية ، وننتقل من الجزئي إلى الكلي ومن الكلي إلى الجزئي ، ونشاهد أسبابا ومسببات وعللا وغايات ، ونصل من ذلك كله إلى قوانين عامة تنطبق على تلك الأفراد وعلى ما مثلها ؛ ولكن عموماً من تلك الحوادث ما شئت أن تعمم ، وارتفع إلى عام ليس بعده عام ، وستجد أنك لا تزال في حيز الحوادث . وذلك لأن الباقي ، أو الإله ، ليس مجموع الحوادث ، ولكنه موجود وراء كل ذلك . ولكن ليس هذا إنكاراً منهم لوجود الإله ، فانهم يقولون : على الرغم من ذلك كله ، وعلى الرغم من أن العقل لا يستطيع الانتقال من الحادث كله أو بعضه إلى الإله ، فإننا لا نزال قادرين على معرفة الله ، والاتصال به ، ولكن بقوة أخرى غير قوة العقل ، وتلك هي قوة القلب والوجدان التي تجعلنا نشعر بوجوده ، ونؤمن به إيماناً لا يعتريه شيء من الشك ؛ وهي لا تختلف عن تلك القوة النفسية التي ندرك بها جمال الجميل ؛ وهي التي نعرف بها ذلك الموجود المغير للحوادث ، الذي هو أصل كل حادث . فنحن نشعر بوجود ذلك الموجود ، ونحن نعرفه ، ولكننا لا نقدر على التدليل عليه عقلاً .

فلا بد أن يبقى أمر العقيدة ، إذن ، متروكاً للقلب من غير أن يكون للعقل مجال فيه . والتاريخ شاهد على ذلك . أفلم يقل التاريخ إن العقيدة أمر منزل من السماء ، نزل به الوحي الأمين ، وأيد بالمعجزات ، في حين أن البحث الفلسفي يبدأ من مقدمات بدئية ، ويستمر في عمله منتقلاً من البدهي إلى النظري ، ومؤيداً بالدليل والبرهان ، مخاطباً العقل في جميع الحالات ، بينما

يخاطب الدين القلب والعاطفة ؛ فيقول الفيلسوف ، مثلاً ، أنا أفكر ، فأنا موجود ؛ وأنا موجود الآن ، بعد أن لم أكن ؛ ولم أكن السبب في وجود نفسي ، وإلا لأوجدتها من قبل ، ولم يوجدني حادث آخر مثلي ، لأن شأنه شأنى ؛ فلا بد أن يكون الذى أوجدنى موجوداً دائماً باقياً لم يوجد له أحد ولا يعتريه تغير . وأما العقيدة فذات شأن آخر ؛ إذ يظهر ، مثلاً ، رجل من الناس معروف بصلاح الحال ، وله من القوة الروحية ، ومن الطهارة النفسية ما يسمح له بالاتصال بالملأ الأعلى والتلقى منه ، فيوحى إليه بأمر يدعو الناس إليه ، فمن صدقه آمن به وبعقيدته تقليداً ، ومن كذبه طالب بدليل ، فيأتى إليه بأمر خارق للعادة — بعمل لا يتمكن الشخص العادى من الاتيان بمثله — فيؤمن به المكذب أو الشاك ، لأنه يعتقد أنه لولا أن لهذا الانسان جاها عند الله قويا لما سخر له الطبيعة يكيفها حسب إرادته . ولكنه يؤمن من غير أن يختبر ما جاء به ذلك الرسول . فطريق الفلسفة وطريق الدين ، إذن ، متخالفان ، وإن كانت نتيجهما واحدة .

ولكن ، على الرغم من أننا نسلم بأن البحث فى الالهيات يختلف عن البحث فى سائر العلوم الطبيعية — وذلك لأن الأخير يستعمل المنطق الاستقرائى ، ويعمم من الحوادث المشاهدة ، فى حين أن موضوع البحث فى الأول ليس مدركاً بالحواس ، ولا يمكن أن يكون البحث فيه استقرائياً — فلا نسلم أن هذا يستلزم عجز العقل عن الخوض فيه ؛ وذلك لأن العقل يقدر على براهين أخرى بجانب القياس الاستقرائى ؛ وقد تسمح له هذه البراهين بمعرفة الله .

يقولون ان كل معرفة تقتضى تحديد موضوعها ؛ فلا بد للعقل ، أولاً ، أن

يميز الموضوع عن غيره ، ويعرفه بتعريف جامع مانع ، فيصفه بأوصاف لا توجد في موضوعات أخرى ، ويخرج من تعريفه ما تتصف به الموضوعات الأخرى ؛ وذلك تقييد لموضوع المعرفة وتحديد له ؛ فكيف يعرف المطلق غير المحدود ؟ ويذهبون أبعد من هذا ويقولون : إن معارفنا دائماً نسبية ، فلا نعرف الكهرباء مثلاً ، في طبيعتها وذاتها ، بل بمقدار تأثيرها على حواسنا ، وتأثر حواسنا بها ؛ فكيف نتمكن من معرفة الله في ذاته ، مادمننا غير قادرين على معرفة الفانيات في ذاتها ؟ فلا بد أن يظل أمر معرفة الله ، إذن ، موكولاً إلى قوة أخرى غير قوة العقل ؛ وهى قوة القلب والوجدان . وبعبارة أخرى ان الإله يعرف ، وهو معروف فعلاً ، ولكنها معرفة شعورية ، وليست معرفة عقلية .

ولكن يحق لنا الآن أن نسأل ، أولاً ، لماذا تفترضون ، بقولكم إن معارفنا نسبية ، أن لكل شيء وجودين ، وجوداً له في نفسه ، ووجوداً له باعتبار معرفتنا له ؟ أوليس القول بأن الشيء كما نعرفه يختلف عنه في نفسه فرضاً لا حاجة إليه من ناحية ، ولا يمكن البرهنة عليه من ناحية أخرى ؟ وكل فرض هذا شأنه فهو فرض باطل من أول الأمر . ونحن نسلم ، ثانياً ، بأن التعريف يحدد المعرفة ويقيده ، ولكن إذا كانت مادة التعريف نفسها تدل على الإطلاق ، وتتضمن عدم التحديد ، لم يكن هناك تحديد ما . فإذا أخذنا في تعريف الإله « الإطلاق وعدم التحديد » كان المعرفة ، وهو الإله ، مقيداً بأنه « لا مقيد » ، وهو مساو لعدم التحديد . ونذهب ، ثالثاً ، إلى ما هو أبعد من كل هذا ، ونعارض في القول بأن العقل لا يعرف بطبيعته إلا المحدود والفانى . وذلك لأن علماء الرياضة يتصورون العدد غير المحدود ويتحدثون عنه ؛ فغير المحدود متصور في ذاته . أو ليس اعترافنا ،

بعد هذا كله ، بأننا نعرف الفاني والمحدود ، اعترافا ضمنيا بأننا نعرف شيئا آخر وراءهما ؟ فإذا كنا لا نعرف إلا هذه المحسوسات ، ولا نعرف شيئا عن البقاء ، فكيف صح لنا أن نصفها بالفناء ؟ وإذا اعترف العقل بأن هناك شيئا أبعد من أن يدرك ، فقد حكم على هذا الشيء ؛ والحكم وصف ، والوصف تحديد ومعرفة . فالقول بأن العقل لا يدركه قول يبطل نفسه .

وإذا كان العقل محدودا ، وكان لا يقدر على الخوض في بحوث ما وراء الطبيعة ، فكيف عرف ذلك ، وأدرك أنه محدود ؟ إن الحيوان لا يعرف أنه غير مفكر ، ولا يدرك المجنون أنه مجنون ، ولكن المفكرين وحدهم هم الذين يرون أن هذا غير مفكر ، وأن ذاك مجنون . فإذا كانت مقدرة العقل محدودة ، وكان العقل عاجزا عن تصور الإله أو عن إدراكه ، فلا بد أن تكون هناك قوة أخرى تبين لتلك العقل أنه محدود ، وتبرهن له على ذلك ، فما هي تلك القوة يا ترى ؟ أهى الإله ، أم هى شيء آخر ؟ وماذا يكون ذلك الشيء الآخر ؟ وكيف تبرهن تلك القوة الأخرى للعقل وتبين له أنه محدود ؟ ذلك كله محال . وانه لمن المستحيل أن يكون هناك عقل محدود بحد معين ، ثم يعلم ، في الوقت نفسه ، أنه محدود . فمعرفة العقل لشيء من ذلك دليل على أنه ، إذا خلى ونفسه ، وأخلص في بحثه ، يتمكن من مجاوزة حدود الحس ، ومن الوصول إلى مرحلة عليا من الفهم والمعرفة يدرك فيها كثيرا من أسرار الطبيعة ، ويعرف فيها كثيرا عن الإله وجلاله ؛ ولكنه يستحيل عليه أن يعلم كل ذلك علم إحاطة وشمول ؛ لأن الباقي لا يحيط به علم مهما ظهر كاملا ، ولا تستقصيه معرفة ؛ وهو وحده الذى يعلم علم إحاطة ، ولا يعزب عن علمه شيء .

وإذا ما تركنا النظريات جانبا ، ورجعنا إلى الواقع والتاريخ ، وجدنا أن كثيرا من الفلاسفة الذين لم يتأثروا بأديان قومهم قد عرفوا الله بعقولهم . وافلاطون مثل طيب لذلك . فلقد عرف بعقله إلها يتفق والإله في الاسلام في كثير من الصفات . فهو يؤمن بأنه واحد ، وبأنه خير كله ، وبأن قدرته غير محدودة ، وبأنه يعلم علم إحاطة ، وبأنه لا يقبل التشكل أبدا ، ولا يعتريه التغير ، ولا يجوز عليه الزوال . ولا يمكن أن يقال ان افلاطون كان متأثرا في ذلك بعقائد قومه وتقاليده بيئته ، لأنه كان قد هاجمهم في عقائدهم ، وعرف إلها لا يشبه آلهتهم في شيء . وعلى الرغم من أنه لم يصرح بلفظ الإله ، حين كان يكتب في الإلهيات ، وإنما ذكر ألفاظا أخرى ووصفها بأوصاف لا تنطبق إلا على الإله ، فقد قال شراحه إنه كان يقصد بها الإله ؛ ويرجع هذا التأويل أنه في «الجمهورية» صرح في مثل هذا المعرض باسم الإله . ويدل كل ذلك على أن الإنسان يقدر على أن يعرف الإله ويعرف كثيرا من صفاته .

بيد أني أحب أن أنبه ، أولا ، إلى أنني لا أنكر هنا طريق الكشف القلبي ، ولا أغض من قيمة تلك القوة الروحية التي يمتاز بها بعض الأشخاص عند صفاء نفوسهم ، حيث تتجلى لهم الحقيقة ، ويصلون إلى مرتبة المشاهدة ؛ وهي تلك المرتبة التي لا يرون فيها إلا الحق جل جلاله ، ولا يجدون حاجة إلى برهان ؛ وذلك لأن النتيجة التي ينشدها تكون حاضرة لهم ، ومرئية رأى العين ، ولا تحتل الشك ، ولو اجتمع أهل الأرضين والسموات على الشك فيها أو مخالفتها ، كما قالت السيدة رابعة العدوية ، حينما سألت أن تبرهن على وجود الله ، « ومتى غاب عن القلوب » . فهو حاضر ومشاهد ، فكيف يحتاج البرهان ؟ وإذا أردت أن

تراه فتوجه إليه وانظر . وتلك ، ولا شك ، مرحلة عليا يغبط عليها من وصل إليها ، ولكنها حالة نفسية فردية ، وليست ميسورة لكل إنسان ، لأن الطريق إليها وعبر ومتشعب الأطراف ؛ ولا يمكن أن تقنع الآخرين . فرابعة العدوية ترى ، وكثير غيرها لا يرى ، بل ينكر ما ترى ؛ فمن هو الحكم الفصل بينهما ؟ فلا بد أن يكون هناك حكم يلجأ إليه المتنازعان ؛ وذلك الحكم هو العقل .

وأحب أن أنبه ، ثانيا ، إلى أن عقول الأفراد تتفاوت ، في مقدار استعدادها للإدراك ، تفاوتاً كبيراً ناشئاً عن تفاوتهم في مقدار انتفاعهم بتجاربهم ، واستعمالهم لعقولهم ، وفي كيفية استعمالها . ويعمر كثير من الناس ما شاء الله أن يعمر ، ثم يقضى نحبه ، وعقله لم يجاوز ، من هذه الناحية ، عهد الطفولة إلا قليلاً . فإذا لم يتوجه أمثال هذا النوع من الناس إلى البحث عن الإله ، أو عن أصل الوجود ، فليس هذا لعدم وجود الإله ، أو لعدم وجود أصل للوجود ، أو لأن العقل يعجز عن إدراكه ؛ إنه يعجز عن التوجه بنفسه فحسب ، فإذا ما وجه توجيهها صالحاً أدرك وتعلم . فهو يحتاج إلى تنبيه وتوجيه فحسب . ولست أدري ما هي الطريقة المثلى لأمثال هؤلاء ؛ وهل من الخير لهم أن ينتفعوا بتجارب العقول الناضجة ، فيؤمنوا تقليداً ، أو أن يحاولوا البحث الذي ربما يوقعهم في الحيرة والشك ؟ وعلى كل ، فينبغي أن لانس المسألة الخلافية بين علماء الكلام من المسلمين في صحة إيمان المقلد ، والرأي الراجح فيها ؛ وهو أن من كانت له قدرة على البحث وجب عليه البحث ، ولا يكتفى منه بالتقليد ، وإلا فلا يكلف الله نفساً إلا وسعها (١) .

(١) التقليد هو الأخذ برأي فرد من الأفراد من غير نظر واستدلال؛ وقد يفيد =

والآن ، إذا انتقلنا إلى النقطة الثانية من البحث التي ترى أن العقيدة الدينية ، كما عرفت تاريخياً ، لم تثبت إلا عن طريق الوحي والالهام ، في حين أن العقيدة الفلسفية لم تثبت إلا بالمنطق والبرهان ، نقول انه من الخطأ أن نفكر أن الإيحاء أو الالهام ، كسبب من أسباب المعرفة ، يناقض العقل ، أو لابد أن يناقضه . فالإيحاء الذي يظهر ، حقاً ، جلال الله وعظمته هو الإيحاء الذي يمكننا أن نعرف به الإله ؛ والتكليف الذي لا يخاطب العقل لابد أن يكون نوعاً من العبث . وإن من طلب من غير العاقل أن يعقل أو يسمع كان مجنوناً .

اليقين والجزم إذا أدى إلى الاعتقاد ، ولكنه لا يفيد العلم ، لأن العلم يتوقف على النظر والاستدلال . ولقد ذهب العلماء مذاهب شتى في صحة إيمان المقلد . فترى الأشاعرة وجمهرة كبيرة من العلماء ، ومنهم محمد بن جرير الطبري أن الاستدلال شرط لصحة الإيمان . ويقول صاحب المسيرة « ليس الاستدلال شرطاً لصحة الإيمان على المذهب المختار حتى صححوا إيمان المقلد ومنعه كثير ، وقل أن يرى مقلد في الإيمان بالله تعالى ، إذ كلام العوام في الأسواق محشو بالاستدلال بالحوادث عليه وعلى صفاته . والتقليد ، مثلاً ، هو أن يسمع الناس يقولون إن للخلق رباً خلقهم وخلق كل شيء ويستحق العبادة عليهم وحده لا شريك له ، فيجزم بذلك لجزمه بصحة إدراك هؤلاء تحسیناً لظنه بهم ، وتكبيراً لشأنهم عن الخطأ . فإذا حصل عن ذلك جزم لا يجوز معه كون الواقع النقيض فقد قام بالواجب من الإيمان ، إذ لم يبق سوى الاستدلال ، ومقصود الاستدلال هو حصول ذلك الجزم ، فإذا حصل ما هو المقصود منه تم قيامه بالواجب . ومقتضى هذا التعليل أن لا يكون عاصياً بعدم الاستدلال . لأن وجوبه إنما كان ليحصل ذلك ، فإذا حصل سقط هو ، غير أن بعضهم ذكر الإجماع على عصيانه ، فإن صح فبسبب أن التقليد عرضة لعمود التردد بعروض شبهة بخلاف الاستدلال الخ » ويرى ابن حزم أن التقليد ليس هو الإيمان من غير دليل ، ولكنه اتباع =

فلا تخاطب العاطفة ولا تكلف ، وكذا الشعور والقلب ؛ ولا يوجه الخطاب والتكليف إلا للعقل . فلا بد أن يكون الإيحاء والوحي به مما لا ينكره العقل . ولو كان ما يجب أن تؤمن به نفس المرء وقلبه يناقض بالضرورة ما يؤمن به عقله لكان المرء مجموعة من المتناقضات ، ولاحتاج إلى حاكم آخر يحكم بين قلبه وعقله . على أن العقل نفسه لا بد أن يكون قادرا على أن يحكم ، إن لم يكن على ما جاء به الوحي ، فعلى الأقل ، على صحة الإيحاء ، وعلى أن الوحي حقه أن يطاع ، وعلى أن الوحي إليه لم يغير في الوحي . ولكن الإيحاء الذي يقبل العقل ،

== من لم يؤمن باتباعه من الناس . وأما الأخذ بقول الرسول صلى الله عليه وسلم فليس تقليداً ، ولكنه إيمان وتصديق واتباع للحق وطاعة لله عز وجل . ويقسم الناس إلى من تطمئن نفسه ، ويحب إليه الإيمان ويكره إليه الكفر والفسوق والعصيان ، ويلقى الإيمان في قلبه من غير نظر واستدلال ، وإلى من لا يطمئن إلا بالدليل . فلا يجب البحث على الأول ، وليس هو في حاجة إليه ، ويجب على الثاني ليحقق لنفسه الاطمئنان ، وليق نفسه النار . بيد أنا نحب أن نوجه سؤالاً واحداً إلى ابن حزم ، وهو هل تقبل خبر المخبر بأنه رسول بمجرد الإخبار أو نحتاج إلى استعمال عقولنا وإلى مناقشته ، وهل تقبل كل ما جاء به ، ولو كان مجموعة من المتناقضات ؟ وإذا كان كل من الوحي والإيحاء معترفاً بالعقل وبسلطانه ، وإذا كانت صحة الرسالة متوقفة على العقل ، ولا بد لابن حزم من الاعتراف بذلك ، فلا معنى لتلك الحملة الشعواء التي حملها على الأشاعرة حين قالوا : إن الدليل الإجمالي ضروري في صحة الإيمان . وذلك الدليل الإجمالي موجود في سائر النفوس ؛ ولا تعجز نفوس العوام إلا عن نظمه فحسب . ولقد كان افلاطون على حق في قوله إن معرفة الله معرفة موجودة بالفعل في كل عقل ، بل المعارف كلها كذلك ؛ وليست مهمة المعلمين تلقين المتعلمين ، ولكن تنبيههم إلى ما وقر في نفوسهم وآمنت به عقولهم .

وينخضع لسلطانه ، ويعتبره برهانا على صحته ، لا بد أن تكون تعاليمه خاضعة أيضا
لذلك السلطان ، وأن تكون مما يقبله العقل ؛ فمن المحال أن يوحى الى البشر
بما لا تقدر على فهمه عقولهم . وكما أنه من المحال أن تجعل الأعمى الذى ولد
كذلك يدرك الألوان المختلفة ، فكذلك من المحال أن تطلب من العقل أن
يدرك ما لا يتمكن من ادراكه .

فالوحى لا يمكن أن يناقض العقل بحال من الأحوال ؛ ولكنه مساعد
للعقل ، ومنبه له إلى أن هناك موجوداً يتمكن من إدراكه ، إذا ما توجه إليه ،
ومبين له بعض أسرار إلهية ، يعرفها هو معرفة محجلة . ولتوضيح ذلك نلجأ إلى
مثال . فلنفترض أن رجلاً أعمى لا يعرف أن هناك حاسة تسمى حاسة البصر ،
ويتصف بها بعض الناس دون بعض ، التقى بمبصر لأول مرة ، وهو لا يعرف
أنه مبصر ، فدخل حجرة من الحجرات ؛ فقال المبصر عند الدخول إن مساحة
هذه الحجرة عشرون متراً ، وإن بها كذا من الأرائك ، وإن فى الجانب الأيمن
منها مائدة تضم كذا وكذا من الأطعمة . فعجب الأعمى ، وظن أن صاحبه
يمزح ؛ ولكن تأكيده جعله يذهب ويختبر الغرفة بما فيها بحواسه . فذرعها
بيده ، ولمس الأرائك ، وأكل من الطعام ، وعلم من تجاربه أن صاحبه صادق .
فبدأ يتساءل هل لصاحبه حاسة يفقدها هو ؟ فإذا ما تكررت حوادث من هذا
النوع ، وأصبح الأعمى يقبل كثيراً من أخبار صاحبه ، فإنه قد يؤمن بعد
طول التجارب بأن لصاحبه حواس أكثر من حواسه ، أو قوى أكثر من قواه .
بيد أن وجود حاسة البصر عند المبصر لا يجعل الأعمى يعتقد أن كل أخبار
المبصر صادقة . وذلك لأنه قد يخدعه أو يكذب عليه لغرض من الأغراض .

ولهذا فإن الأعمى قد يقسم الأخبار التي تعتمد على تلك الحاسة إلى ما يغلب عليه الصدق عقلا ، وإلى ما يغلب عليه الكذب ، وإلى ما لا يتبين وجه الحق فيه ؛ وما يقبله من هذه الأخبار فإنما يقبله لأنه في نفسه معقول يغلب عليه الصدق ، وليس لإخبار صديقه المبصر فحسب ؛ وهو لهذا يحاول أن يبرهن على ما تمكن البرهنة عليه ، ويرى نفسه في حل من أن يرفض ما عدا ذلك ، أو يطلب عليه برهانا . ولكن إذا كان البرهان مع كل ذلك ضروريا ، فما هي مهمة إخبار المبصر ، وما هو أثره ؟ تلك المهمة هي تنبيه الأعمى إلى أن هناك شيئا موجودا لا يحس به ، وحثه على أن يحاول أن يتصل بذلك الشيء ، ويتعرف إليه بنفسه إن شاء . فمهمته مهمة المقترح فحسب . وبما أن المفروض أن الأعمى عاقل ، فسيدفعه عقله للبحث ليتعرف . وتلك هي مهمة العقل . فكما أن الجسم يبحث عن غذائه ، وهو الطعام ، فكذلك يبحث العقل عن غذائه ، وهو المعرفة .

ذلك مثل محسوس يلقى لنا شيئا من الضوء على علاقة الرسول بمن يدعوهم إلى الإيمان بعقيدته . فيبلغ الرسول من الرقى الروحي وصفاء النفس ما يجعل الحقيقة تتجلى له في وضوح ؛ فهو يراها بروحه وعقله ، من غير أن ينتقل في تفكيره من سبب إلى مسبب أو من دليل إلى مدلول ؛ ولكنه يراها معا . فهو يرى السبب والمسبب معا ؛ ولا يحتاج إلى دليل ، لأن المدلول حاضر ومشاهد رأى العين ؛ ولا يحتاج إلى برهان ، لأنه يرى النتيجة كذلك . فهو يرى العالم في اعتماده على الخالق ، ويرى الخالق كأصل لكل موجود . تملكه هذه الحقيقة ، وتأخذ بمجامع قلبه ، ويوحى إليه بما شاء الله ، ثم يبدأ ببلغ رسالته ، ويؤدي

أمانته . ولكن كيف يفعل ذلك ؟ أيقول أنا أخبركم فانبعوني ؟ أو يكون إيمانه
القاطع بصدق رسالته برهاناً كافياً ملزماً لقومه أن يتبعوه ، ودالاً على أن ما جاء
به حق ؟ وهل يطلب منا الرسول - حين يقول إن لى قوة نفسية تسمح لى أن
أرى ما لا ترون ، وأن أعلم ما لا تعلمون ، فآمنوا بآتى رسول رب يتصف
بكل كمال - أن نؤمن بما لا نحس به ولا نشعر ، ولا نتمكن من البرهنة عليه
عملياً ؟ وإنه لمن الطبيعى أن يقال إن الرسول لا يطلب منا أن نهذب أرواحنا ،
ونضعها لكثير من الرياضة حتى تصفو ، فنرى بعين البصيرة ما رأى . فذلك
أمر ليس بالهين ولا بالميسور لكل أحد . وقد يحتاج إلى رياضة نفسية يفنى
خلالها الشخص ، قبل أن يصل إلى غايته المنشودة . ويموت فيها الرسول ، قبل أن
يؤمن برسالته واحد من الناس . فما هى الوسيلة التى يدعم بها الرسول رسالته ؟
قد يقال إنها المعجزة . وهى الأمر الخارق للعادة المقرون بالتحدى وبدعوى الرسالة ،
كما حصل لمعيسى فى إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص ، ولموسى فى انشقاق الصخر
وتفجر الماء منه . ولكن إذا بحثنا حال المعجزة نفسها ، وقطعنا النظر عن مادتها
وعن ما صاحبها من ملبسات ، وجدنا أنها وحدها لا تنهض دليلاً على صدق من
جاءت على يديه ، إلا بعد أن تفترض فرضاً زائداً عليها . وذلك أنه لا بد أن
يفترض أولاً أن مالك القوى حكيم وعادل وعالم ، فلا يسخر القوى التى بها تخرق
العادة إلا لصادق لا يكذب ولا يخدع ، وأنه هو نفسه لا يكذب ولا يخدع .
فالمعجزة التى قد يقال إنها هى التى تثبت صدق الرسول ، ثم تبرهن على وجود الإله ،
تفترض هى نفسها ، لا مكان قبولها ، وجود الإله المتصف بكل كمال . فكيف
يمكن أن تعتبر ، بعد ذلك كله ، برهاناً كافياً ؟ ولهذا نرى أن الرسول محمداً

صلى الله عليه وسلم أمر أن يقول - حينما سأله قومه أن يفجر لهم من الأرض ينبوعا ، أو تفتح له كنوز الأرض ، أو يفعل كيت وكيت من المعجزات - « سبحان ربى هل كنت إلا بشرا رسولا » . ولم تكن معجزته إلا القرآن . وسرى بعد كيف كان القرآن من المعجزات . وليس هذا إنكاراً لوجود خوارق للعادة كحوادث وقعت في التاريخ ؛ فلا ينكر هذا إلا من أعمى نفسه عن حقائق التاريخ ، وقد وجد من أمثالها الكثير لا للرسول فحسب ، بل لكثير من الناس . ولقد كان يحصل على يدى النبي محمد صلى الله عليه وسلم كثير من الأمور الخارقة للعادة ، ولكنه لم يتحد بها الناس ، ولم يقدمها برهاناً على صحة رسالته . وهذا هو ما أردت قوله .

ولكن إذا كانت المعجزة غير كافية ، وكانت البرهنة العملية عسيرة ، وكان التقليد غير مرغوب فيه لمن يجد سبيلاً إلى غيره ، فماذا يصنع الرسول ؟ وهل يجد ما يشهد له ؟ نعم ، ان شاهده العقل . فالعقل أو معقولية ما جاء به الرسول هو الدليل على صدق رسالته . وبقدر ما فى التعاليم من عقل وحكمة تكون صحتها ، ويكون صدق من جاء بها . فإذا كان فيها من العقل والحكمة ما يجعلنا نعتقد أنها لا يمكن أن تصدر إلا عن علم كامل وحكمة تامة علمنا أنها لا بد أن تكون قد صدرت عن قوة أعلى من القوة البشرية ؛ فإن الإنسان ، ولو رقى فى الخير أعلى عقبة ، لا يزال عضواً من الإنسانية القاصرة ، يجوز عليه الخطأ والنسيان ، وتثور فيه الشهوات ، فيضل تفكيره ، وليست نظره شاملة ؛ فلا يمكن أن يكون علمه كاملاً ، ولن يبلغ من الحكمة درجة تقدره على أن يأتى بكتاب كالقرآن الذى جمع من الحكمة والبيان ما يسلم به كل عقل ، ولا يحيط به أى عقل ،

وما يعجز كل عقل عن مجاراته . فهو مصدر تاريخي لاشك فيه ، وهو كتاب قانون وقضاء عام لايجارى ، وهو كتاب حكمة وأخلاق ، وهو كتاب مواعظ ونذر ، وكتاب رحمة وتبشير ، وكتاب صلوات ودعاء . كل ذلك في كتاب واحد . فهو ينظم الدين والدنيا ، وينظم حياة الفرد وحياة الجماعة بطريقة يعجز البشر عن الاتيان بها . وتلكم هي معجزة القرآن الخالدة . فهو لم يتحد القلب أو العاطفة ، ولكنه تحدى العقل نفسه ، فأتى بما تفهمه العقول ولا تنكره ، ولكن بما تعجز عن مجاراته . وان نظرة واحدة إلى الطريقة القويمة التي أثبت بها القرآن ما أثبت لكفيلة بأن تبين أنه استعمل قوانين العقل ، وأمر باستعماله . ولقد نعى أشد النعى على من يقول « انا وجدنا آباءنا على أمة ، وانا على آثارهم مقتدون » ، وأمر بالتدبر والتفكير في ملكوت السموات والأرضين وفي الأنفس : « وفي أنفسكم أفلا تبصرون » و« قل انظروا في ملكوت السموات والأرض » . وان آية كقوله تعالى « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا » لكافية بنفسها كدليل منطقي ينفي التعدد عن الإله ، ويثبت الوحدة له . وهي نتيجة قياس شرطي مبرهن عليه ببراهين أولية تدركها العقول بمجرد التنبيه إليها ، وتجدها مدونة في مواضعها المناسبة في علم الكلام وفي التفسير . وكذا كان شأن الرسول صلى الله عليه وسلم في دعوته . ونجد ذلك واضحا حينما دعا الناس إلى رسالته ، فهو لم يقل يومئذ إني رسول الله إليكم فأطيعوني ، بل بدأ بمقدمات يؤمنون بها ، فقال : « أرأيتم لو أخبرتكم أن خيالا بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي؟ » قالوا « نعم ما جربنا عليك كذبا » ، فقال : « إني رسول الله إليكم جميعاً » .

ذلك قياس منطقي من الشكل الأول ينظم هكذا : محمد قد عهد فيه الصدق ، وكل من عهد فيه الصدق لا يكذب ، فمحمد لا يكذب .

فقبول أخبار الرسول متوقف ، إلى حد كبير ، على مقدار هضم العقول لتلك الأخبار وانسجامها مع قوانينها ، أو على مقدار عدم إنكار العقل لها ومعرفته إياها . فالعقل يعرف بطبيعته كثيراً ، ولكن قد يضل في بحثه ، لسبب من الأسباب ، عن طرق الوصول إلى الحقيقة ، فتتجلب عن شعوره ويعجز عن الإدراك الواضح ؛ ولكن تبقى الفكرة عنده مضطربة ، وباعثة على كثير من القلق النفسي . فإذا ما زالت العوائق ، واتضح الطريق ، رأى العقل كثيراً مما رأى الرسول فآمن به وصدق ، لأنه جاء مؤكداً وموضحاً لما كان كامناً فيه من قبل . « وإذا أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم ، وأشهدهم على أنفسهم ألت بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين » . فهمة الرسول هي التنبيه والتذكير . ومهمته ضرورية ، لأنه هو الذي يوجه العقل ، ويهديه الصراط المستقيم ، بعد أن كان حائرًا متردداً ، ولا يدري أين يذهب . ويصل العقل إلى ربه ، بعد ذلك ، بنفسه . ومثله بين بنى الإنسان كمثل المبصر بالنسبة للأعمى ، في المثل الذي ضربناه ، سواء بسواء . وهو لا يخاطب إلا العقل ليأخذ الصراط السوي ، فلا يخاطب العاطفة أو القلب . وهكذا نجد في النهاية أن الفلسفة والعقيدة يكمل أحدهما الآخر .

ولكن بقي علينا أن ننظر إلى ظاهرة أخرى قد تغرى بالقول بأن العقيدة تخالف الفلسفة مخالفة جوهرية ؛ وهي أن العقيدة الدينية واجبة بالضرورة ، وفيها إلزام ؛ إذ يقول الدين لا بد أن تعتقد وتؤمن بالله ، فهل الأمر كذلك عقلاً؟

وهل يمكن أن يقال إن العقل، إذا خلى ونفسه، لا بد أن يبحث عن الإله، أو لا بد أن يحاول أن يربط الموجودات المتغيرة بوجود واحد لا يتغير، وهو الإله؟ أو بعبارة أخرى : هل يلزم العقل نفسه بالإيمان بالإله؟ والجواب ، كما سنبين، لا بد أن يكون بالإيجاب. وذلك لأن العقل ، بطبيعته ، لا يقف عندما تمليه عليه الحواس ، ولا يطمئن لعالم متقطع الأوصال ، وللاأسباب ومسببات ظاهرة ، بل يبحث ليربط كل ما يتأثر به بقانون واحد، وليصل إلى السبب الذي ليس بعده سبب آخر. فلو وقف العقل عند دائرة المحسوسات التي يجد السبب فيها مسببا لكانت معرفته ناقصة، وازلت رغباته غير مشبعة . فلا بد له من أن يستمر في بحثه ، حتى يصل إلى درجة لا يقول فيها « لماذا ؟ » ، وحتى يعرف ، ولو معرفة اجمالية ، السبب الذي ليس بعده سبب ، والذي يفسر كل موجود حتى العقل نفسه ، ولا يحتاج هو إلى ما يفسره ؛ وذلك هو الله . فغاية العقل وهدوءه لا يتحققان إلا عند إدراكه لذلك الربط العام بين الموجودات ؛ ولا يكون ذلك إلا بإدراكه لوجود الله . ولأجل أن نصل إلى تلك النتيجة منطقيا يجب علينا أن نطرق ناحيتين بإيجاز : وهما أن الله وحده ، ولا شيء غيره ، يمكن أن يفهم به هذا العالم وما فيه من قوانين ، وأن العقل يتمكن من إدراك المطلق والسكى ، وأن هذين هما الموضوع الحقيقي لتفكيره ولتدبره ، والغاية التي لا يقر له قرار حتى يصل إليها .

أما بالنسبة للقضية الأولى ، فلا أراني في حاجة إلى الوقوف عندها طويلا والتحدث فيها ؛ فليس هناك الآن إلا نفر قليل لا يعتد به يظن أن المادة وحدها كفيلة بأن تفسر كل وجود . وعلى الرغم من أن النظرية المادية هذه شغلت الفكر الإنساني حقبة من الزمن ، وكان لها أنصار عديدون ، فقد تبين أنها

ليست إلا فرضاً من الفروض التي لا يمكن أن توصل إلى ما تهدف إليه من أغراض .
فالمادة وجزئياتها وذراتها كلها نتائج لأشياء أخرى ، وكلها محتاج لموجودات أخرى
تعتمد عليها ، فلا يمكن أن تكون أصل الأشياء ، لأن الأصل سابق لمسبق . ويكفي
هنا أن أشير ، أولاً ، إلى واحد من الاعتراضات الكثيرة التي وجهت إلى النظرية
المادية ، وأقول إنها قد وقعت في خلف بين حينما زعمت أن المادة هي أصل العقل ،
وسابقة في الوجود عليه ، في حين أنها ككل النظريات لا بد أن تفترض أن وجود
العقل سابق على وجود المادة ؛ وأن أقدر ، ثانياً ، أن كل نظرية ترى أن التطور في
العالم تطور آلي ، وأن العالم كله آلة ميكانيكية عظمى لا تختلف عن الآلات التي
نشاهدها إلا في الحجم فحسب ، - كل نظرية هذا شأنها لا يمكن أن تقبل بحال ،
لأن الآلات الميكانيكية تحتاج إلى بيئة خارجة عنها لتستمد منها قوتها ، وتحتاج
إلى فراغ لتتحرك فيه ؛ فليست كاملة في نفسها ، وليست مستغنية عن غيرها ،
ولكنها تحتاج إلى ما يكملها ؛ وبذا لا يمكن أن تكون أصل العالم ، والمرجع
الأخير الذي يشرح لنا وجوده ؛ لأن ذلك الأصل لا بد أن يكون المرجع الأخير
الذي لا يسبقه شيء ، والذي لا يحتاج إلى شيء آخر . وذلك هو الله سبحانه .

وأما بالنسبة للقضية الثانية ، فإنه قد يقال إننا عندما ننظر إلى الإنسان فإنا
نراه محدوداً من جميع نواحيه ببيئة أقوى منه ، لا يقدر على التغلب عليها أو الفرار
منها والشورة عليها . فجسمه محدود ، ومقدرته المادية محدودة ، وإرادته مقيدة ؛
وإن الشأن كذلك بالنسبة لتفكيره ، على ما يظهر ، لأن عقله آلة تتقبل الآثار
التي تطبعها البيئة عليها بواسطة آلات الحس ، وليس لها اختيار في قبول تلك
الآثار أو في رفضها . فيتأثر العقل ، ضرورة ، بالبيئة وبقيودها ، لأنها المصدر

الوحيد الذي يستمد منه معلوماته ، وهى التى تقرر أى نوع من الأجسام سيكون هذا الجسم ، وأى نوع من أنواع المعارف سيتلقى هذا العقل . بيد أننا إذا ما أمعنا النظر قليلا وجدنا أن العقل ، على الرغم من تأثيره بالبيئة و بالحواس ، قادر على تجاوز حدود الحس وحدود البيئة . ولا مرأى فى أن الأجسام المادية يحد بعضها بعضها ، ويشغل بعضها مكان بعض ؛ وأما العقل فلا يحدّه عقل أو جسم ، ولا يزاحمه عقل أو جسم ، وهو قادر على أن يساهم فى حياة العالم الخارجى ، مادة كان ذلك العالم أم عقلا ، من غير أن ينفى ذلك العالم الخارجى ، أو ينفى به ؛ و بقدر مساهمته فى تلك الحياة ، و بقدر ما عنده من كلى وعام ، يكون تقدمه وارتقاؤه . ولا يقف العقل بطبيعته عند املاء الحس بأن هذا الفرد ، أو ذاك الفرد ، غريب عنه ، مثلا ، بل يتجاوز هذا الحد ، ويرى فى الفرد الآخر شيئا يتفق وطبيعته هو ، كالإنسانية مثلا ، ثم ينتقل بعد ذلك إلى كلى يجمع أفرادا أكثر عدداً وأكثر تباينا ، ويستمر هكذا ، منتقلا من العام إلى ما هو أكثر عموما ، حتى يصل إلى عام ليس بعده عام ، وإلى كلى يضم كل موجود . لأنه يرى فى كل الموجودات ، وإن تخالفت فى الصورة ، شيئا واحدا مشتركا بينها تزول به الحواجز التى تفصل بين أفرادها ، وتميز هذا الفرد عن ذاك . ولا شك أن ذلك الكلى ليس من عمل الحواس ، ولا يمكن أن تدركه الحواس ؛ ولكنه عملية عقلية ، وتجريد ذهنى . وليست العلوم الطبيعية ، التى تبحث عن قوانين عامة ، لتربط بها المتخالفات ، إلا مثلا من أمثلة أعمال العقل فى محاولته الربط بين المتخالفات . فالقوانين العامة التى يجدها علماء الطبيعة فى الطبيعة ليست غريبة عن العقل ، ولكنها قوانين العقل نفسه . فهى علاقات خارجية ومنطقية معا ، ويتصف بها كل من العقل والطبيعة .

فالعقل يسعى بطبيعته ليصل إلى الكلى ، وإلى الماهيا المشتركة ، وإلى تعرف

السبب الذي لا سبب بعده ، ويسعى لإيجاد وحدة كلية تجمع شتات المتفرقات ،
 وإلى تعرف الواحد الذي يعتقد أنه لا بد أن يكون موجوداً وراء هذه المتعددات .
 ويظهر أن ذلك النوع من التعميم والضم طبيعة إنسانية لا تخص العقل فحسب ، بل
 تجاوزه إلى الوجدان والعاطفة كذلك . فالحب ، مثلاً الذي يصفه الناس بأنه فناء
 المحب في المحب ليس فناء في الواقع ، ولكنه محاولة من المحب أن يكبر من نفسه
 بضم شخصية جديدة لها . فهو توحيد بين شخصين . وبقدر اتساع تلك الدائرة ،
 وكثرة عدد الأشخاص الذين يضمون إلى الذات ، تكون عظمة الشخص ،
 وتكون قدرته وقوته ؛ ولهذا يقول الزعماء والعظماء الذين تناصرهم جماعاتهم
 إنهم الأمة أو الجماعة ؛ وذلك لأن الأمة اتحدت في أشخاصهم . وتلك طبيعة إنسانية ؛
 فيحاول كل إنسان ، بغريزته ، علاوة على المحافظة على ذاته ، أن يعلى من شأن
 نفسه ، بأن يضم إليها كل ما يقدر عليه من العناصر التي يتصورها . فالسعى
 دائماً إلى ما هو أكبر وأكمل ، وإلى الوحدة المطلقة ، وإلى الكلّي المطلق ،
 وإلى الواحد الأول . ولا بد للعقل من أن ينشد وحدة عقلية وربطاً كلياً يصل
 الفانيات بعضها ببعض من ناحية ، ويصلها بمن لا يعتريه تغير من ناحية أخرى .
 ولذا تفلسف الإنسان من قديم الزمان ، ولذا بحث بعقله في الكون ، وفي ما وراء
 الكون . قد لا يصل العقل إلى تلك الغاية التي ينشدها ، ولكنها غاية كل عقل
 بطبيعته ، أو أنها ، على الأقل ، المثل الأعلى الذي تصبو إليه كل العقول .
 أو ليس ذلك كله دليلاً على أن الكلّي غير المحسوس مقدور للعقل ، وعلى أن
 العقل يتجاوز دائرة الحس ؟ وأخيراً أفلا يصح لنا أن نقول ، علاوة على هذا كله ، إن
 شعورنا الذهني بأن التقدم في المعارف ممكن ، وبأن الارتقاء في مدارج الكمال

يمكن أيضا ، و بأننا لا نبلغ مرحلة من الكمال إلا شعرنا بأن هناك ما هو أسمى منها ، دليل على أن العقل يسعى بطبيعته وراء غير المحدود ، ويدركه ، وعلى أن هناك قوة أخرى تبلغ الغاية القصوى من الكمال الذى لا يوجد كمال بعده ؟

يقولون « كلما كثر علم المرء أحس بأنه جاهل » ؛ وذلك لأن الآفاق تتفتح أمامه ، فيرى أشياء غير محدودة لا يحيط بها علمه ، ولا يعلم عنها إلا أنه يجهلها على الرغم من وجودها ، فكلما بلغ المرء درجة من المعرفة رأى أمامه موضوعات كثيرة ، ومعارف حجة ، ومراتب عليا ، لم يصل إليه بعد ، ورأى أن ما عرفه لا يساوى شيئا بالنسبة لما لم يعرفه بعد . وذلك الشعور بالنقص فى المعرفة دليل على أن المرء يتصور كمال المعرفة ؛ لأن من لا يعرف الشيء لا يفقده ، ولا يحس بأنه محروم منه ، حين لا يتصف به . ولا يمكن أن يكون ذلك الكمال الخفى الذى نحس به محدودا ؛ وذلك لأن الشعور بالنقص لا يوجد عند بلوغ المرء درجة واحدة ، أو درجات متعددة ، من الكمال ، ولكنه شعور ملازم ؛ فكلما بلغ درجة من الكمال شعر بأن هناك ما هو أرقى منها ، ويمكن من البرهنة على ذلك . وبما أن ذلك الكمال الذى نشعر به مثل أعلى لكل محدود كان من غير المعقول أن يكون هو محدودا . فكل معرفة من المعارف الصحيحة تتضمن وجود معارف أرقى منها ؛ وتتضمن هذه ما هو أرقى منها ؛ وهكذا حتى نبلغ درجة كمال المعرفة التى لا يمكن أن تكون محدودة ، ولا يوجد ما هو أكمل منها . لأن المثل الأعلى لكل محدود لا يمكن أن يكون محدودا . وهكذا ، فكل معرفة صحيحة ، وكل علم صادق ، وكل بحث عقلى ، لابد أن يجر العقل إلى العلم المطلق غير المحدود ، وأن يدل على أن العقل لا يتمكن من إدراك المطلق فحسب ،

بل أنه يدركه في الواقع ونفس الأمر .

فالعقل يبحث بطبيعته عن الكل ، وعن الوحدة المطلقة ، وعن الكمال ، وعن الواحد الأول ؛ ولا بد له من البحث عن ذلك . وليس معنى هذا أن تلك الأشياء نتائج يصل إليها العقل بعد أن كان خاليا منها ، أو أن العقل يبدأ بالخاص ثم ينتقل إلى العام ، أو بالمتعدد ثم ينتقل إلى الواحد ، أو بالمقيد ثم ينتقل إلى المطلق ؛ لأن الكل موجود ضمنا في العقل من أول الأمر ، وكذا المطلق والواحد . ولو كان إدراك الكل ناشئا عن الانتقال من الجزئيات لما أدرك أبدا . فالقضية الكلية - كل إنسان يموت - لا يمكن أن تكون نتيجة مشاهدة الأفراد يموتون ، ولو عمر المدرك الملايين من السنين ، وشاهد موت الناس أجمعين ؛ وذلك لأنه لم يشاهد موت نفسه ، وهو واحد منهم . فالقضية الكلية ، والوحدة الذهنية ، والكمال المطلق ، الذي يصبو إليه العقل ، موجودة كلها في الذهن من أول الأمر ، وساعة إدراك نقائضها . وليست مهمة الباحث أن يوجد في ذهنه ما لم يكن موجودا فيه من قبل ، بل أن يجعل المتضمن واضحا وظاهرا . وبما أن الذهن الذي أدرك المتضمن والمتضمن - الجزئي والكل - موجود بالفعل ، استلزم ذلك وجودا ذهنيا ووجودا خارجيا ، فلا بد من وجود الكمال المطلق ، ولا بد من وجود العلم المطلق ، ولا بد من وجود الله ، مادامت معارفنا - ونحن موجودون فعلا - تقتضي ذلك .

وقد يكون من الخير أن نوضح هذه النقطة بالإشارة إلى دليل ذكره كثير من العلماء للاستدلال على وجود الله ؛ وأعني به ذلك الدليل الذي يقول : « ان

الله موجود ذهنا ، فلا بد أن يكون موجودا في الواقع ونفس الأمر » ؛ يعنى أن مجرد التفكير في أن هناك إلها يكفى دليلا على إثبات وجود الله في الواقع ، بقطع النظر عن الذهن الذى فكر فيه . ولقد اتخذ هذا الدليل صورا شتى ، وناقضه كثير من الفلاسفة الذين يعتد بهم . فناقضه ، مثلا ، كانت (Kant) الفيلسوف الألمانى بقوله إن الوجود الذهنى لا يستلزم الوجود الخارجى ، ولو استلزمه لسهل على الفقير أن يصبح غنيا ، فليس عليه ، على هذا الأساس ، إلا أن يفكر بأنه يملك القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، وسيلزم من تفكيره هذا وجود ما يشتهى من ذهب وفضة ؛ فما أحقره من فقير ، إن لم يفكر على هذا النحو !

ولكن ينبغى أن يعلم أن « كانت » لا ينكر بهذا وجود الله ، ولكنه ينكر فقط قوة هذا الدليل وصحته في إثبات المدعى ؛ وله بعد ذلك أسباب أخرى للقول بوجود الله . ويحيل إلى أن هذا الكاتب ومن حذا حذوه لم يدركوا قوة هذا الدليل ، ولم يفهموا المراد منه . فلا شك في أن هناك كثيرا من الأشياء التى لا يلزم من وجودها الذهنى وجودها الخارجى ، كفكرة الذهب والفضة التى ذكرها « كانت » ، وكل الجزئيات والحوادث التى ليس وجودها ضروريا ؛ وذلك لأنها ممكنة في نفسها ، فلا يلزم من وجودها فى الخارج ، أو من عدم وجودها فيه ، تناقض عقلى ؛ ولو استنبط العقل وجودها الخارجى من وجودها الذهنى لجعلها واجبة الوجود ، ولناقض بذلك نفسه ؛ بيد أن هناك نوعا آخر من الوجود الذهنى ، وهو ذلك الوجود الذهنى الذى يتوقف على وجود مقتضاه فى الخارج وجود الذهن الذى فكر ؛ أو هو ذلك الوجود الذهنى

الذى يفترض الذهن وجود مقتضاه في الخارج، ليكون هو نفسه ذهنًا موجودًا، لأن وجوده الخارجى ضرورى لوجود العقل نفسه . فإذا شككت فيه ، أو أنكرته ، فقد شككت في وجود العقل ، أو أنكرته ؛ وذلك لأن العقل ليس إلا أثرًا من آثاره . فما دام العقل موجودًا ، فلا بد أن يكون موجودًا .

وبما أن العقل ، أو الإدراك ، هو الفرض الذى لابد منه لتصور كل موجود ، لأنك ، حينما تتحدث عنه ، لابد أن تتحدث عنه وتفترضه موضوعًا لقدرة تفكير فيه ، كان من الضرورى القول بأن كل وجود خارجى يستصحب معه وجودًا ذهنيًا ، أو أن الوجود الخارجى لابد أن يكون مسبوقًا بوجود عقلى . وذلك لأن الشيء لا يعقل إلا بالذهن ، ولا يثبت وجوده ، أو ينفى ، إلا بالذهن كذلك . فالعلاقة بين العقل وموضوعه كالعلاقة المتضايقتين سواء بسواء . فكما أنك لا تقدر على أن تفكر في صفة الأبوة من غير أن تفكر في صفة البنوة ، فكذلك لا يمكنك أن تفكر في موجود من غير أن تفكر في عقل يفكر فيه ، أو تفكر في عقل أو علم من غير أن تفكر في معلوم أو شيء معقول . وباختصار ، إن كل وجود خارجى يستصحب بالضرورة وجودًا ذهنيًا ، وإن الذهن فرض ضرورى لكل موجود ، أو إن تقارن الذهن وموضوعاته قانون عقلى لا يمكن الشك فيه ؛ فكما وجد موضوع من الموضوعات كان من الضرورى أن يكون موضوعًا لقوة تفكير فيه ، ولمعرفة .

بيد أن المعرفة التى تسبق بالضرورة وجود الموجودات ليست معرفة شخصية لهذا الفرد من الناس ، أو لذاك ؛ ولكنها معرفة أعم وأكمل من إدراك كل

شخص من الأشخاص ، بل من إدراك كل الأشخاص أيضا ؛ وهى المعرفة الكاملة التى ألمعنا إليها سابقا ؛ وهى ذلك العلم الشامل غير المحدود الذى يفترض وجوده كل علم محدود . وهكذا ، فإن الدليل الذى ننتقل فيه من الوجود ذهنى إلى الوجود الخارجى لا يعنى إلا أن حياتنا العلمية والعقلية ، فى تفكيرنا الصحيح ، تعتمد ، فى وجودها ، على علم مطلق كامل شامل ، لا يتقيد بزمان ومكان ؛ وهو العلم الباقي الذى يتصف به الإله جل جلاله . وإن شئت فقل إن الانتقال من وجود ذهنى إلى وجود ذهنى فيما يتعلق بالعلم ، فننتقل من علمنا الجزئى إلى علم الله الكلى ؛ ومن وجود خارجى إلى وجود خارجى ، فيما يتعلق بالذوات التى تعلم ، فننتقل من وجود أنفسنا ، كعارفين معرفة ناقصة ، إلى وجود الله تعالى الذى يحيط علمه بكل شيء ؛ وكلا النوعين من الانتقال مفهوم من الدليل . ومن غير تشبيه لله بخلقه نقول ان نسبة معرفتنا إلى علم الله كنسبة الجزئى إلى الكلى ، فكما أننا ننتقل منطقيا من وجود الجزئى إلى وجود الكلى فكذلك ننتقل من معارفنا الجزئية إلى علم الله الكلى . وهو انتقال يعتقد العقل أنه ضرورى ، إذ أن وجود الجزئى يستلزم بالضرورة وجود الكلى ، ووجود الناقص يستلزم بالضرورة وجود الكامل ، وإدراك واحد منهما يستتبع بالضرورة إدراك الآخر .

فمعرفة الإنسان لله ، إذن ، معرفة عقلية ، وهى متضمنة فى كل جزئية من جزئيات معارفه ، وفى كل حركة من حركاته الذهنية . وليست مهمة الأنبياء ، فى تلك الناحية ، أن يوجدوا فى الذهن ما لم يكن موجودا فيه من قبل ، بل أن ينفهوه إلى ما هو موجود فيه ضمنا . ولعل ذلك هو المراد بقوله تعالى : « وإذ

أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين ، وقوله : « كلا ، إنها تذكرة » ، و « فذكر إنما أنت مذكر » . فالرسول ينبيه العقل إلى ما يعرف ، ويصرح له بما في نفسه ، ويوضح له ما كان غير واضح في نفسه ، ويذكره بقوانين عقله التي طبعه الله عليها ، ويريه العقبات التي تقف في سبيل نجاحه في استعمال هذه القوانين ، والطريق السوى الذي يساعده على تحقيق غايته . فإذا ما استجاب العقل ، بعد ذلك ، وتوجه ، فإنما يصل بنفسه وبجهوده وبعمله فحسب .

فالعقيدة الدينية أمر يمكن أن يدركه العقل ، ويمكن أن يخضع للعقل ولسلطانه ؛ ومعرفة الله تعالى أمر يمكن أن يدرك بالعقل ؛ وهى كمال المعرفة ؛ ولذا كانت غاية كل عقل ؛ ولذا بحث العقل ، بطبعه ، ليصل إلى تلك الغاية . والوحى ضرورى للإنسان ، كما أشرنا سابقا ، ليظهر العقل فى مهمته ، ويساعده على الوصول إلى غايته ، بالتوجيه وإزالة الغواشى ؛ ولكنه يخاطب العقل ، ويعتمد عليه ، ويعترف بسلطانه . فالعقل الخالص من شوائب الهوى هو الحكيم فى جميع الحالات ؛ وهو المسئول ؛ وهو المخاطب ؛ وهو المكلف فحسب . وقد يساعده كل من الوجدان والعاطفة ، ولكنهما ظهيران فحسب حينما يكون العقل جاداً فى مهمته ، وآخذاً فى سبيل الوصول إلى غايته . وقد يعوقان هذا الوصول ، ويمنعان العقل من أن يفكر تفكيراً موضوعياً (فى الموضوع ذاته بقطع النظر عن الاتجاه الوجدانى نحوه) ، فيجعلانه يفكر فى الموضوع تفكيراً ملوناً بالاتجاه الوجدانى الذى يكنه المرء نحوه .

وأما أن بعض الناس قد يؤمن بخرافات وأوهام لا يمكن أن يقبلها عقل من العقول فذلك شيء آخر لا يناقض مذهبنا إليه . لأننا لم ندع أن العقائد بجميع أنواعها لا تدرك إلا بالعقل ، أو أن الناس جميعا لا يعتقدون إلا بعد أن يفكروا تفكيراً منطقياً متزناً ، ويصلوا إلى رأى قاطع فيما يفكرون فيه . وكل ما قلناه هو أن العقيدة الدينية تدرك بالعقل ، وأن العقل مناط التكليف ، وذلك لا ينافي أن بعض الناس قد يلغى عقله ، ويتنازل ، قصداً أو عن غير قصد ، عن تلك الملكة التي كوت فرديته وحقق انسانيته ، ويؤمن لسبب من الأسباب الأخرى . فقد يعتقد بعض الناس لا لأنه يرى بالبرهان أن ما اعتقده حق لاشك فيه ، بل لأنه يرغب في ذلك لسبب من الأسباب ، فيسارع إلى الاعتقاد من غير نقد أو حذر ؛ وقد يعتقد آخرون تقليداً ، لأنهم وجدوا الآباء هكذا يعتقدون ، فآمنوا بحجارة للبيئة وللعرف من غير أن يفكروا فيما آمنوا به ؛ ويعتقد آخرون عن حب وعاطفة ، فيحبون شخصاً ، ويضعون ثقتهم فيه ، ويخضعون له ، ويصفونه بكثير من القداسة والاحلال ، أو بعبارة أخرى ، يصنعونه ثم يقدسونه ، ويصغون لما يقول ، ويعتقدون في كل ما يرى من غير نظر وروية . فيعتقد ، هؤلاء وهؤلاء في جميع الحالات ، عن رغبة ، أو عن عاطفة ، أو بفعل غريزة حب التقليد من غير بحث أو نظر . وذلك شأن كثير من الناس .

وبما أنه من العسير على أمثال هؤلاء الناس أن يضعوا عقائدهم ، بعد تسكينها ، موضع الاختبار والنظر ، فستبقى هذه العقائد بعيدة عن دائرة العقل ، وغير خاضعة لنقده ، اللهم إلا أن ينظر فيها ليبررها ، وستظل ذات سلطان غالب على النفوس ، إلى أن تصادم حقيقة من الحقائق العقلية أو العلمية التي لا يقدر على الشك

فيها أو إنكارها ، أو تأويلها تأويلا يتفق وما يعتقدون ، أو تأويل معتقداتهم
تأويلا يتفق وتلك الحقائق ؛ وحينئذ يبدأون يختبرون معتقداتهم ، ويشكون
فيها ، وقد تخيب آمالهم فيها . وقد يدعوهم هذا كله إلى إنكارها ، بل إلى الغلو
في ذلك الإنكار أيضا . فلا يتخلصون من معتقداتهم الفعلية فحسب ، بل ينكرون
جميع أنواع المعتقدات الدينية كذلك . وهم ، في الحالين ، متطرفون ومخطئون .
فليس الذنب ذنب العقائد وما يعتقد فيه ، ولكن الخطأ في نفوسهم ، والذنب
ذنبهم حين حكموا ، في أمر العقائد ، ميولهم الشخصية ، واتجاهاتهم الفردية ،
وقد كانوا قادرين على غير ذلك : فحكموا العاطفة والوجدان ، ثم اعتقدوا فيما
أملياه ؛ ولما صادتهم الواقع الذي لا ينكر حكموا العاطفة والوجدان أيضا ، وتخلصوا
من كل معتقد . ولقد كان خيرا من هذا وذاك أن يفكروا في الأولى والثانية ،
وأن يخضعوا كل ما يجد عليهم من آراء لسلطان العقل والبحث ، وأن يجعلوا
العقل فيصلا في أمور العقيدة ، ما دام ذلك غير محال ، حتى يتأكدوا من بناء
معتقداتهم على أساس ثابت متين ، وحتى يمكن أن تتضمن حياتهم الوجدانية
وحياتهم العقلية في تكوين معتقداتهم الدينية ، فذلك أدعى لوجود الانسجام
النفسى والاطمئنان القلبي اللذين هما من ضروريات تكوين الشخصيات الإنسانية
المثلى . ولعل ذلك هو المعنى بما يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم من أن المرء
لا يكمل إيمانه حتى يكون هواه فيما أحب الله ورسوله ، أى أن كمال الإيمان
لا يكون إلا حين يوجد ذلك الانسجام الداخلى بين القلب والعقل ، فيجد العقل
غايته من الوصول إلى كمال المعرفة ، التى هى معرفة الله تعالى ، ويجد القلب
راحته في ذلك أيضا ، فيجد القلب سرورا عند ما يفكر العقل ، ويجد العقل

القلب مطاوعا له ومتجها بعاطفة الحب إلى موضوع تفكيره . وإذا كان ذلك الانسجام من ضروريات كمال الإيمان فهو كذلك من ضروريات تكوين الشخصيات المتزنة ، ومن ضروريات النجاح في الحياة .

عوامل تكوين العقيدة

الاعتقاد هو تلك الحالة النفسية التي تملك المرء ، فتجعله يؤمن بإيمانا جازما لا ريب فيه ؛ فهو حالة نفسية ، وصفة معنوية ، تقوم بالمرء ، فتحدد اتجاهاته ، وتصرفاته ، ونظرته إلى الحياة . ولكنها حالة مكتسبة تحل في نفس المرء ، بعد أن لم تكن ، بفعل بعض العلل والأسباب ، وليست من الصفات الموروثة التي تنتقل إلى المرء من غير أن يكون له اختيار في قبولها أو في رفضها ؛ وكل ما هنالك هو أن الإنسان صالح بطبعه لأن يعتقد . وإذا كان الاعتقاد من الحالات المكتسبة كان معلولا وناشئا عن شيء آخر ، فلا بد أن تكون له علل وأسباب ؛ وإذا كان من الحالات النفسية كان من المعقول أن تكون عوامل تكوينه في النفوس ، وتربيته عند الأفراد ، عوامل تكوين كل الصفات النفسية الأخرى . وانها ، في الواقع ، كذلك . وهذه العوامل لاتعدو أن تكون من الأمور النفسية - الفطرية والمكتسبة ، أو من الأمور الخارجية ، من البيئة وما يتعلق بها .

بيد أنه يجدر بنا أن نلاحظ ، من أول الأمر ، أنه ليس من الضروري

أن تتضامن هذه العوامل النفسية والعوامل الخارجية ، لتكون كل نوع من أنواع العقيدة عند كل شخص من الأشخاص وفي كل حالة من الحالات . فقد يكفى عامل منها في تكوين العقيدة وتربيتها عند فرد من الناس ، وقد يحتاج آخر منهم إلى عدة من العوامل لتكوينها ، وقد يكفى أحد العوامل في تكوين نوع معين من أنواع العقائد ، وقد يحتاج نوع آخر منها إلى عوامل شتى تتضامن بالضرورة لتكوينها في نفوس الأفراد . وما دام الناس مختلفين في الطبائع والميول ، وفي الاتجاه والنزعات ، وما داموا مختلفين في البيئة وفي التربية وفي الثقافة ، فلا بد أن يختلفوا ، لذلك ، في نوع مايتأثرون به من العوامل المكونة لآرائهم ومعتقداتهم ، وفي مدى هذا التأثير . فالعامل الذي يؤثر في أحد الأفراد قد لا يؤثر في الآخر على الإطلاق ، والذي يثير جماعة من الجماعات أو شعبا من الشعوب قد يعجز عن إثارة انتباه شعب آخر . وما دامت العقائد نفسها تختلف في أهميتها بالنسبة للأفراد ، وفي مقدار اتصالها بحياتهم ، وتغييرها لمجراها ، إذ أن بعضها أكثر أهمية للإنسان من بعض ، وبعضها حيوى للإنسان ، وضرورة من ضروريات حياته ، في حين أن بعضا آخر منها ليس إلا من كاليات الحياة ، ان كان له اتصال بها ، وبعضها مغير لمجرى الحياة ، ولمجرى الاتجاه ، بل مغير لوجه التاريخ كذلك ، ويعتبر نقطة تحول يبدأ عندها تاريخ جديد ، في حين أن بعضا آخر منها يتكون ويموت ، ويروح ويحى ، ولا يحس به أحد . لما كانت العقائد مختلفة هذا الاختلاف في قيمتها وفي مدى تكييفها لحياة بنى الإنسان كان من الضروري أن تختلف عوامل تكوينها في النفوس ، تبعا لذلك . فالعامل الذى يكفى لتكوين آرائنا اليومية ومعتقداتنا العادية

لا يمكن أن يكون كافياً لتكوين عقيدة من العقائد الدينية العليا التي غيرت وجه التاريخ .

غير أنه كلما تضافرت العوامل على تكوين عقيدة من العقائد ، كان ذلك أدعى إلى ثباتها ودوامها ، وإلى استقرارها في النفوس ؛ وكانت ، لذلك ، قوة السلطان في بعثها الشخص المعتقد إلى العمل ، وحفزها همته لتحقيق ماتدعو إليه من أعمال . وذلك هو المعيار الذي تقاس به قوة الاعتقاد ومقدار تسلطه على نفوس المعتقدين . فكلما قويت العقيدة — وهى ، كما قلنا ، مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالعمل ، وبالحياة العملية — كان دفعها إلى العمل شديداً ، وكانت ماثراً لحرارة لا يمكن أن تهدأ إلا إذا تحولت إلى ما يناسبها من عمل ؛ وكلما اشتدت وطأتها اشتد تلهفها إلى أن تتحول إلى حركة ثم إلى عمل ؛ وتلك حقيقة نفسية لا شك فيها . وقد نفهم مثل ذلك من قول النبي صلى الله عليه وسلم : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ؛ وذلك أضعف الإيمان » . فالإيمان أو الاعتقاد قوة تدعو إلى العمل ؛ وبقدر الرغبة في العمل تكون قوة الاعتقاد ؛ والاعتقاد ، مع ذلك ، قوة لا تعرف المحال ، ولا تؤمن بعدم الاستطاعة ، فكل معتقد فيه مقدور التنفيذ . فإذا ما كان سلطان العقيدة قاهراً تحولت بالضرورة إلى ما يناسبها من حركات ؛ قد تقف في وجهها العقاقيل ، ولكنها لا تأبه بشيء منها ، فتنتطلق متجاهلة كل العقبات ، ولو سدت أمامها السبل ؛ وإذا ما ضعفت قليلاً بدأ المعتقد يفكر في المستطاع وغير المستطاع ، وبدأ يتعلل ، ويتلمس لنفسه المعاذير ، ثم جاء العمل ضعيفاً تبعاً لذلك ؛ وإذا ما ازدادت ضعفاً على ضعف ، وأصبحت قلادة يزدان بها أكثر منها عقيدة يؤمن

بها ، كثر التردد والشك ، وقويت المعاذير والأباطيل ، وتحول العمل الذى لا يفهم منه إلا أثر يتركه الفاعل فى البيئة إلى عمل قلبى لا يحس به أحد فى البيئة ، ولا يكاد يرقى إلى مرتبة الأعمال . وذلك أخط مراتب العمل . وهو ، لذلك ، أخط مراتب الاعتقاد وأضعفها .

العلل النفسية للاعتقاد :

ليس هنالك من شك فى أن صفات المرء النفسية يرتبط بعضها ببعض ارتباطا وثيقا ، فيتولد بعضها عن بعض ، ويكون بعضها علة لوجود البعض الآخر . وما التربية والتعليم العام ، وما تربية الملكات ، على وجه خاص ، إلا اعترافا بذلك النوع من الترابط ، وبأن بعض الصفات يستدعى بعضا آخر منها ، ونوعا خاصا من التصرف . وما التربية الخلقية ومحاولة تكوين « الخلق » عند الأفراد ، إلا اعترافا بهذا أيضا . وليس هذا قولا بالترابط الميكانيكى ، وبأن الإنسان ، فى تصرفه وفى تكوين صفاته ، كالآلة التى إذا تحركت فى اتجاه ظلت متحركة فيه ، حتى تنفى الحركة ، أو يغير الاتجاه بفعل بعض القوى الأخرى ؛ ولكنه اعتراف بوجود نوع من الترابط فحسب ، من غير تعرض لكون المرء قادرا على التدخل فيه وتعديله أو غير قادر على ذلك . بيد أنه قادر فى الواقع ونفس الأمر على ذلك التدخل ، فيقوى منه ، أو يضعفه أو يزيل أثره . فقوى العقيدة ، مثلا ، لا يقبل فى عقيدته مساومة ، ولا يرضى بها بديلا ، غير أنه قد يفعل ذلك ، وقوى الشخصية كريم النفس لا يرضى الهوان ، غير أنه قد يتخاذل ويذل لسبب من الأسباب .

وما دامت الحالات النفسية مرتبطة بعضها ببعض كان الاعتقاد ، وهو منها ، مرتبطا كذلك بكل الحالات النفسية الأخرى . فيرتبط بتلك الحالات النفسية التي يسبق وجودها وجوده ، ويتكيف بها ؛ ويرتبط بالحالات النفسية التي توجد بعد وجوده ، فيكيفها ويؤثر فيها . ولما كانت الحالات النفسية متعددة النواحي ، إذ أنها وجدانية ونزوعية وعقلية ، وكان كل منها متصلا بالاعتقاد ، ومؤثرا فيه ، أو متأثرا به ، كان لزاما علينا أن نتحدث عن كل جانب من هذه الجوانب المتعددة وعن صلته بالاعتقاد . بيد أن الذي يعنيننا هنا ، على وجه خاص ، هو مدى تأثير الاعتقاد بكل واحد من هذه الجوانب المتعددة ، وليس مدى تأثيره فيها . أما الناحية العقلية فقد تحدثنا عنها بما فيه الكفاية في فصل العقيدة والفلسفة ، وأبنا مقدار ارتباط العقل بالعقيدة من الناحية النظرية ، ومن الناحية التاريخية ، ولم يبق أمامنا ، في تلك الناحية ، إلا أن نذكر بعض الملاحظات التي نراها ضرورية لتكملة الموضوع .

قد رأينا أن العقل واحد من الطرق التي قد توصل إلى الاعتقاد ، وأن هؤلاء الذين يرجعون العقيدة إلى الشعور الوجداني دون الإدراك العقلي ينبغي أن يعترفوا ، على الأقل ، بأن الشعور الوجداني في الإنسان ليس من الحركات النفسية التي لا تمت إلى الإدراك العقلي بصلة ، ولكنه إدراك عقلي لا يقل عن العمليات العقلية الصرفة إلا في الوضوح فحسب ، وأن ذلك هو الفرق بين الشعور الوجداني في الإنسان والشعور الوجداني في الحيوان ، إذ أن الأول مصحوب بحركة عقلية دون الثاني . فالعقل موجود في الحالين ، وضروري في مسائل العقيدة . ولكن كيف يعمل العقل للوصول إلى غايته ، وإلى إدراك العقائد الدينية التي قلنا أنه قادر على إدراكها ؟ وما هي تلك العقائد التي يقدر العقل على الوصول إليها بنفسه ؟ وهنا

نجد أنفسنا مضطرين لأن نضيق من دائرة البحث ، خوف أن تتشعب ، فتبعدنا عن هدفنا المحدود في هذا الكتاب ، ونقول : قد سبق أن بينا أن العقل قادر بنفسه على الوصول إلى معرفة الله تعالى ، وأنه لا ينتقل في ذلك من مقدمات إلى نتائج ، ولا يستعمل شيئاً من الأقيسة المنطقية ؛ فكما أنه لا ينتقل من الخاص إلى العام ، ومن الجزئى إلى الكلى (ولو كانت معرفته لهما انتقالا كالاتقال من الدليل إلى المدلول ما عرفهما أبداً ، كما أشرنا إلى ذلك سابقاً) فإنه لا ينتقل من الفانى إلى الباقي انتقاله من الدليل إلى المدلول كذلك ، ولكنه يتصورهما معا ، ودفعة واحدة ؛ ففي اللحظة التى يدرك فيها وجود نفسه ، كموجود محتاج ، وفي اللحظة التى يدرك فيها وجود الفانى ، يدرك فيها وجود من هو محتاج إليه ، ويدرك فيها وجود الباقي - وهو الله تعالى - من غير حاجة إلى نظر جديد . ولكن هل يدرك العقل بنفسه شيئاً وراء ذلك من العقائد الدينية ؟ وهل يعرف شيئاً عن صفات الله الذى أدركه هذا الإدراك ؟ وهل يعرف خصائصه التى تميزه عن سائر الموجودات ؟ وهل يعرف مدى صلته بالإنسان وبسائر الموجودات ؟ وهل يقدر على أن يحدد ما الذى ينبغى أن يكون عليه الإنسان نحو هذا الإله الذى عرفه ؟ وهل يقدر ، أخيراً ، على أن يحدد ما يجب أن تكون عليه علاقة الإنسان بالإنسان ؟ كل هذه من مسائل العقيدة الدينية ؛ وليس من الهين ، مع ذلك ، أن يقال إن العقل يتمكن من معرفتها بنفس السهولة ، وبنفس الطريق ، الذى عرف به الله . فإن التفكير فى ذاته يستدعى التفكير فى الله ، وأما هذه الجزئيات الخاصة فلا ترتبط بذاته هذا الارتباط الوثيق ؛ ولذا كانت معرفته إياها ، إذا ما تأتى له ذلك بنفسه ، معرفة نظرية تعتمد على المنطق وبدهياته ، ومقدماته ونتائجها . فهى معرفة انتقالية من موجود إلى موجود ؛ وهى معرفة استنتاجية من أثر إلى مؤثر ؛ ولذا كانت

عرضة للخطأ من عدة جهات .

فهى عرضة للخطأ ، لا بتنائها على الحس والتجربة والملاحظة ، ولا بتنائها على التجريد والتعميم والتعليل ، ولا بتنائها على الحكم كذلك ؛ وهى عرضة للخطأ ، لأن العقل قد يضل ، فى وصوله إليها ، حين يتلون فى بحثه بميول فردية وأهواء شخصية ، وهو متلون بتلك الميول فى كثير من الحالات . فقد يخطئ العقل فى الحكم بأن هذا أثر لذاك ، أو ناشئ عنه بالضرورة ، وخاصة إذا ما وصل الى حكمه هذا بعد الملاحظة والتجربة فحسب ، لأنه لا يشاهد العلية ، ولكنه يشاهد تتابع الحوادث فحسب ، وقد يكون هذا التتابع مصادفيا ، وقد يكون معا لاشئ آخر ، من غير أن يكون هناك ارتباط بين المتتابعين . ويدلنا الأثر على وجود المؤثر ، ولكننا لا نقدر أن ننقل من وجوده إلى صفاته وخصائصه ، ولا تدلنا صفات الأثر على حقيقة المؤثر الكاملة ، على الرغم من أنها قد تعطينا صورة مجملة عن بعض صفاته التى ظهرت صورتها فى أثره . فكمال المعرفة محال بالنسبة للإنسان ، وتلك حقيقة لا يمارى فيها . وما أصدق من قال : ان كمال الإدراك البشرى ، وتتمام المعرفة الإنسانية لا يكونان إلا بإدراك أن هناك حقائق غير نهائية ، لا ينتهى إليها إدراك ، ولا يحيط بها بشر . فالعقل الانسانى عاجز بنفسه عن الوصول إلى كل ما يهدف إليه من العقائد الدينية ، ومن النظريات المتعلقة بما وراء الطبيعة من موجودات ، وإن كان قادرا على فهمها حين يوجهه إليها موجه . . ولهذا كان فى حاجة إلى من يظاھرہ ، حتى يبلغ غايته . وهؤلاء الظهراء هم الرسل والأنبياء .

ولكن ، على الرغم من أن العقل لا يقدر على أن يستقل بإدراك كثير من التفاصيل فى العقائد الالهية وغيرها ، فإنه يقدر على التمييز ، وتبين أيها أجدد بجلال الاله الذى عرفه اجمالا ، وبكماله ، وعلى تعرف ما يليق به منها ، وما لا يليق ،

حين تنسب إليه . وذلك لأن النظرة التي عرفته الله عرفته أنه منزّه عن شوائب
النقص ، ومتصف بكل كمال ، وعرفته ، إجمالاً ، كل الصفات التي يستدعيها
احتياج سائر الموجودات إليه . ولكن الذي لا يعرفه ، ولا يمكن أن يعرفه بنفسه ،
هو اتصافه بهذه الأوصاف فحسب ، فقد يكون متصفاً بما لا يحصى من الصفات
التي لا يعرف العقل منها إلا ما كان هو أثراً له . بيد أن أحديته ، ووحدته ، وأنه
صمد فرد ، لا يشبه أحداً من خلقه ، ولا يشبهه أحد من خلقه ، ولا يتشكل
بشكل معين ، أو يحل جسم أحد من خلقه ، من الصفات التي يمكن أن يعرفها
العقل الإنساني بنفسه ، من غير أن يظاھره أحد ؛ ولقد وصل إليها فعلاً ، في
كثير من العصور ، كما سبق أن بينا في فصل العقيدة والفلسفة . فلم يكن الدين
الإسلامي ، إذن ، حين يؤكد أن الله واحد ، صمد ، « لم يلد ، ولم يولد ، ولم
يكن له كفواً أحد » ، مكلفاً العقل الإنساني أن يهضم ما لا يستطيع فهمه ،
أو يعجز عن إدراكه ؛ ولكنه كان ينبه فقط إلى تلك الحقيقة المطوية في عقله ،
والتي يقدر هو على نشرها ، والوصول إليها بنفسه ، وفهمها فهما واضحاً مستقلاً ،
لو توجه إليها برغبة أكيدة ، وعزم قوى ، ونية خالصة .

وإذا كان العقل قادراً على النظر في العقائد الدينية ، وكان لابد له أن ينظر
فيها بطبيعته ، وإذا كان قادراً على الوصول إلى بعضها وإدراكها إدراكاً صحيحاً ،
أمكن القول بارتباط الإرادة التي هي ترجيح إحدى العلل أو إحدى النظريات
بالعقيدة . فالمعتقدات التي نصل إليها بالعقل هي معتقدات عقلية وإرادية معاً ،
وناشئة عن مقارنة وترجيح واختيار . وذلك لأن المسائل الدينية ، حينما تعرض على
العقل لأول مرة ، لابد أن تعامل كسائر المسائل الأخرى التي تعرض له في حياته ،
فينظر إليها دائماً نظرة الاستفهام ، ويختبر حقيقتها وقيمتها ، ويرى مقدار ما بينها

وبين تجاربه من انسجام أو تعارض ، ويقارن بين قيمتها وبين الغاية التي يهدف إليها في حياته ؛ فإذا رفضها فإنما يرفضها لأنه لم يكن مستعداً لها استعداداً نفسياً ، فلم يجد لها مكاناً في نفسه ، لأنها لم تنسجم مع مجموعة ماعنده من تجارب ، أو لأنه رآها لاتخدم غرضاً من أغراضه المباشرة أو غير المباشرة ؛ وإذا قبلها فإنما يفعل ذلك لأنه رأى أنها لاتتناقض مع تجاربه أو أنها تخدم بعض أغراضه المستقبلية ؛ فهي خير له ، في حياته ، من غيرها ، أو أنه ، وهو متصف بها ، خير منه في حياته المستقبلية بدونها. وذلك نظر للعقيدة من جانبها العملي ، فربطها بالإرادة اعتباراً للجانب العملي منها دون النظري .

والواقع أن العلماء الذين يربطون العقيدة بالإرادة لا يشيرون إلا إلى الجانب العملي منها . ويغالي بعضهم ، فينكر امكان اتصالها بالجانب النظري من ناحية الإنسان النفسية . فهذا كانت (Kant) الفيلسوف الألماني يصرح بأن العقائد الدينية ، أو بأن أمهات العقائد الدينية التي هي وجود الله ، وبقاء النفس بعد الموت ، والاختيار - حرية الإرادة ، لا يمكن الاستدلال عليها ، أو اثباتها بالعقل المحض ، ولا يمكن نفيها به كذلك ؛ لأنها لاتدخل ضمن دائرته ، ولكنها تدخل ضمن دائرة الاعتقاد فحسب . والاعتقاد هو التمسك النفسى ببعض الأشياء ، واعتباره حقاً ، لأسباب تكفي من الناحية العملية دون النظرية ؛ أي أنها تسمح للمرء أو تلزمه بأن يتصرف مفترضاً أن ما تمسك به حق ؛ فهي كافية من الناحية العملية ، ولكنها لاترضى العقل ارضاء تاماً ، حين ينظر إليها ، كدليل منطقي . فالإيمان بوجود الله ، وبأن النفس لاتفنى بفناء جسمها ، وبأن الانسان فاعل مختار ، من المسائل التي ترجع إلى الإرادة عنده دون العقل المحض . ولكن الإرادة الانسانية ، عنده ، ليست ترجيحاً غريزياً لا يمت إلى النظر بشيء ، ولكنها توجه نحو بعض الأعمال ،

أو ترجيح لفعل من الأفعال ، ناشيء عن نظر وعن تصور لغاية ، فهى عقل عملى (Practical Reason) (١) ؛ أو بعبارة أخرى ، تستلزم الإرادة الانسانية تصورا لغاية ، وإدراك أنها لا تتحقق خارجا إلا حين يوجد فعل من الأفعال ، ثم توجهها نحو هذا الفعل . ويذهب بعده وليام جيمز الأمريكى نفس الاتجاه ، ويقول لا يتوقف الاعتقاد على الأدلة النظرية فحسب ، فقد يجوز لنا أن نعتقد ، ولو لم يكن لدينا من البراهين المنطقية ما يبرر ذلك ، مادامنا راغبين فى الاعتقاد ، وما دامت لنا ، من وراء هذا الاعتقاد ، ثمرة عملية ؛ وكثيرا ما تأتى البراهين بعد ذلك ، فيساعد الاعتقاد على تحقيق ما آمنّا به . وإذا لم نجد من الأسباب النظرية ما يؤدى بنا إلى الإيمان بوجود الله فلا ينبغي لنا أن ننصرف عن الإيمان به لذلك ، بل يحق لنا أن نفترض وجوده ونؤمن به ، إذا ما توجهت إرادتنا نحو ذلك ؛ وذلك لأن الإيمان به هو الذى يجعل للحياة قيمة ؛ وهو الذى يمكننا من أن نستخرج من الحياة كل ما فيها من لذة وسعادة ؛ وهو الذى يجعلنا نتحمل ما فى الحياة من محن واحن ، ونتقبلها بكثير من الشجاعة والرضا ؛ وهو الذى يهيء لنا كل ما هو ضرورى لحياة عملية وادعة ؛ فإذا ما أراد شخص أن يحيا هذه الحياة ، فليس لأحد ما أن يباعد بينه وبينها ، مهما توافرت عنده البراهين (٢) . فالعقائد الدينية من عمل العقل العملى - الإرادة ، فحسب عند (كانت) ، ولا يمكن أن تكون من عمل غيره . وأما (جيمز) فلا يجزم هذا الجزم ، ولكنه يدافع فقط عن هؤلاء الذين يؤمنون من غير أن يكون لديهم من البراهين المنطقية ما يرضى عقولهم ، ويقول ان لهم أن يعتقدوا ، مادام

(١) Kant's Critique of Practical Reason.

(٢) W. James, The Will to Believe,

المعتقد فيه مما يتصل بحياتهم العملية ، وكل مسائل العقائد الدينية من هذا القبيل ، وما داموا يجدون ما يبرر لهم هذا الاعتقاد من ناحية عملية .

وإذا كان الدين مرتبطا بالارادة ، على هذا الرأى ، وكان متصلا بالجانب العملى من حياة الانسان ، دون النظرى منها ، كان مرتبطا بالأخلاق ارتباطا وثيقاً ، وكانت غايته توجيه الارادة دون العقل المحض . وكأن هذا هو ما كان يعنيه « كانت » بقوله ان الدين هو أن ننظر إلى كل ما علينا من مسئوليات وواجبات كأنها أوامر الهية ، وأن نعمل على هذا الأساس . وانه لمن العسير ، على هذا الرأى ، التفرقة بين الدين والأخلاق فى هذه الناحية ، وخاصة لأن فى كل منهما الزاما . وهذا هو أحد الفروق بين « جيمز » و « كانت » فى هذه الناحية ، إذ يرى الأول أن القيم الأخلاقية ، إذا وجدت فى عالم لا إله فيه ، تكون من القيم الاسمية التى لا يكاد يوجد فيها الزام ، وأما الإلزام الحقيقى والقيم الحقيقية فلا تكون إلا إذا كان الاله هو الملزم ، وهو المحدد لقيم الأشياء .

وليس لدينا ما يمنع من قبول هذا الرأى ، فى جملة ، مادام يعترف بأن الارادة ليست مجرد تخصيص ، أو نزوع لاتجاه معين ، من غير تفكير ، ولكنها نزوع مبرهن عليه ، ومسبوق بتدبر ونظر ، ومتوجه نحو غاية من الغايات . بيد أننا لا نقبل التخصيص بحال ، والقول بأن الأديان لاتعنى بالمعرفة الصرفة ، وأنها لاتعنى إلا بتوجيه الإرادة ، وبالناحية العملية . فليس هناك مانع عقلا من ذلك . ومن ناحية تاريخية ، لم تخل الأديان السماوية العليا من بعض العقائد العامة المتعلقة بالحقائق العليا وبشرح ذواتها ، والتى لامت إلى الحياة العملية بسبب ، ولكنها نظر محض . ولا يمكن أن ترجع تلك العقائد إلى « العقل العملى » الذى قال به « كانت » ، ولكن الى ما أسماه هو « بالعقل النظرى » . وهو ، ولا شك

قادر على ادراك بعضها ، كما أشير الى ذلك في فصل العقيدة والفلسفة . ولقد كان « وليام جيمز » أكثر حذرا من ذلك ، حين أعطى الإرادة بعض الحق ، حين يعجز العقل عن التوجه ، ولم يقل ان العقل عاجز بالضرورة .

فالإرادة من العوامل التي تساعد على تكوين العقيدة ، وكذا العقل . ولا ضير على العقيدة ، أو على المعتقد في أن تتضافر الإرادة والعقل ، أو الجانب العملي والجانب النظري من الانسان ، على تكوين عقائده . فالعقيدة ، كما أسلفنا ، حاجة عقلية وحاجة عملية ، فلا بد أن تتوجه اليها جميع نواحي الانسان النفسية . وكما اشتركت هذه النواحي في تكوين عقيدة من العقائد كان ذلك أدعى الى ثباتها واستقرارها وقوتها .

وإن الشأن كذلك فيما يتعلق بالناحية الوجدانية . فعلى الرغم من أن هناك من العلماء من يربط العقائد الدينية بالدوق والوجدان ، ويرى أن عوامل السرور والألم ، والخوف والرغبة ، هي العوامل الأساسية الموجودة خلف كل اعتقاد نفسي ، فإننا لا نقبل منه هذا الحصر والتخصيص ، ولا بد أن نقول ان الوجدان قد يكون من بين العوامل المسؤولة عن تكوين العقائد ، وليس الوسيلة الوحيدة لتكوينها .

يرى بعض من العلماء أن العقائد الدينية لا يمكن أن تتكون في النفوس نتيجة لحركة العقل النظري ، أو العقل العملي - الإرادة ، ولكنها لا تتكون إلا نتيجة لاتجاه الوجدان ، ولحركة القلب ، وللشعور النفسي الذي يغزو القلب من غير نظر أو تفكير ، ومن غير أن يعرف له سبب . فلا تعتمد العقيدة إلا على تلك الحاسة النفسية التي يعتمد عليها الفنان في الوصول إلى أحكام الجمال ، من ذوق ،

أو شعور وجداني ، أو خيال . فالشعور بالسرور أو بالألم ، والشعور بالراحة النفسية وبالطمأنينة القلبية بالنسبة لمسألة من المسائل ، هو أساس الاعتقاد فيها . والشعور بالرضاء النفسي ، وبالهدوء ، عند الإيمان بالله هو أساس الإيمان به . ويرجع كثير من العلماء ذلك الشعور المكون للاعتقاد إلى الشعور بالحاجة الملحة إلى ظهير ، أو إلى شعور الخوف ، أو إلى الشعور النفسي باللامحدود . فيشعر المرء بأنه محتاج بالضرورة إلى من يظاهره ويعاونه ، وبأنه محتاج إلى من يوجد له ، ويحفظ له ذلك الوجود . فهو شعور المحتاج نحو من يحتاج إليه ، وشعور الخاضع نحو من هو أقوى منه ؛ فلا بد أن يكون شعورا ملونا بكثير من مظاهر الاحترام والتقديس ، والخشوع والخضوع ؛ أو يشعر بالخوف من تلك القوة الخفية التي تسخر الطبيعة ، فتثير السحاب ، وتسبب الرعد والبرق ، وتنزل الصواعق ، وتسير البحار ؛ فهو خوف مشرب بتقديس وتعظيم وإعجاب بتلك القوة الخفية . وهو شعور يدفع المرء نحو التعلق بها ، أو هو ، كما يقول بعض العلماء « شعور بقوة خفية تملأ القلب رعبا عند ما تحل فيه ، ولكنها تجذبه نحوها ، بما فيها من عظمة وجلال ، جذبا عنيفاً لا قبل له به » .

ولا مرء في أن للشعور الوجداني أثراً كبيراً في تكييف سلوكنا وتصرفاتنا في الحياة ، وفي توجيه الإرادة ، وتحديد الشخصية ؛ وذلك لأنه قوة الحياة ، كما سبق أن قررنا في باب الحياة الوجدانية ، فلا بد أن يكون كبير الأثر أيضاً في تربية العقائد وتكوينها . فاللذة والألم موجودان بالضرورة خلف الاعتقاد ، كما يوجدان خلف كل حركات المرء النفسية والعقلية ؛ وهما عنصران يدفعان المرء إلى الاعتقاد في كل ما يظنه سبباً للذة نفسية أو جسمية ، ويباعدان بينه

وبين الاعتقاد فيما يسبب له نوعا من الآلام . وما الترغيب والترهيب ، وما التبشير والتحذير ، والمواعظ والنذر ، إلا وسائل تهدف نحو تربية الوجدان ، وإثارتها ، ليزداد المؤمنون إيمانا ، وليتوجه غير المؤمنين إلى الإيمان ، رغبة في الثواب ، وفي كل ما وعد به المؤمنون من سعادة . بيد أن القول بأن الوجدان وحده هو الذى يغذى العقائد ويكونها قول لا يجد ما يبرره من منطق أو تاريخ . فعلى الرغم من أن هناك ما يغزو القلب من العقائد من غير أن نعرف له مصدراً ، أو أن نتجه إليه قصداً ، ونخيل إلينا أنه فجائى ، أو إلقاء فى الروع ، فإن هناك منها ما نلمس فيه القصد والتوجه ، وما يسبقه التفكير والاختيار ؛ وما المتحولون من دين إلى دين ، بعد كثير من البحث والنظر ، إلا مثل لذلك النوع من الاختيار فى الاعتقاد ؛ وإنه لمن البين حقا أننا لا نقدر على أن نشعر بالسرور أو بالألم حين نريد ذلك ، ولكننا نقدر على الإيمان وعدمه : فنخضع الاعتقاد للإرادة ، ولا نقدر على أن نخضع الشعور الوجدانى لها . وما دام الاعتقاد متجهاً دائماً نحو غاية ينبغي تحقيقها ، وما دام مرتبطاً بالحركة والعمل ، كانت صلتة بالإرادة وثيقة ، لأنها هى كذلك . وهذا هو الذى دعا كثيراً من الكاتبيين^(١) للقول بأن الإرادة والاعتقاد قد يعتبران اسمين لظاهرة نفسية واحدة ، ويكون من العسير التفرقة بينهما .

فالعقائد الدينية لاتعتمد على جانب واحد من جوانب الحياة النفسية للانسان - الوجدانية ، والإرادية ، والعقلية ، ولكنها تتصل بها كلها اتصالاً وثيقاً ؛ ولا ترضى نفس المرء ، ولا تكمل شخصيته إلا إذا تضامنت شخصيته ، ونواحيه

(١) مثل وليام جيمس ، وهوفدنج فى كتابة فلسفة الأديان .

النفسية كلها ، وعملت معا على تكوين كل عقيدة من عقائده ؛ فلا يوجد شيء من التضارب النفسى بين قواه المتعددة حول عقيدة من عقائده ، بل انسجام ووثام ؛ فيوجد قبول عقلى ، ورضاء نفسى ، واطمئنان قلبى . وذلك هو كمال الشخصية ؛ وهو كمال الاعتقاد ؛ وهو كمال العقيدة كذلك .

وإذا كانت العقائد الدينية مرتبطة بالشخصية الإنسانية ، وكانت متوجهة نحو العقل والوجدان والإرادة ، لم تختلف ، فى كيفية تكوينها فى النفوس ، عن سائر الصفات النفسية الأخرى ، التى تتكوّن منها الشخصية الإنسانية ، والتى تحدثنا عنها ، بإسهاب ، فى باب الشخصية . فتتضمن الميول النفسية جميعها - من شعور بالحاجة والضعف ، وإحساس باللامحدود ، ورغبة فى كمال المعرفة ، وفى تحقيق الانسجام النفسى والانسجام الخارجى - مع كل ما فى البيئة الاجتماعية من مقومات - الاستهواء والإيحاء ، والتلقين والأمر ، والترغيب والترهيب الخ - فى العمل على تكوين عقيدة من العقائد فى النفوس ، كما تتكون سائر الصفات النفسية الأخرى ، وتنمو ، وتبلغ ما قدر لها من كمال وقوة ، ثم تصبح موجهاً للمعتقد فى حياته الفردية وحياته بين الجماعة .

فطبيعة الانسان ، وكونه مركبا على هذا النحو الذى هو عليه ، هما اللذان يوجهانه ، أولا ، إلى العقائد الدينية عامة ، وهما اللذان يدفعانه إلى البحث والتأمل ؛ والبيئة الخارجية هى التى توجه ، أو تساعد على أن يوجه هذه الميول الدينية الطبيعية هذه الوجهة أو تلك الوجهة . فالاتجاه الدينى عام ، وطبيعى ، وفطرى ، ويأتى التخصيص بعد ذلك . فليست وسائل تكوين العقائد ، ونشرها ، وسائل لايجاد الميول الدينية ، وإدخالها فى النفوس ، بعد أن لم تكن ، ولكنها

وسائل لتوجيه هذه الميول ؛ أو هي وسائل ضرورية ، لأنها تساعد النفس على أن تجد ما تعبر به عن هذه الميول ؛ ولذا كانت النفوس أكثر استجابة لهذه الوسائل الدينية ، وأكثر انصياعا لها منها لغيرها من وسائل التربية الاجتماعية . فالتشويق والترغيب ، والتحذير والتخويف ، وإثارة الوجدان بكل نوع من أنواع المثيرات التي تختلف باختلاف الأفراد ، وباختلاف الجماعات ، وتربية العواطف الدينية ، كل هذه وأمثالها من المقومات لا تخلق الميل الديني في الإنسان ، ولكنها تثير هذا الميل فقط ، وتوجهه إلى المثيرات الخاصة ، ليخشاها ، وليؤمن بها . فليست قوى البيئة وعواملها في تلك الناحية ، وليست التعاليم الدينية ، بمخالفة التعاليم الاجتماعية في أنها لا تكبت الميول النفسية ، ولا تقتلها ، ولكنها تساعد فقط على أن تعبر عن نفسها بأحسن أسلوب ، وفي خير الطرق ، وأسهلها ، أو أن مهمتها هي مهمة كل أنواع التربية ، من تهذيب الميول وتوجيهها إلى الوجهة التي لا تؤذى الفرد ولا تؤذى المجتمع الذي يعيش فيه .

ذلك كله هو سر الإنسان ، وسر مافيه من تناقض عجيب . فهو يسعى بطبيعته للبقاء ، ويعمل جاهداً ليتغلب على كل ما يقف أمامه من عقبات ، ويجد ، ليحقق لنفسه كل ما يتصورها من كمال ، وكل ما يقدر عليه من فردية واستقلال ؛ بيد أنه يشعر ، بطبيعته أيضاً ، أن ذلك الكمال ، وتلك الفردية ، وهذا الاستقلال ، لا تتحقق إلا إذا حدد من حرياته ، وكبت من ميوله وشهواته ، وتنازل عن كثير من كبريائه وجبروته ، وأسلم قياده لشخص آخر مثله ، وعاش في جماعة ؛ ويحس ، من قرارة نفسه أيضاً ، أنه لا يتم له شيء من ذلك الذي يبغيه ، ولا تتحقق له رغبة ، أو تشبع له حاجة ، إلا إذا ربط نفسه بقوة

عليها يخضع لها كل الخضوع ، ويلجأ إليها عند ما يعجز عن كل الحيل ؛ وتلك القوة العليا هي الله تعالى . وذلك كله مسطور في طبيعته لا يقدر على التغلب عليه مهما ظهر قوى السلطان مهيب الجانب . فهو فرد بطبيعته وأناى ، وهو اجتماعى بطبيعته ومؤثر غيره على نفسه ، وهو إلهى بطبيعته وخاضع ، ويجسد لذة نفسية فى خضوعه ، وهو يسعى مع ذلك ، ليعز ، وليكون منيع الجانب رفيع الجاه ، قوى السلطان . أو ليس ذلك كله مظهراً واضحاً لتناقض ليس فوقه تناقض ؟ نعم إنه كذلك ؛ وإن هذا هو سر الانسانية التى وجدت لتمثل كل ما فى الكون من وجود معروف ، وليتمثل فيها كل نوع من أنواع الحياة .

فالإنسان هو المظهر الذى يمثل كل ناحية من نواحي الوجود ؛ وهو ذلك الحد الوسط بين كل أنواع الحياة ؛ وهو تلك النقطة التى يمكن أن ننتقل منها إلى كل نوع من أنواع الوجود ؛ ويكفى هو وحده دليلاً على وجود سائر أنواع الحياة الأخرى ؛ وتكفى دراسة ميوله الطبيعية ، واتجاهاته النفسية ، وغرائزه الفطرية ، وكل ما فيه من قوى نفسية ، لمعرفة أنه حيوان اجتماعى ، وأنه ملاك مطهر ، وللايمان بوجود إله قادر قاهر ، لا يخضع لأمثال هذه الميول النفسية ، والاتجاهات الفردية . فليس الإنسان فى حاجة إلى أدلة خارجية ، لتبرهن له على وجود الله ، كما أنه ليس فى حاجة إلى مثل هذه الأدلة ، ليعرف أنه فى حاجة ماسة إلى العيش وسط جماعة من الناس ، أو ليعرف أنه موجود . لأن كل ذلك موجود عنده ، وحاضر فى نفسه ، يشهد به عقله ، وقلبه ، وغرائزه ، ووجداناته ، وكل ما فيه من قوى . ولعل ذلك هو المعنى بقوله صلى الله عليه وسلم : « من عرف نفسه فقد عرف ربه » ، فمعرفة الرب لازمة بالضرورة لمعرفة النفس ، أو هى ، بعد

الشعور بالنفس ، معرفة بدهية لا ينتقل فيها الذهن من دال إلى مدلول ؛ وإنه لمن الممكن أن نفهم مثل ذلك من القرآن الكريم ، حين يوجهنا إلى النظر في نفوسنا ، لننتقل منه إلى الايمان بالله ، ويقول : « وفي أنفسكم ، أفلا تبصرون » .

وأحب أن أشير هنا بكثير من الاعجاب والتقدير إلى تلك العبارات الخالدة التي تفيض جمالا وصدقا عن يراع مازيني (Mazzini)^(١) ، حين كان يتحدث عن الله ويقول : « إن الله موجود ، ولست اليوم أحاول البرهنة على وجوده ، فقد يستلزم ذلك كفراً به وإلحاداً . الله موجود ، لأننا موجودون ؛ وهو موجود فينا ، وفي شعور الانسانية جمعاء ، وفي كل ما يحيط بها من عوالم ؛ وإنا لنشعر بذلك في كل الأوقات : فنشعر به في ساعات الضيق والشدة ، كما نشعر به في حالات السرور والنعمة . ولم يكن أول ملحد في الأرض إلا أحد هؤلاء المجرمين الذين أخفوا جرائمهم عن كل الناس ، وظنوا أنهم قد يتخلصون ، بإنكارهم لوجود الله ، من شهادة الشاهد الذي لا تخفى عليه خافية ، ومن وخز الضمير الذي يلزمهم ، ويؤنبهم . ولعله كان من الجبارين الذين كانوا يعيشون فساداً في الأرض ، فتحكموا في أرواح الناس ، وفي حرياتهم ، وحاولوا أن يتحكموا كذلك في توجيه خضوعهم وعباداتهم ، فألهوا أنفسهم ، أو ألهوا ما شاءوا من المواد والطبائع . ولقد جاء بعد هذا الصنف من الناس آخرون ، أدى بهم الانحراف الفلسفي ، وقصر النظر ، إلى تكوين نظريات الحادية ؛ ولكنهم كانوا من القلة بمكان ، وكان يمنعهم الحجل والحياء من الظهور ؛ وجاء بعد

(١) أحد رجال إيطاليا المشهورين . ولقد برز في السياسة بنوع خاص ، وكان من رجال أوروبا المحدثين في القرن التاسع عشر . وما اقتبسته هو من إحدى محاضراته التي أسماها « واجبات الانسان » .

هؤلاء آخرون ، أنكروا الله ووجوده ، لما رأوا من الأفكار البدائية ،
والمبادئ اللامعقولة ، التي تحيط باسمه ، والتي تنسب إليه . ولكن لم يكن
ذلك الإنكار إلا لأجل محدود ، لم يتخلصوا ، أثناءه ، من كل أنواع العبادات ،
بل عبدوا الطبيعة أو العقل . ويبغض ، الآن ، كثير من الناس الأديان ، لما
اتصل بها من فساد وانحطاط ، من غير تفرقة بين الخبيث والطيب ؛ فلما رأوا
أن من القسيسين ورجال الدين من يدنس اسم الله لقاء دراهم معدودات ،
ويفاضل بين الله والإنسان ، ويفضل جانب الأخير عند ما يدعو نظره القاصر
إلى ذلك ، ورأوا أن الدين قد استعمله القوى أداة بطش وجبروت ، ليخضع به
الضعفاء وذوى الحاجة — لما رأوا ذلك وأمثاله أنكروا الأديان ، ولكنهم لم
يكونوا على حق في ذلك . فليس لنا أن ننكر وجود الشمس ، وأثرها في الحياة
الأرضية ، حين يحجبها عنا البخار المتكاثف ؛ وليس لنا أن نرفض الحرية
الشخصية ، ونلغنها ، لأن الأشخاص يستغلونها استغلالا سيئا ؛ وليس لنا أن ننكر
الأديان كذلك ، لأنه قد أسئ استعمالها ، أو دخلها كثير من الأباطيل والأكاذيب
بفعل الإنسان . وذلك لأن لها من القوى الذاتية ما يسمح لها بالخلود ، على الرغم
مما يلصقه الناس بها من أباطيل وأوهام ؛ ولا بد أن يموت الكذب يوما ما ،
ولا بد أن تفتضح الأباطيل ، وينكشف أمرها ، ويبقى اسم الله مطهراً من جميع
الأرجاس ، وخالداً أبداً الأبدى . وذلك هو سر بقاءه الخالد في النفوس ، على الرغم
مما قد يعترىها من شك وتردد .

وإذا كان الله موصوفاً بأنه أقرب إلينا من حبل الوريد ، فذلك لأنه

حاضر حضورا كأنه حضور مشاهدة عند كل حاسة من حواسنا ، ومعروف لكل قوانا : فيعرفه العقل ، ويدركه القلب ، ويشعر به الوجدان ، وليس له مكان خاص في جسم الانسان ، ولكنه حاضر حضورا دائما غير محدود بزمان أو مكان ؛ وأما حبل الوريد فذو مكان معين محدود ، ولا تتوجه إليه النفس إلا نادرا ، عند ما يحل به مرض ، أو تصيبه آفة ، أو عند ما يكون موضوعا لبحث من البحوث العلمية .

وما دامت العقائد الدينية متصلة بكل من العقل والوجدان والإرادة ، احتاجت ، في وسائل نشرها ، إلى الاعتماد على كل هذه القوى ، وإلى تربيتها تربية متناسبة مع ما توجه إليه من اعتقاد . ولا يمكن أن تختلف تلك الوسائل عن وسائل نشر المبادئ والفكر التي تعتمد على هذه القوى النفسية . ولا مرأ في أن العقائد لا تحتاج إلى ما يكونها فحسب ، ولكنها تحتاج ، بعد التكوين ، إلى كثير من التعهد والرقابة . فهي في حاجة إلى أن تحاط بسياس منيع يتناسب مع ماهيتها ، ومع طبيعة المؤمنين بها ، ليدفع عنها عوامل البلاء والفناء ، وليضمن لها البقاء والقوة في نفوس المؤمنين ، وليهيء لها فرصة الذيوع والانتشار بين من لا يؤمن بها . وقد تكون العقيدة نفسها قوية السلطان على النفوس ، لما تتصف به من القيم الذاتية ، ولما تعتمد عليه من الحكمة والمنطق ، اللذين يضمنان لها البقاء والخلود ، ما دام هنالك من يفكر ، ومن يعتقد ؛ ولكنها ، مع ذلك ، لا يمكن أن تستغنى عن ذلك السياج . فإنها ، إن تركت وشأنها من غير رعاية ، قد تعمل فيها عوامل الفناء ، بطول الزمن وتقدم العهد ، فتضعف قليلا قليلا ، وتزول من الصدور ، وتنمحي من القلوب ، وتموت ، كما تموت

الثقافات ، حين لا تجد من يتعهدا ، ويعمل على تنفيذها ، وعلى تحويلها إلى حركة وعمل .

ولا شك في أن المظاهر المادية ، والعمل بما توحى به العقيدة ، من أكبر العوامل التي تساعد على بقاءها وعلى نشرها ؛ وكلما كانت المظاهر متكررة بتكرار الأوقات والأيام كان ذلك أدعى إلى بقاء العقيدة ودوامها . فالصلاة ، مثلا ، وهي أحد المظاهر الفعلية للإيمان بالله ، لا تنحصر غايتها في تربية ملكة الخضوع ، وإيجاد خلق التدين عند الانسان ، فحسب ، ولكنها تهدف ، وراء ذلك ، إلى تثبيت العقيدة في نفوس المعتقدين ، وإلى ضرب الأمثال لهؤلاء الذين لا يعتقدون ، رجاء أن تلين قلوبهم لذكر الله ، وتدفعهم غريزة حب الاستطلاع إلى البحث والنظر . ويحدثنا المبشرون عن مدى تأثير المظاهر المادية للعقائد في نفوس البدائيين من غير المعتقدين ، وتحويلهم إلى الاعتقاد ؛ وذلك أمر طبيعي يجد ما يشهد له في علم النفس . فالانسان يميل بطبيعته إلى الأديان ذات الشعائر منه إلى غيرها ، لأن الأولى ترضى كل قواه : النفسية والعملية ؛ وأما حياة التدبر والتأمل وحدها فلا تشبع الرغبات الانسانية . ولقد نجح العرب نجاحا كبيرا ، في نشر الاسلام في كثير من أنحاء أفريقيا ، ولا يزالون يسجلون نجاحا كبيرا من غير أن ينطقوا بكلمة ، أو يثيرون جدلا ، إلا حين يسألون . وكل ما هنالك أنهم يقيمون شعائرهم الدينية جهارا : فيتطهرون ، ويصلون في أى مكان يوجدون فيه عند ما يحل وقت الصلاة ، ويصومون ، ويتصدقون ، ويطعمون الجائع والمحروم ، ويحترمون الجميع ، من غير أن ينتظروا على ذلك جزاء أو شكورا . فينظر إليهم الافريقيون كأنهم من نوع إنسانى أرقى روحا ، وأقرب

إلى الانسانية ، من كل الأنواع الأخرى التى اتصلوا بها من الناس ، فيؤمنون بما يؤمنون به . فالمظاهر المادية ، والعمل ، والمثال ، والقذوة الحسنة ، والتوكيد والتكرار ، وما فى العقيدة من منطق وحكمة ، ومقدار ما يدعمها من منطق وحكمة ، ومقدار قوة المدافعين عنها بالحكمة ، ومقدار اتصالها بالحياة العملية للمؤمنين بها ، ومقدار تنظيمها لهذه الحياة ولجوانبها المختلفة ، ومقدار إشباعها لحاجاتهم النفسية والعقلية ، ومقدار انسجامها مع اتجاهاتهم الفطرية - كل ذلك من وسائل نشر العقيدة وتقويتها ، ومن ضروريات الاحتفاظ بها أمدا طويلا .

الإسلام ووسائل الاعتقاد

إذا كان المذهب العقلى ، فى الفلسفة ، يختلف عن غيره فى أنه يلجأ إلى العقل ، ويتحاكم إليه فى كل ما يؤمن به من أحكام وقضايا متعلقة بما وراء الطبيعة ، ولا يبنى نتائجها فيها إلا على أسس مستمدة من قوانين العقل والمنطق ، فإنه يصح لنا أن نصف الدين الإسلامى ، حقاً ، بأنه دين عقلى كذلك . ولكننا لا نصفه بذلك لأنه من عمل عقل الانسان ، ونتيجة لمنطقه وتفكيره ، بل لأن قضايا ، وأحكامه ، وما فيه من عقائد وتكاليف ، على الرغم من أنها ليست من عمل العقل الانسانى ، معقولة كلها : لم تخاطب إلا العقل ، ولم توجه إلا إليه ، ويجد العقل بنفسه ما يبرهن عليها ، وتجدهى فى الاسلام ما يبررها ، ويبرهن عليها ، ويظهر ما فيها من حكمة .

فالاسلام دين عقلى ، لأنه يبحث على استعمال العقل ، وعلى التفكير والتدبر والتبصر ، ويتطلب من الانسان أن ينظر فى ملكوت السموات والأرض ،

عنه يتوصل إلى أسرارها الدقيقة ، وأن يتعمق في البحث ، رجاء أن يصل إلى الحقيقة ، ويدعوه في القرآن الكريم الذي هو دستور الخالد إلى ذلك في غير موطن ؛ فيقول ، مثلاً : « إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار آيات لأولى الألباب الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ، ويتفكرون في خلق السموات والأرض ، ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانه » ، ويقول : « أفلم يسيروا في الأرض ، فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها ، فإنها لا تعمى الأبصار ، ولكن تعمى القلوب التي في الصدور » ، ثم ينكر على هؤلاء الذين لا يفكرون ، ويقرعهم قائلاً : « أفلا يتدبرون » و « أفلا يعقلون » و « إن هم إلا كالأنعام ، بل هم أضل سبيلاً » . ثم يؤكد النظر ويوجبه ، ويجعله شرطاً لصحة الإيمان ، ويذم اتباع الآباء والأسلاف ، وينهى عن التقليد والخضوع الأعمى للسادة والكبراء ، ويقبح الحسد والظن في مسائل الإيمان ، فيقول : « إن هم إلا يظنون » و « إن هم إلا يخرصون » ، و « ما لهم به من علم إلا اتباع الظن » ، و « بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة ، وإنا على آثارهم مقتدون » ، و « قل أو لو كان آباؤكم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون » . ولقد بلغ من حث الإسلام على استعمال العقل ، وعلى التدبر والنظر أن قال بعض العلماء « من أهل السنة : إن الذي يستقصى جهده في الوصول إلى الحق ، ثم لم يصل إليه ، ومات طالباً غير واقف عند الظن ، فهو ناج » (١) ، وإن أجمعوا « إلا قليلاً ممن لا ينظر إليه على أنه إذا تعارض العقل والنقل أخذ بما دل عليه العقل ، وبقي في النقل طريقان : طريق التسليم بصحة المنقول مع

(١) الإسلام والنصرانية للأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده.

الاعتراف بالعجز عن فهمه ، وتفويض الأمر إلى الله في علمه ، والطريق الثانية تأويل النقل مع المحافظة على قوانين اللغة ، حتى يتفق معناه مع ما أثبتته العقل « (١) . فالإسلام يحث على النظر ، ويتطلب المعرفة كما يتطلب الإيمان ، أو يتطلب الإيمان عن معرفة ، ويهدف نحو تربية ملكة النظر ، كما يهدف نحو تربية الطاعة ، وتقويم الوجدان ؛ غير أنه لا يهدف نحو تربية الطاعة العمياء ، والخضوع الآلى الذى يجعل الانسان يتحرك كما تتحرك الآلة ، أو كما تتحرك الأنعام ، من غير وعى وتدبر ؛ ولكنه يحاول النهوض بالعقل الانسانى ، حتى يبلغ غايته من كمال المعرفة ، وحتى يسمو فى بعثه المرء على أن يعمل الخير لأنه خير قد أدرك مافيه من خير ، ويتباعد عن الشر لأنه شر كذلك ، لا لأن الآباء والأسلاف والكبراء كانوا هكذا يفعلون . فهدف الاسلام تربية العقل والوجدان معا ، أو تربية العقل أولا ، وبالذات ، وعن طريقه يتربنى الوجدان .

والاسلام دين عقلى ، لأنه قد راعى قوانين العقل فى كل ما جاء به من شرائع وعقائد ، ثم تحاكم إليه فيها ، وقبل فيها سلطانه ؛ فقضاياه ، وأحكامه ، وتكاليفه ، وأوامره ، ونواهيه ، وكل ما جاء به ، معقولة كلها ، وموجهة للعقل ومعرضة عليه ، لينظر فيها ، ويقبلها ، حين يقبلها ، عن بينة وتدبر واختيار . وذلك لأنه مطمئن إلى صحة كل مافيه من شرائع وعقائد ، وواثق بأنه ليس فيها ما يأباه العقل ، أو يستعصى على الفهم ، أو يتعقد على الإدراك ، و « لم يمتحننا بما تعيا العقول به » ، ولكن بما هو واضح المعالم ، وبين الحجة ، وظاهر الحكمة ؛ وليس على المرء إلا أن ينظر فيه بتدبر وإمعان ، مجردا عن الهوى والتعصب ،

وعن كل الأفكار المغرضة ، ليرى كيف أنه يتفق وقوانين العقل الخالص ،
وينخضع للمنطق العام والسنن العامة ؛ وليس على الجماعة أو الدعاة إلا أن تهيم
للمرء سبل هذا النظر ، حتى يؤمن ، ان شاء ، عن بينة ، ويكفر ، ان شاء ،
على بينة كذلك . وكلا الكفر والايمان عمل عقله وإرادته ، ونتيجة تدبره
واختياره . ولذا كان مسئولا عنهما ؛ ولذا صح أن يثاب ويعاقب ، ولذا لم
يكلف كل من المجنون والمضطر ، بل من يعقل الخطاب ويقدر على التنفيذ
فحسب .

فالعقل أساس التكليف ، وكذا الاختيار . وإذا كان الأمر كذلك لم يكن
من المعقول أن يلجأ الاسلام ، في دعوته ، إلى ما يتنافى مع النظر والاختيار
من قهر وإجاء واستعمال وسائل الضغط والشدة . فذلك كله يتنافى مع النظر
الصحيح ومع الاختيار ؛ وهما أساس التكليف ، وأساس صحة الايمان . ولقد
أهدر الاسلام إيمان الاجاء وكفر الاجاء كذلك ، ولم يرتب عليهما شيئا من
الأحكام . فانظر إلى القرآن الكريم يقرر ذلك ، ويقول : « هل ينظرون إلا
أن تأتيهم الملائكة ، أو يأتي ربك ، أو يأتي بعض آيات ربك ، يوم يأتي بعض
آيات ربك لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها
خيرا » ، ويقول : « إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون
من قريب فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليما حكيما . وليست التوبة للذين
يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال انى تبت الآن ولا الذين
يموتون وهم كفار أولئك أعتدنا لهم عذابا أليما » ، ويقول ، فيما تحدث به عن
فرعون منكرآ صحة إيمانه حين أن فاه به ساعة العرق : « الآن وقد عصيت

قبل وكنت من المفسدين » . ولهذا يقول علماء الاسلام ان الايمان قبيل الموت ، وساعة الغرغرة ، إيمان لا يعتد به ، لأن أوان التفكير والاختيار قد فات ، وقد بلغ المرء مرحلة لا ينفع فيها عمل . فالإيمان المقبول هو الايمان المكتسب ، وهو الذى استقر فى النفس عن نظر واختيار . وأما الايمان الاضطرارى فلا يغنى عن المرء شيئا ، وليس له من قيمة فى نظر الاسلام .

فليس الاكراه على الاعتقاد ، إذن ، من الاسلام فى شيء ، لأنه ينافى مبادئه من ناحية ، ولا يؤدى غرضه من ناحية أخرى ؛ إذ لا ينشأ عنه إيمان أو اعتقاد مقبول . والقرآن الكريم يقرر هذا فى غير موضع منه ، فيقول ، مثلا : « لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغي » ، ويقول : « ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا ، أفأنت تكفره الناس حتى يكونوا مؤمنين » ، ويقول : « فذكر إنما أنت مذكر ، لست عليهم بمسيطر » ، إلى غير ذلك من الآيات التى تنهى عن الاكراه ، وتبين أن الداعى الأول محمداً صلى الله عليه وسلم لم يكن إلا مبلغا ، وبشيرا ونذيرا ؛ وهكذا ينبغى أن يكون شأن من يتصدى للدعاية من بعده . والاكراه ، فوق أنه منهى عنه من ناحية المبدأ ، عديم الجدوى من ناحية الاعتقاد ، ومن ناحية العمل . وذلك لأن الاكراه هو أن تلجىء المرء إلى الأخذ بما لا يراه ولا يؤمن به ، وإلى العمل على مقتضاه ؛ وإنه لمن الهين أن تجعل المرء يعمل بما تحب ، ولكنه من العسير ، إن لم يكن من المستحيل ، أن تجعله يعتقد رغم أنفه ، وأن تجعله يعمل وفق اعتقاده ؛ وكل ما يمكن فعله هو أن تجعل المرء يبدو كأنه معتقد ؛ ولكنه ما هى الثمرة التى تجتنى من وراء ذلك المظهر ، مادام القلب منكرا ؟ إن الدين الاسلامى لا يعترف بمثل هذه

المظاهر ، ولا يقبل إلا الايمان الذى انبعث عن طمأنينة قلبية ، وعن اختيار ؛
وانه لم يحارب الكفار بمثل ما حارب به هؤلاء الذين يقولون ما لا يعتقدون ،
ويظهرون كأنهم مؤمنون ، فى حين أن قلوبهم مرضى ، وتفيض حقداً وحسداً
وكرهاً للايمان وللمؤمنين . فآثر الاكراه فى الجوارح فحسب ، وفى إيجاد المنافقين ،
وليس هؤلاء من الاسلام فى شيء ، « ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم
الآخر ، وما هم بمؤمنين ، يخادعون الله والذين آمنوا ، وما يخدعون إلا أنفسهم
وما يشعرون » ، وليس له من أثر فى القلب الذى هو محل الاعتقاد ، اللهم
إلا أن يزيد عناداً وإصراراً ، وبعداً واستكباراً .

هذا ، ولم يلجأ المسلمون فى يوم من الأيام إلى الإكراه واتخاذ وسيلة من
وسائل الدعوة إلى الإسلام . فهذا هو الرسول صلى الله عليه وسلم ينكر شديد
الانكار على الآباء المسلمين الذين كانوا يحاولون إرغام أبنائهم على الدخول فى
الإسلام ؛ وهكذا كان المسلمون من بعده ، فكانوا كلما دخلوا بلداً من البلاد لم
يتعرضوا لدين أهلها ، ولم يلجئوهم إلى اعتناق الإسلام ، بل تركوهم أحراراً
فيما يعتقدون . وتلك حقيقة لا يمارى فيها الآن أحدهم يعتقد به من الباحثين ،
واعترف بها من قبل كثير من مؤرخى الغرب ، بعد أن وجدوا ما يؤيدها من
أقوال المعاصرين للفتوح الإسلامية من غير المسلمين ، وبعد أن شاهدوا بأنفسهم
كيف يفتشر الإسلام فى العصور الحديثة من غير أن تكون له قوة مادية ، أو يكون
وراءه سيف مسلط على الرقاب (١) .

(١) راجع هنا ، كمثل يشهد على ذلك ، كتاب الدعوة إلى الإسلام (The Preaching

٥ m) للسير توماس أرنولد (Sir T. W. Arnold) ، وخاصة ص ٧٥ - ٧٦

١٣٥ - ١٤٠ و ١٥٣ - ١٥٤ ، من ترجمة الدكتور حسن ابراهيم حسن وزملائه .

مكتبة النهضة المصرية .

وأما القتال في الإسلام فلم يكن يهدف نحو إكراه أحد على أن يترك دينه ، ويعتنق الإسلام ، ولو كان يهدف نحو ذلك ما آمن به أحد ، لأنه كان لا يزيد الناس إلا عنادا وإصرارا ، ولكنه كان دفاعا عن النفس ، وعن العقيدة والمعتقدين ، ومحاولة لإزالة العقبات والحواجز التي كانت توضع ، ظلما وعدوانا ، في سبيل المؤمنين ، لتحول بينهم وبين إخوانهم في الدين ، ولتمنعهم من إقامة شعائرهم كما يحبون ، ولتسد الطريق أمام انتشار العقيدة بالأساليب السلمية . كل ذلك كان مدعاة للاعتراف بالحرب طريقا طبيعياً يدافع به الإنسان عن نفسه وعن عقيدته ، حينما لاتنفع السبل الأخرى ، وحينما لا يكون له بد من مواجهتها . فلما أجمعت قريش ومن ناصرها الأمر على استئصال شأفة المسلمين ، وقتل الإسلام في مهده ، وحينما ألبوا جميع من يقدرون على تأليه من الناس على الرسول وعلى أصحابه ، وحينما أخرجوا المسلمين من ديارهم وأموالهم بغير حق إلا أن قالوا ربنا الله ، وحينما لم يتركوهم يعبدون الله آمنين في دار هجرتهم ، ويدعون إلى الإسلام بالحسنى ، بل كادوا لهم ، وتحرشوا بهم ، وأخذوا يجمعون جموعهم ، ويعدون عدتهم ليوم الاستئصال ، لم يجد الإسلام بدا من أن يقابل أعداءه بنفس السهام التي كان يرمى بها ، ويرد عدوانهم بالأسلوب الذي يفهمونه ، وهو مقابلته بمثله ، ولكن من غير طغيان أو مجاوزة للحدود . ولقد ظل الإسلام يقابل الاساءة بالحسنى سنين طوالا ، تقرب من خمسة عشر عاما ؛ ولكن لم تزد تلك المعاملة بالحسنى المسيئين إلا استكبارا وصدا عن سبيل الله ، ووقوفاً في سبيل الدعوة ، واشتدادا في إيذاء المسلمين . ولقد تطور ذلك الإيذاء في الأيام الأخيرة إلى ما يشبه حربا تسبقها مؤامرات ، وتدبيرات ، ومحالفات ومعاهدات ، ثم تقوم بها ، جهارا ، جماعات منظمة ، تحميها جماعات أخرى ، بعد أن كان عداء فرديا لا يعدو أن

يعذب فرد من غير المسلمين المستضعفين من المسلمين . فكان الاسلام مضطرا إلى الدفاع عن النفس وعن العقيدة ، ولا ضير عليه في ذلك ؛ ولكن الضير كل الضير كان يحل به لو وقف مكتوف اليدين أمام هجمات الأعداء ، وغارات المغيرين . وتلك حقيقة قد اعترف بها العلماء من غير المسلمين أيضاً ؛ وليس كتاب « الدعوة إلى الاسلام » للسير (توماس أرنولد) (١) الذي تجاوزت صحائفه في الترجمة العربية ثلثمائة وسبعين صحيفة إلا تبينا للكيفية التي انتشر بها الاسلام حتى عم بقاع الأرض كلها ، واستدلالاته على أن العنف والقوة والاكرام لم يكن لها وجود يذكر في الاسلام ، وأن انتشار الاسلام يرجع إلى طبيعته كدين يقبله العقل ويرضى به الوجدان ، وإلى طبيعة الدعاة وسماحتهم وعدم احترافهم « مهنة » الدعوة . ويتساءل بعض العلماء المحدثين عن الحرب في الاسلام ، ويقول : « هل كان لمحمد اتجاه حربي ، أو كان يقصد حرباً ؟ » ، ويجب بأن « الجواب لابد أن يكون بالسلب ؛ وذلك لأن المشروعات الحربية التي حدثت في صدر الاسلام لم تكن من منهجه الأصلي ، ولم تكن مقصودة ، ولكنها كانت نتيجة لظروف قاهرة لم يقدر على دفعها ، فقبلها مضطرا ، بعد تردد طويل ؛ وكذلك فعل خلفاؤه من بعده (٢) » .

ولم يكن ذلك السلم في الدعوة الدينية إلا تنفيذا لأوامر القرآن الكريم ، وعملاً بمبادئه التي نجدها بينة في غير موضع منه من السور المكية والمدنية على السواء ، أيام ضعف المسلمين وأيام قوتهم وبدء دولتهم . فنقرأ في البقرة ، وهي من السور المدنية : « لا اكره في الدين ، قد تبين الرشيد من الغي ، فمن يكفر

(١) المرجع السابق .

(٢) Arabic Thought and Its Place in History by O'leary .

بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها ، والله سميع عليم ،
 إذ أن الدين والاعتقاد لا يرتبطان ، في جوهرهما ، إلا بالقلب والنفس ، ولا سلطان
 لشيء من القوى الخارجية عليهما ، فلا ينفع فيهما الاكراه . وكل ما ينفع ، في
 هذا المقام ، هو الشرح والدعوة والتبليغ . ولقد استنبط العلماء من هذه الآية
 عدم صحة إيمان المكروه ؛ فلا يمكن أن يكون الاكراه ، إذن ، من وسائل
 الدعوة في الاسلام . ونقرأ في سورة النحل : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة
 والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتي هي أحسن ، ان ربك هو أعلم بمن ضل عن
 سبيله ، وهو أعلم بالمهتدين . وإن عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ، ولئن
 صبرتم لهو خير للصبرين . واصبر وما صبرك إلا بالله ، ولا تحزن عليهم ، ولا تك
 في ضيق مما يمكرون . ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » . والآيات
 الثلاث الأخيرة هنا مدنية ، وما قبلها مكية ؛ وتهدف جميعها نحو طلب الصبر ،
 والمعاملة بالحسنى ، والدعوة بالأسلوب اللين . ونجد مثل هذا في العنكبوت أيضا :
 « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن ، إلا الذين ظلموا منهم ، وقولوا
 آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم ، وإلهنا وإلهكم واحد ، ونحن له مسلمون » ،
 وفي المائدة : « وفي المائدة : وهي مدنية ، « فيما نقضهم ميثاقهم لعنهم ، وجعلنا قلوبهم قاسية
 يحرفون الكلم عن مواضعه ، ونسوا حظا مما ذكروا به ، ولا تزال تطلع على
 خائنة منهم إلا قليلا منهم فاعف عنهم واصفح ان الله يحب المحسنين » ، وغير
 ذلك من الآيات المدنية التي تدعو إلى الصفح الجميل ، وتبين أن الرسول مبلغ
 ومنذر ، وليس له سلطان الملجئ .

بيد أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يدعه قومه طليقا يدعو إلى ربه

بالحسنى كما أمر ، بل وقفوا فى سبيله ، وقعدوا له بالمرصاد ، فعذب هو ومن آمن به ، وحوصروا سنوات عدة ، وخصوصوا ، وقوطعوا ، ونكل بهم أشد التنكيل ، ثم طردوا ، واضطروا إلى أن يتركوا ديارهم وأموالهم وأولادهم ؛ ثم لم يتركوا بعد الهجرة ، ليعيشوا فى دار الهجرة آمنين ، بل وضعت فى سبيلهم العقبات ، وقامت عدة محاولات لطردهم منها ؛ ولما أخفقت جميعها بدأت معاهدات ومحالفات ترمى نحو جمع الجموع الكبيرة لمهاجمة الاسلام فى دار هجرته ، بغية الوقوف فى سبيل انتشاره ، وقتله أو حصره فى تلك الدار ، فلم يبق للرسول ولأصحابه إلا أن يدافعوا عن أنفسهم وعن عقيدتهم ، فأذن لهم بهذا الدفاع الذى ألجأهم إليه الأعداء ؛ فنقرأ فى سورة الحج : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وإن الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ، ولينصرن الله من ينصره ، إن الله لقوى عزيز . »

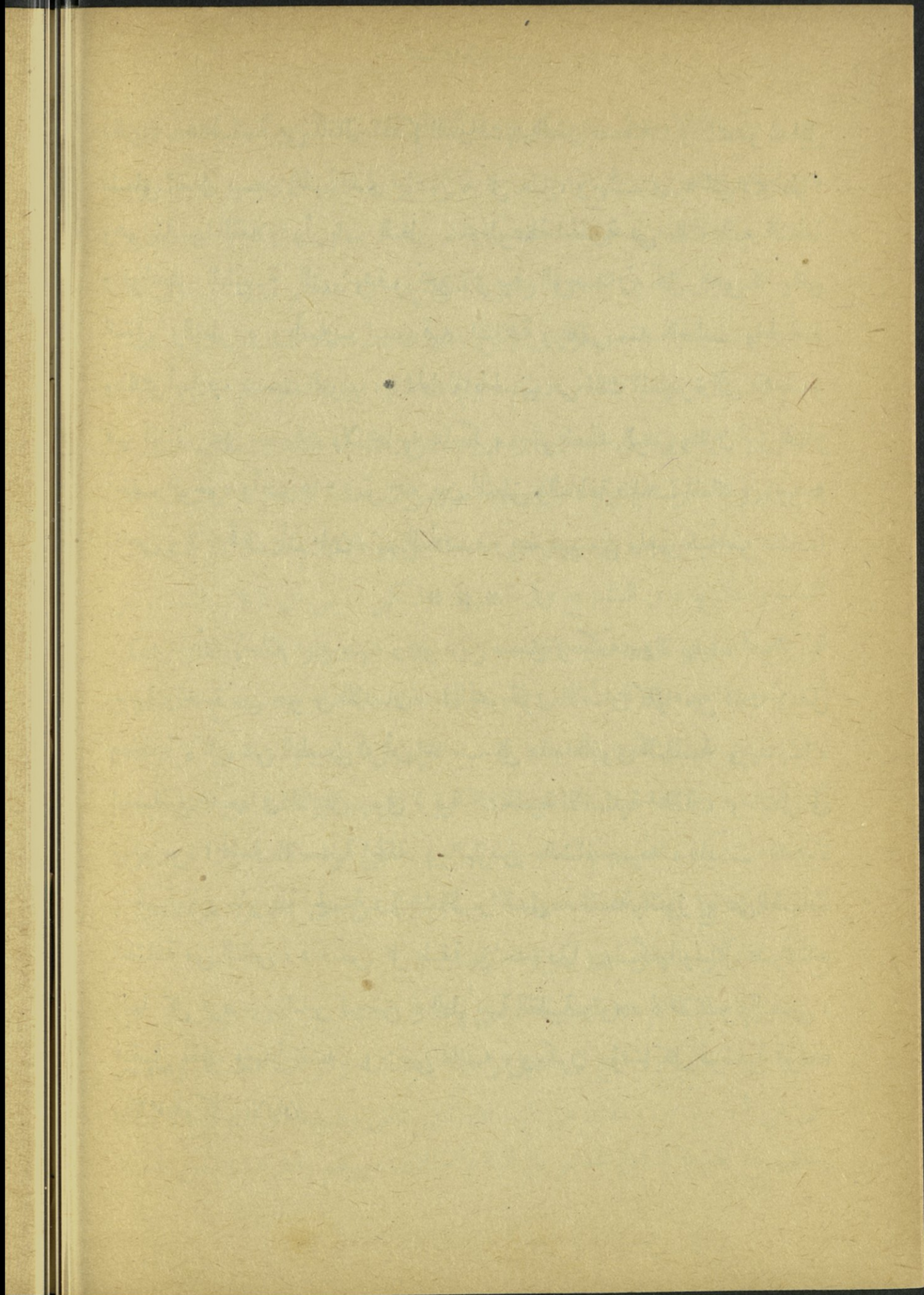
فعلل الإذن بالقتال فى هذه الآية بأنهم ظلموا : فأودوا فى أنفسهم وفى أموالهم وحوصروا فى حرياتهم ، وأخرجوا من ديارهم ، وليس لذلك من سبب إلا قولهم « ربنا الله » . ولكن على الرغم من أنهم قد أذن لهم فى القتال ، فلم يكن ذلك ترخيصا لهم أن يرتكبوا كل ما يقدرون عليه فى سبيل الدفاع عن أنفسهم وعن حرية عقيدتهم ، ولكنهم أمروا أن لا يتجاوزوا الحد الضرورى . فالجرب ضرورة يقتصر فيها على ما يدفع الضرورة ، بقوله تعالى فى سورة البقرة : « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ، ولا تعتدوا ، إن الله لا يحب المعتدين » ، و « وقاتلواهم حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين لله ، فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين » .

فهو لم يكن قتالا يهدف نحو تكوين مملكة أو استعباد الناس ، ولكنه قتال دفاع عن النفس وعن حرية التدين وحرية الدعوة إلى الله في عصر كبتت فيه الحريات ؛ ولذا حرم على المسلمين أن يحاربوا حرب استئصال ، أو أن يتجاوزوا ماهو ضرورى لتأمين الدعوة وحرية المؤمنين في غدوهم ورواحهم وفي إقامة شعائرهم . فلولم تستعمل قريش ومن ناصرها القوة ضد المسلمين ، ولو سمحوا للمسلمين أن يقوموا بشعائر دينهم ، ولم يتدخلوا فيها تدخلا فعليا ظلما وعدوانا ، ولو تركوا الرسول صلى الله عليه وسلم يعبر عن عقيدته بالأسلوب اللين الذى بدأ به ، ولو لم يجمعوا جموعهم ، ويجمعوا أمرهم ليستأصلوا شأفة الإسلام من أول الأمر ، ما لجأ الرسول إلى شيء من الشدة ، ولظل الإسلام بعيداً كل البعد عن الشدة وأساليبها ، فى التشريع وفى العمل ؛ ولكن ينبغى أن لا يلام الإسلام على أن دفع العدوان ، ورد كيد الظالمين ، بالأسلوب الذى لجأوا إليه ، والذى لا يمكن أن ينتفعوا بغيره ؛ وهو أسلوب القوة والشدة ، وإعداد ما يستطيع المسلمون إعداده من وسائل القهر والغلبة ، ليسد الطريق أمام هؤلاء الذين لا يعرفون إلا الخوف ، ولا يخضعون الا لسلطان القوة ، لينزعهم كل ذلك من التفكير فى الاعتداء ، وكبت الحريات الشخصية والدينية . فهى قوة دفاعية فى الحرب وفى السلم ؛ ولكنها ليست قوة تحاول أن تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ؛ « أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » .

ولم يكن للإسلام ، فى الحقيقة ، من وسائل للدعوة غير تلك الوسائل التى تضمنها قوله تعالى : « ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هى أحسن » . وتلك هى الوسائل التى تتفق وطبيعة الإسلام من ناحية ، وتتفق مع طبيعة الناس المدعوين اليه واختلاف ميولهم وفطرتهم ، من ناحية

أخرى . فالحكمة هي المقال المحكم الذي يشهد العقل بصحته ؛ وذلك هو الدليل المنطقي الذي يبين الحق الذي يؤمن به كل عقل ، ويهتدى به كل ذى نظر ؛ وهو يناسب العقلاء وأرباب النظر . والموعظة الحسنة هي تلك العبر النافعة والمواعظ الطيبة التي تهدف نحو تربية الوجدان على نحو لا يلغى العقل والنظر ، وبأسلوب تبدو فيه المناصحة ويظهر منه العطف والمحبة ، وذلك أسلوب يناسب العوام . والمجادلة بالحسنى هي تلك المناظرة التي لا يقسو فيها المناظر على خصمه ، ولا يجابهه بما يكره ، بل يعتمد الرفق واللين ، ويختار أخف الوجوه وأيسرها ؛ فهو جمع بين المنطق والعاطفة يناسب المعاندين بوجه خاص ، لأنه قمين بأن يلين منهم القلوب ، ويصرفهم عن ما هم عليه من عناد .

وبما أن الإسلام دين عام ، وهو دين منطق وحكمة ، ولا يهدف نحو تربية حاسة واحدة من حواس الانسان ، بل نحو قوى الانسان كلها من قلب وعقل وعاطفة ، كان من الطبيعي له أن يخاطب كل هذه القوى النفسية ويهذبها ، لتتضمن جميعها في الايمان ، وفي تربية الشخصية الانسانية الحقة ، وبالتالي في تكوين الجماعة الانسانية الحقة وبالنهوض بالعالم جميعه . فليست الدعوة بالحكمة وبالموعظة الحسنة ، وبالمناظرة الحسنى ، مقسمة بالتوزيع على الطبقات المختلفة من الناس ، فتختص كل طبقة بواحدة منها ، ولكنها وسائل قد يحتاج إليها كل فرد من الناس لتحقيق له الطمأنينة القلبية وتوجد له الانسجام النفسى ، فيقبل عقله ، وتهداً نفسه ، ويرضى قلبه ، ويكون مؤمناً بكل قوة من قواه ، وذلك هو كمال الايمان .



فهرس تفصیلی

الحياة الوجدانية

٦٢ — ٣

حاجة الفرد إلى بيئة

٣

تأثر الكائنات بعضها ببعض

٤

١٧ — ٥

الوجدان

ماهيته

٥

الفرق بينه وبين الإحساسات

٦

أنواعه

٩

دوام الشعور الوجداني بدوام الحياة

١٠

الوجدان العقلي والوجدان المادي

١٣

أثر الوجدان

١٤

الشعور الوجداني والحكم

١٤

الوجدان والشخصية

١٥

الوجدان والحياة

١٦

الانفعالات

٢٨ — ١٧

- | | |
|----|---------------------------------|
| ١٧ | ماهيتها |
| ١٨ | خصائصها |
| ٢١ | نظرية جيمز |
| ٢٤ | أثر الانفعالات |
| ٢٥ | قيمة الانفعالات كأداة للتفاهم |
| ٢٦ | الانفعالات والاضطرابات العصبية |
| ٢٧ | الانفعالات والاضطراب في التفكير |
| ٢٨ | الانفعالات وتركيز الانتباه |

العواطف

٦٢ — ٢٩

- | | |
|----|--|
| ٢٩ | ماهيتها ، والفرق بينها وبين الانفعالات |
| ٣٢ | موضوعاتها |
| ٣٢ | عوامل تكوينها النفسية |
| ٣٣ | أثر الغرائز في تكوين العواطف |
| ٣٣ | أثر الأمزجة في تكوين العواطف |
| ٣٥ | رأى القدامى والمحدثين في الأمزجة |
| ٣٦ | أسباب الاختلاف في الأمزجة |
| ٣٨ | المزاج السوداوى وأثره |

٣٩	المزاج البلغمي وأثره
٤١	المزاج الدموي وأثره
٤٢	المزاج الصفراوي وأثره
٤٣	أثر هذه الفروق الطبيعية في حياة الجماعة
٤٥	البيئة وأثرها في تكوين العواطف
٤٧	العواطف الرئيسية
٤٩	العواطف المكبوتة
٥١	علاج العواطف المكبوتة
٥٢	أثر العاطفة
٥٢	العواطف وبعثها على العمل
٥٣	أثر العواطف في تربية الشخصية
٥٥	العواطف والجماعة
٥٨	العواطف والتربية
٦٠	العواطف والتربية الدينية
٦٠	العواطف والتربية الاجتماعية
٦١	العواطف والدعوة إلى الله

الشخصية

١٢٢ — ٦٣

- ٦٥ ماهيتها
- ٦٧ الشخصية والميول الاجتماعية في الفرد
- ٦٨ الشخصية الحقيقية والشخصية الاعتبارية
- ٦٩ عوامل تكوين الشخصية
- ٧٠ ١ - الوراثة
- ٧٢ ٢ - البيئة
- ٧٤ ٣ - الفعل
- ٧٦ ٤ - الباعث
- ٧٨ ٥ - العادة
- ٧٩ قيمة هذه العوامل
- ٨٠ تكوين الشخصية
- ٨١ ١ - الشعور بالقوة
- ٨٢ ٢ - الشعور بعدم الكفاية
- ٨٤ ٣ - الشعور بالحاجة إلى جماعة
- الأمراض الاجتماعية التي تنشأ عن عدم التوفيق بين
- ٨٥ هذه الأنواع من الشعور
- ٨٦ ٤ - التعليم

٨٨	٥ - التربية الدينية
٩٠	أنواع الشخصية
٩٠	النظريون والعمليون
٩١	الفاعلون والمنفعلون
٩٢	قيمة هذا التقسيم
٩٣	الشخصية والمثل العليا
٩٤	التصرف الغرزي والشخصية
٩٥	التصرف الأناني والشخصية
٩٥	التصرف المثالي والشخصية

٩٦ — ١٠٧

الزعامة

٩٦	الزعامة والشخصية
٩٦	الزعامة والمثل العليا
٩٧	تفاوت الزعماء
٩٨	الزعامة والوطنية
٩٩	الزعامة وإيجاد روح التجانس
٩٩	الزعامة والتحول الفكري
١٠٠	الثبات على المبدأ وقيمه في الزعامة
١٠٢	قوة الشخصية والزعامة
١٠٣	المقدرة العقلية والزعامة
١٠٤	الشجاعة والزعامة

١٠٥	الفرق بين الزعامة واحتراف الزعامة
١٠٦	كيف يظهر الزعيم
١٢٢ — ١٠٧	الشذوذ
١٠٧	ماهيته
١٠٨	الشذوذ وصلته بالعاهات الجسمية
١٠٩	أسس السلامة العقلية
١٠٩	الاتجاه العقلي والشذوذ
١١١	الاتجاه الوجداني والشذوذ
١١٣	التصرف الغرزي والشذوذ
١١٣	الاخفاق والشذوذ
١١٦	أسباب الشذوذ
١١٦	١ - انعدام المقارنة بين المثل العليا والواقع
١١٧	٢ - عدم المقدرة على التكيف بالبيئة
١١٨	٣ - عقد النقص
١٢٠	أسباب عقد النقص
١٢١	الكفاح الداخلي بين النزعات والميول النفسية
١٢١	الشذوذ كنتيجة لنظرتنا للحياة
١٢٢	التربية الدينية والاتزان النفسى

الجماعة

١٢٣ — ١٩٦

- | | |
|-----|--------------------------------------|
| ١٢٥ | الشخصية والجماعة |
| ١٢٦ | طبيعة الجماعة |
| ١٣٠ | ١ - الجماعة والأجسام العضوية |
| ١٣١ | نقد هذا الرأي |
| ١٣٢ | ٢ - الجماعة والعقل |
| ١٣٢ | الجماعة وحدة نفسية |
| ١٣٥ | نقد هذا الرأي |
| ١٣٦ | المشاركة الوجدانية والحركات المشتركة |
| ١٣٨ | الميول المشتركة والحركات الجمعية |
| ١٣٩ | ٣ - الجماعة والمجموع |
| ١٣٩ | نقد هذا الرأي |

١٤١ — ١٥٥

الجماعة والفرد

- | | |
|-----|-------------------------------|
| ١٤١ | ١ - المذهب الفردي |
| ١٤٢ | الأساس النفسي لهذا المذهب |
| ١٤٣ | أثره الاقتصادي والخلق |
| ١٤٤ | نقد هذا المذهب من ناحية نفسية |
| ١٤٥ | نقده من ناحية الواقع |

- ١٤٧ ٢ - المذهب الجمعي
١٤٧ ارتباط هذا المذهب بالفلسفة المثالية
١٤٨ الفرد وعلاقته بالبيئة الاجتماعية
١٤٩ عقل الجماعة
١٥٠ القوانين الخلقية التي ترتبط بهذا المذهب
١٥١ نقد هذا المذهب
١٥٢ مقارنة بينه وبين النظرية الفردية
١٥٣ ٣ - النتيجة

١٦٢ - ١٥٥ مراحل الشعور بها

- ١٥٥ الفرد ومدى شعوره بالجماعة
١٥٧ ١ - عقلية الجماهير
١٥٧ وصف شعور الفرد فيها
١٥٨ متى يوجد هذا الشعور
١٥٩ درجته في ميزان تطور الفرد
١٥٩ ٢ - العقلية الفردية
١٥٩ وصف لشعور الفرد فيها
١٦٠ درجته في ميزان تطور الفرد
١٦١ ٣ - العقلية المثلى

أنواع الجماعة

١٦٢ — ١٧٥

- ١٦٢ أساس التفرقة بين الجماعة الموقته والجماعة الدائمة
١٦٤ ١ - الجماهير
١٦٤ أثر توزيع المسؤولية في تصرف الفرد من الجماهير
١٦٦ قدرة الجماهير على الحركة والتفكير
١٦٧ الخصائص النفسية للجماهير
١٦٧ أخطار التجمهر
١٦٨ ٢ - الجماعات الدائمة
١٦٨ الأسرة وخصائصها
١٧٢ المجتمع الانساني وخصائصه

تطور الجماعة ومقاييسه

١٧٥ — ١٨٨

- ١٧٥ ما هو التطور ، وما هي نواحيه ؟
١٧٦ هل تتطور الجماعات حقا ؟
١٨٠ معيار التطور
١٨٢ الجماعة المتطورة
قيمة الشعور بالمسؤوليات والاعتراف بالشخصيات في
١٨٤ الحكم بالتطور
١٨٥ جمود الجماعة

- ١٨٧ أسباب السقوط أسباب نفسية أكثر منها مادية
١٨٨ الروح الدينية علاج لتلك الحالات النفسية

الجماعة والعقيدة الدينية ١٨٨ — ١٩٦

- ١٨٨ حاجة الجماعة إلى الروح الدينية
١٩١ تمسك الجماعات بعقائدها
١٩١ وجوب تعهد الروح الدينية في الجماعة
١٩٤ نهوض الجماعة يعتمد على قيمة عقائدها لا على كميتها
١٩٤ تطرف الجمهور في الاعتقاد
١٩٥ تطرف بعض الخواص في رفض العقائد الدينية
١٩٥ ما يهذب كل واحد من هذين النوعين
١٩٦ الاشتراك في الاعتقاد أساس وحدة الجماعة

العقيدة الدينية ١٩٧ — ٢٨٧

ماهيتها ١٩٩ — ٢٠٨

- ١٩٩ صلتها بالعقل وبالارادة
٢٠٢ الاعتقاد والمعرفة
٢٠٣ تعريفها وأنواعها
٢٠٤ العقيدة حاجة نفسية

٢٠٥	الاعتقاد مشبع للميول الطبيعية
٢٠٦	أثر العقيدة في توجيه الفرد
٢٠٦	الاعتقاد واليقين
٢٠٧	الاعتقاد والعمل

تطور العقيدة ٢٠٨ — ٢٢٣

٢٠٨	ما هو المراد بالتطور
٢٠٨	العقل ومدى معرفته للأصل التاريخي للأديان
٢٠٩	العقيدة والأساطير
٢١٠	العقيدة والوحي
٢١٠	العقيدة و « الفيتشية »
٢١١	مناقشة هذا الرأي
٢١٢	أسلوب التدرج في التربية
٢١٣	التدرج في التربية الدينية
٢١٤	التطور الارتقائي في العقيدة
٢١٥	التطور النزولي فيها
٢١٦	العقيدة وحي الهى
٢١٧	مواهب الانسان وقيمتها في هدايته
٢١٩	الفرد في الجماعة
٢٢٠	حاجة الجماعة إلى الدين

٢٢١	حاجة الناس إلى الوحي
٢٢٣	النتيجة
٢٢٤ — ٢٥٥	العقيدة والفلسفة
٢٢٤	العقيدة والمعرفة القلبية
٢٢٤	المعرفة القلبية والمعرفة العقلية
٢٢٥	العقيدة والعقل
٢٢٥	العلاقة بين مسائل الفلسفة ومسائل الاعتقاد
٢٢٧	قدرة العقل على النظر في المسائل الدينية
٢٢٨	طريق الفلسفة وطريق الدين
٢٣٠	المعرفة وتحديد موضوعها
٢٣١	معرفة العقل لغير المحدود
٢٣٣	قيمة الكشف القلبي في المعرفة
٢٣٤	تفاوت الأفراد في الادراك العقلي
٢٣٥	التقليد
٢٣٥	الوحي وضرورة انسجامه مع العقل
٢٣٧	مثل الأعمى والبصير
٢٣٨	حال الرسول بالنسبة لمن أرسل إليهم
٢٣٩	قيمة المعجزة في تدعيم رسالة الرسول
٢٤٠	العقل هو الحاكم

٢٤٢ الالتزام الديني والالزام العقلي

٢٤٣ توقف فهمنا للكون ولوجوده على الايمان بوجود الله

٢٤٤ سعى العقل للوصول إلى السكلى وإلى المطلق - (الله)

معرفة العقل للسكلى والمعطلق ليست عن طريق

٢٤٨ الاستنباط

٢٤٨ وجود الله في الذهن واعتباره دليلا على وجوده الخارجى

٢٤٩ مناقضة العلماء لهذا الدليل

٢٤٩ إبطال لهذه المناقضة

٢٥١ الأنبياء والدعوة إلى الايمان بالله

٢٥٢ العقل والتكليف

٢٥٣ الايمان بالخرافات وسببه

٢٥٤ لماذا ينكر بعض الناس الأديان ؟

٢٥٤ أساس الطمأنينة القلبية في الاعتقاد

٢٧٦ - ٢٥٥ عوامل تكوين العقيدة

٢٥٥ الاعتقاد مكتسب ومعلول

٢٥٥ اختلاف عوامله باختلاف الأشخاص والعقائد

٢٥٧ الاعتقاد والعمل

٢٥٨ ارتباط الصفات النفسية بعضها ببعض

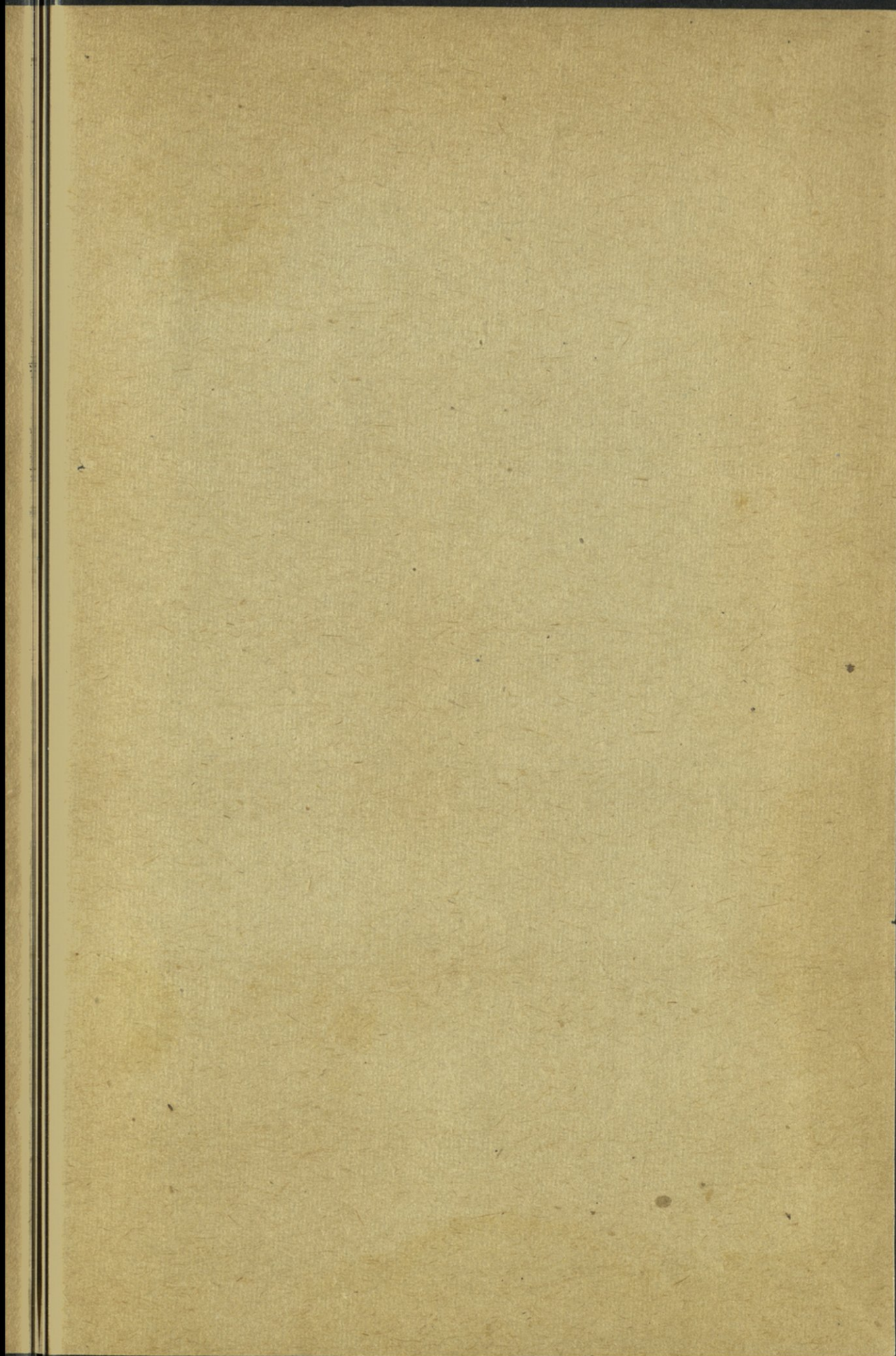
٢٥٩ مدى معرفة العقل لمسائل الاعتقاد

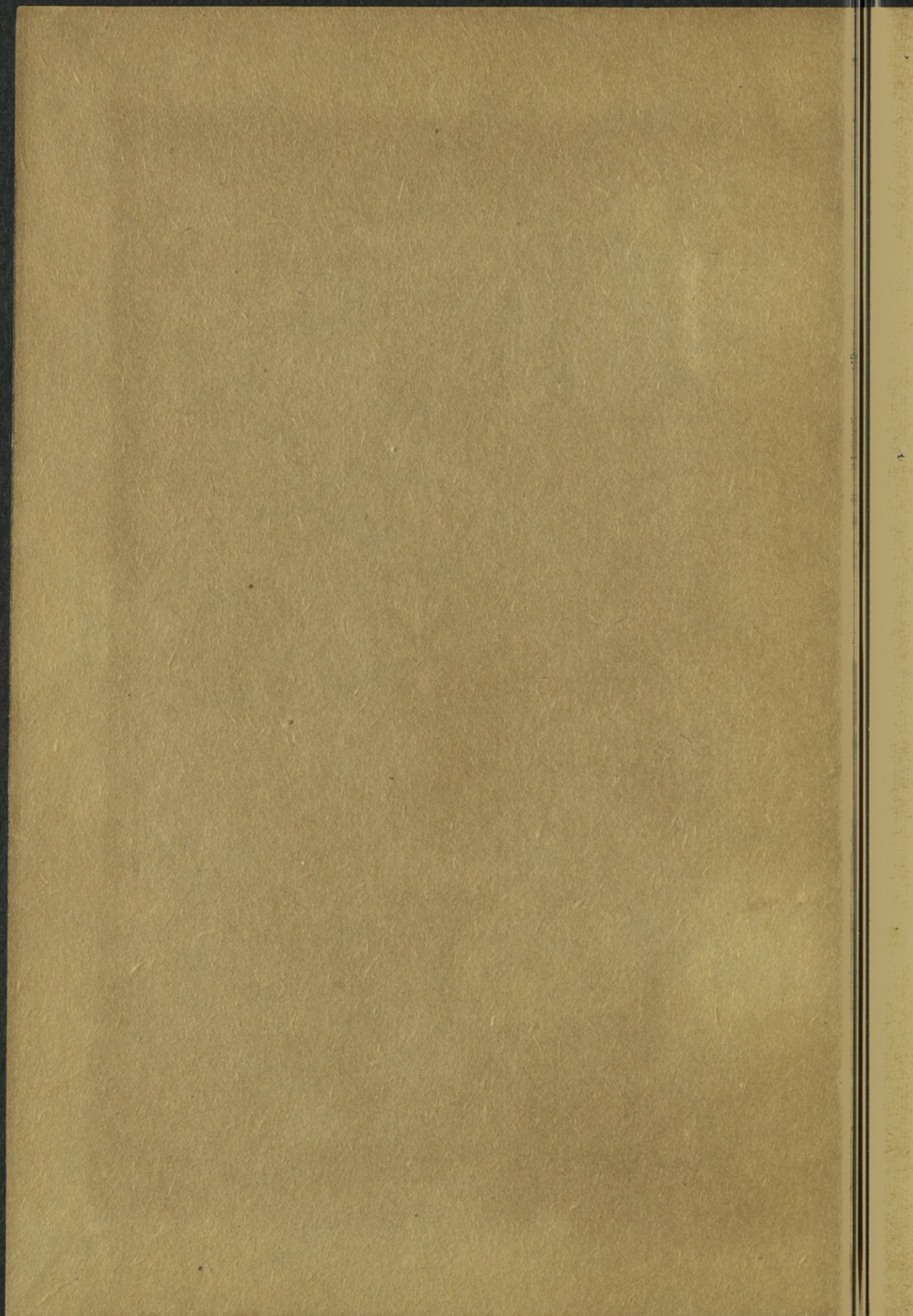
٢٦٢	العقيدة والارادة
٢٦٥	الدين والأخلاق
٢٦٥	الدين والمعرفة
٢٦٦	الوجدان والاعتقاد
٢٦٨	الاعتقاد وارتباطه بالشخصية الانسانية
٢٦٩	كيف تتكون العقيدة ؟
٢٦٩	الانسان والتدين الفطرى
٢٦٩	مهمة الدعاة توجيه الميول الدينية لا ايجادها
٢٧٠	الانسان وما فيه من تناقض نفسى
٢٧١	الانسان وتمثيله لكل نواحي الوجود
٢٧١	معرفة الانسان لله معرفة بدهية
٢٧٣	لماذا كان الله أقرب إلينا من حبل الوريد ؟
٢٧٤	حاجة العقيدة إلى حراسة ورعاية
٢٧٥	قيمة المظاهر المادية للعقيدة في تقويتها ونشرها

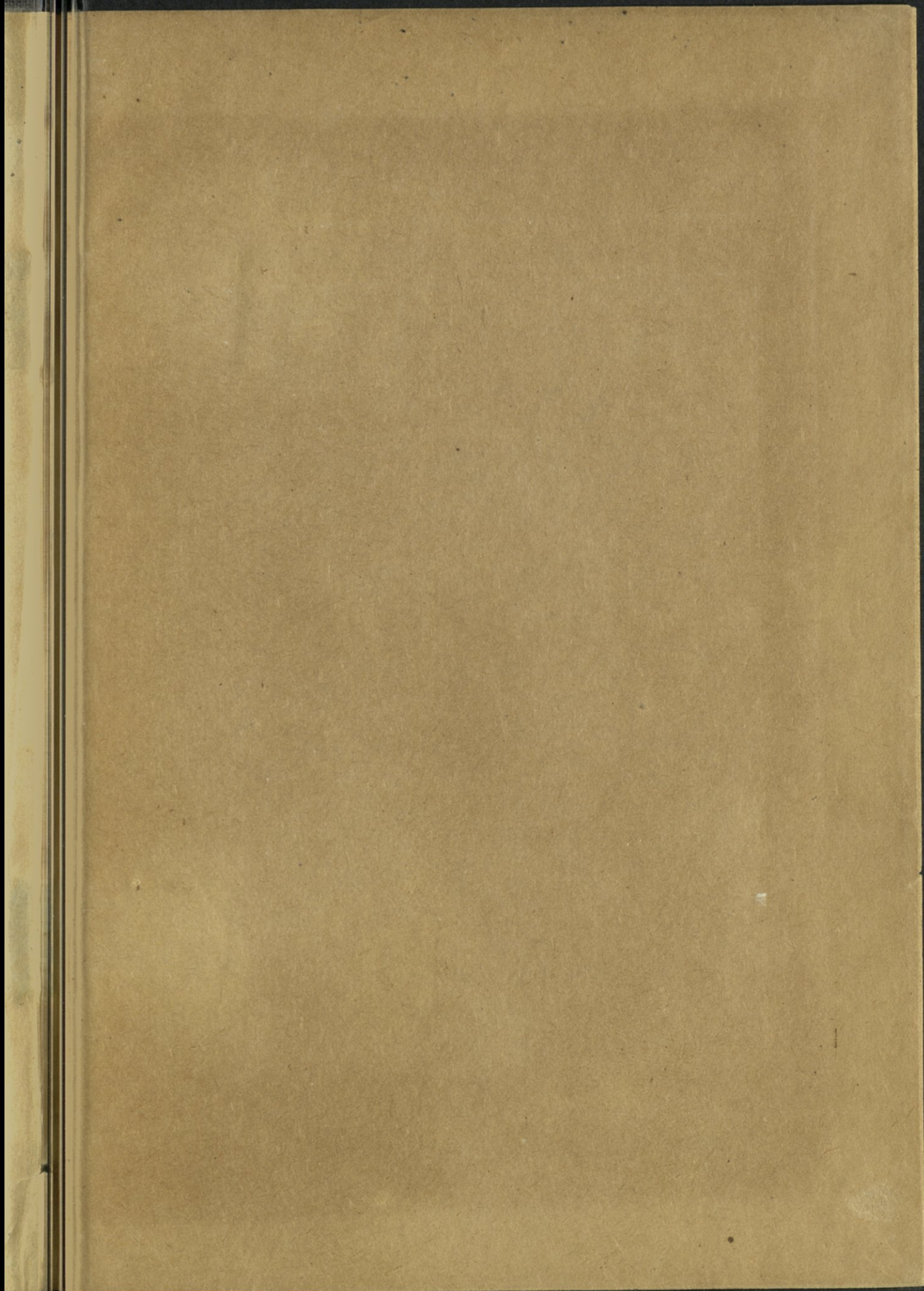
الإسلام ووسائل الاعتقاد ٢٧٦ — ٢٨٧

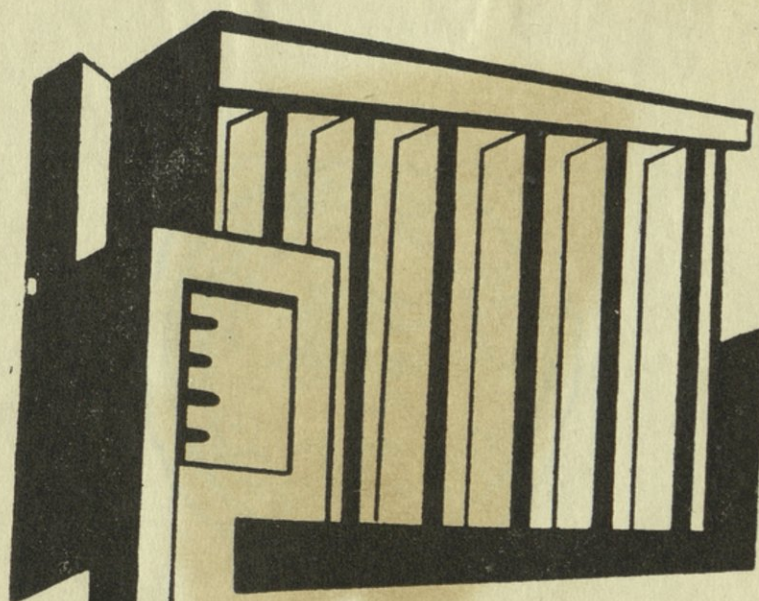
٢٧٦	الاسلام دين عقلى
٢٧٩	الاسلام واهدائه لايمان المضطر وكفره
٢٨٠	الاكراه وأثره في تكوين العقيدة
٢٨١	الاكراه في تاريخ الاسلام

٢٨٢	القتال في الاسلام
٢٨٣	القتال والدعوة إلى السلام في القرآن
٢٨٤	لماذا قاتل الرسول صلى الله عليه وسلم ؟
٢٨٦	وسائل الدعوة الحقيقية في الاسلام
٢٨٧	الأفراد وأساليب الدعوة
٣٠٣ - ٢٨٩	الفهرس









AMERICAN
UNIVERSITY OF BEIRUT

